

بمحنة التأليف والترجمة والنشر

العدالة والحرية

حوار سياسي

تأليف

ج. لوبس وكسن

ترجمه وعلق عليه

محمد بنزرك

مدير إدارة الترجمة بوزارة المعارف

العدد الثالث عشر

عينون الأدب العربي

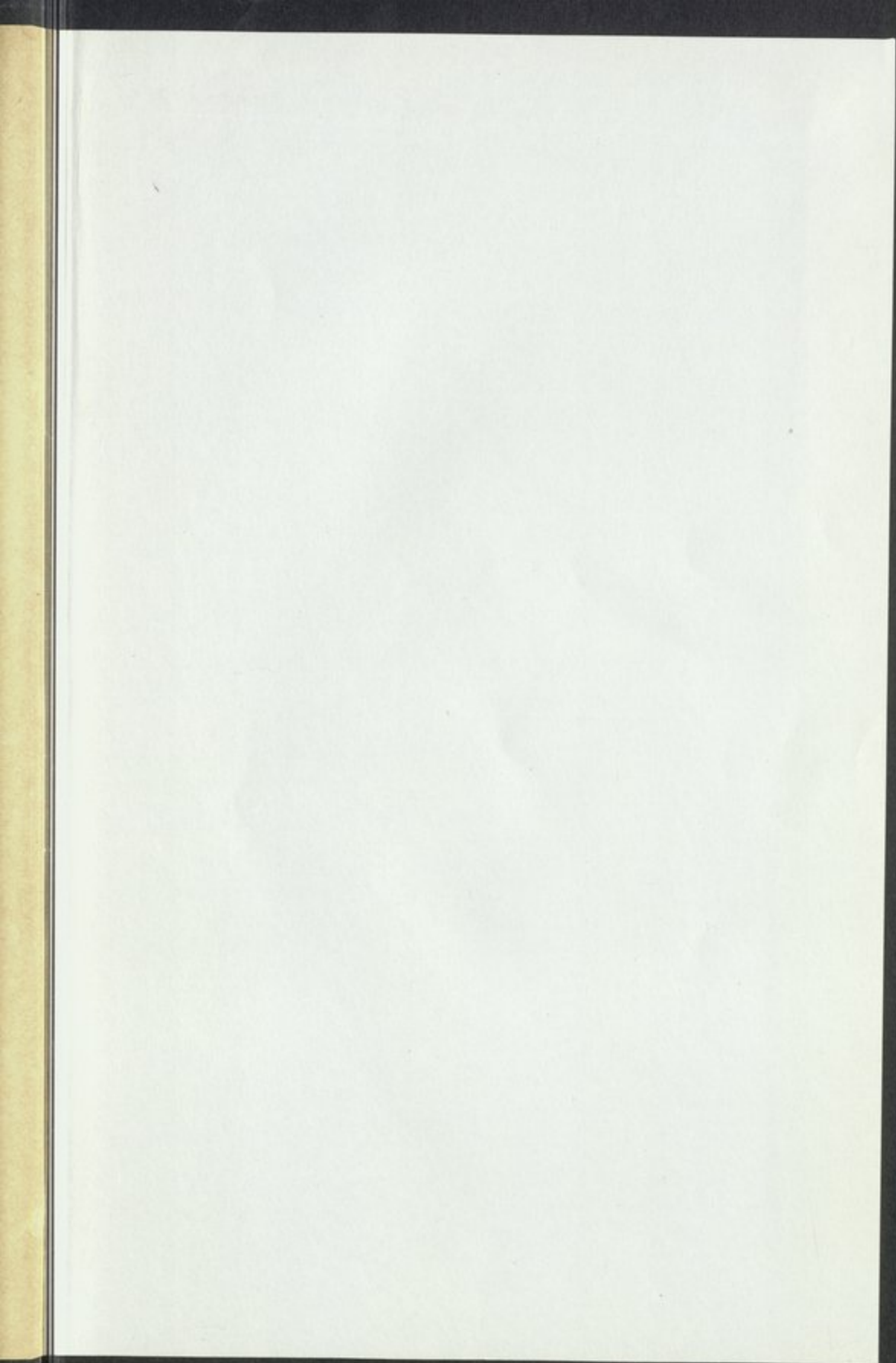
AUB. LIBRARY

American University of Beirut
University Libraries



Donated by
Dr. Samir Saleeby

CLUB LIBRARY



بمئة التأليف والترجمة والنشر

301
D55jA

العدالة والحرية

جوارسياسي

تأليف

ج . لوبس دكنن

ترجمه وعلق عليه

محمد بزران

مدير إدارة الترجمة بوزارة المعارف

العدد الثالث عشر

عيون الأدب العربي

تُورَثُ الْقَوَائِنُ وَالْحَقُوقُ كَمَا تُورَثُ الْأَمْرَاضُ الْمُرْمِيَّةُ

بِحِرَّةِ

الفهرس

صفحة	
٥-ح	مقدمة الترجمة
٣	١ المدخل
١١	٢ أنشال المجتمع
١٣	(١) الأجرية
١٩	(٢) الأرستقراطية
٢١	(٣) الأقلراطية
٢٣	(٤) الديمقراطية
٢٥	(٥) المجتمع الحاضر
٣١	٣ نظام الزواج
٣٣	(١) في تحديد عدد السكان
٣٨	(٢) في تحديد صفات السكان
٤٠	(٣) هل هذا التحديد مستطاع ؟
٤٢	(٤) الحب والزواج
٤٦	(٥) تنشئة الأجيال في ظل الأرستقراطية
٤٩	(٦) تنشئة الأجيال في الديمقراطية
٥١	٤ نظام الملكية
٥٤	(١) توزيع العمل في المجتمع الحاضر
٦٣	(٢) توزيع العمل في المجتمع الأرستقراطي
٦٧	(٣) توزيع العمل في المجتمع الديمقراطي
٧٦	(٤) توزيع ثمار العمل في المجتمع الحاضر
٧٧	(أ) توريث الثروة
٨٠	(ب) الربيع
٨١	(ج) الفائدة
٨٤	(د) الأجور
٩٥	(هـ) التوزيع المنصف لثمار العمل

صفحة

(١) التوزيع حسب الحاجة	١٠٠
(ب) التوزيع حسب الجدارة	١٠١
(٦) علاقة نظام الملكية بقدرة المجتمع على الإنتاج	١٠٨
§ ٥ الحكومة	١٢٣
(١) هل الحكومة لازمة ؟	١٢٣
(٢) مدى تدخل الحكومات في المجتمعات الحاضرة	١٣١
(٣) الحكومة في المجتمع الأرسطراطي	١٣٥
(٤) الحكومة في المجتمع الديمقراطي	١٣٧
(أ) تنظيم الزواج	١٣٩
(ب) التعليم	١٤١
(ج) تنظيم الصناعة على يد السلطات العامة	١٤٢
(د) تنظيم الصناعة بالإغراء	١٥١
(هـ) الصناعات غير المفيدة في الديمقراطية	١٦١
§ ٦ « روح » الجماعات التي نكلمنا عليها	١٧١
(١) روح المجتمع الحاضر	١٧٢
(٢) روح المجتمع الأرسطراطي	١٧٥
(٣) روح الديمقراطية الجماعية	١٧٧
(٤) روح الديمقراطية الفردية	١٧٨
§ ٧ موازنة بين الجماعات التي نكلمنا عليها	١٧٩
§ ٨ أهمية المثل السياسية العليا في توجيه الأساليب العملية	١٩٤
§ ٩ العلاقة بين الحقائق والمثل العليا	١٩٩

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عند ما اعتزمنا إخراج سلسلة من عيون الأدب العربي دلتنا أحد الخبراء بالأدب الإنجليزي على كتاب للأستاذ ج. لويس دكنسن ، وهو كتاب « معرض الآراء الحديثة » ، فعهدت لجنة التأليف في تعريبه إلى الأستاذ محمد رفعت ، وقد قرأته في العربية فأعجبت به لحسن عرضه للأفكار الاجتماعية والسياسية التي تشغل الأذهان في الوقت الحاضر في حوار سقراطي لطيف ، وأسلوب أدبي طريف ، وإيضاح للأفكار ممتع ، وتقصُّ لها مشبع ، ورأيت كتابه في الواقع تجديدًا لجمهورية أفلاطون معروضًا بأسلوب العصر وروحه ومشاكله ، ومستفيدًا من تقدم العلم والحضارة وتجارب الأزمان .

ومن ذلك الحين وعت ذا كرتى اسم لويس دكنسن وفضله . ومررت يوماً على مكتبة إنجليزية أقلب كتبها ، وأستعرض عناوينها ، وأقرأ فهارس بعض ما يعجبني منها ، وإذا في يدي كتاب آخر لهذا المؤلف العظيم فاشتريته وأنا واثق من قيمته ، وقرأته فوجدته صنو « معرض الآراء الحديثة » ، كلاهما يكمل صاحبه في عرض مشاكل العصر في النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، على نفس الطريقة في الحوار والإمتاع ؛ فائن كان الكتاب

الأول أدخل في باب النظريات السياسية فهذا الكتاب أمس بالشؤون الاجتماعية التفصيلية .

عرضته على أخى الأستاذ محمد بدران ورجوته قراءته ومقارنته بالكتاب الأول فشاركنى الإعجاب به وتفضيله ، وتوقع الاستفادة العظيمة منه ، فوافقنا لجنة التأليف على نشره وعهدت للأستاذ بدران بترجمته .
ثم قرأته فى ثوبه الجديد باللغة العربية فوجدت بينه وبين أصله شبهاً قويا بل حسناً متساوياً .

لا أشك فى أن هذا الكتاب يفتح لقراء العربية آفاقاً جديدة واسعة فى التفكير ، ويمدهم بآراء عميقة فيما يتكلمون فيه كل يوم كلاماً سطحياً . ومن مزاياه أنه كتاب موعز ملهم على قلة الكتب من هذا القبيل ، فأكثر الكتب تقرأها وتستفيد منها ولكنك تقف عندما عرضت من آراء ، أو روت من أخبار ، أما الكتب الموعزة الملهمة كهذا الكتاب فإنك تقرأ فيها الموضوع فيثير ذهنك ويحرك فكرك ، ويدعوك لأن تكمل بنفسك مابداً ، وتستمر فى الاستنتاج مما عرض ، وإذا عرض لمسألة فى بيئة غربية قارنت بينها وبين نظائرها فى بيئة شرقية ، وهذه الطريقة فى مثل هذه المباحث تربي الجيل وتؤهل لإنتاج القادة والمفكرين المستقلين .

لقد امتلأ المؤلف عقيدة بأن نظام العالم — كما هو عليه — غير صالح ولا موصل لسعادة الأفراد والأمم ، وجاءت الحرب الماضية (حرب سنة ١٩١٤) فكانت برهاناً قوياً على صدق نظره ، وأقامت الأمثلة المتعددة الحية على أن الأسس التى ترتكز عليها الحضارة غير متينة ، فهى تضطرب دائماً ، وتزلزل دائماً ، وتنتج الشرور دائماً ، فلا بد للسلام العام والسعادة العامة من تغييرها ،

وهذا ما نادى به في كتبه حتى في أخرج الأوقات . ولم تكن كوارث الحرب الماضية كافية لأن تصغى الشعوب وأولو أمرها لدكنسن وأمثاله ، فعاد العالم بعد الحرب سيرته الأولى ، وعادت الحرب أيضا سنة ١٩٣٩ سيرتها الأولى ، ولكنه كان قد مات بين الحربين ولم يتحقق رجاءه ، ولم يشهد الولايات الجديدة التي ضاعفت الولايات القديمة ؛ ولو شهدا لكان أندى صوتا وأعز نفرا . ولكن تعاليمه وتعاليم أمثاله لا تموت ، فصوت إصلاح النظام الحاضر والجهر بعيوبه والمناداة بتلافيه بعد الحرب ، وكثرة الباحثين في مستقبل العالم وما ينبغي أن يكون عليه ، كل هذا في حربنا الحاضرة أقوى منه في حربنا الماضية ، ولكن هل يتحقق رجاء المصلحين أو يخيب كما خاب رجاء « دكنسن » ؟

علم ذلك عند الله . ومهما خاب رجاء المصلحين فصوتهم يتزايد ورايتهم لا تسقط ، وكل يوم يلد العالم من يحملها ، وكل كوارث تحدث يتبعها إصلاح يتم ، وكلما تم إصلاح وجد من يطالب بأنهم منه ؛ هكذا سنة العالم : تغير مستمر ، ورتق مستمر ، وسير إلى الأمام مستمر ، حتى يصل إلى الغاية ، وما أظنه يصل إليها ولسكنه على الرغم من ذلك يقرب منها .

« إن الأنبياء والمصلحين والشعراء هم الثائرون على النظم الحاضرة ، وهم الذين يؤيدون حقوق الإنسان كما سيكون ، وكما يجب أن يكون ، لا كما هو كائن ؛ إنهم عصارة الحياة تجري في شجرة الإنسانية ، وهم الغصون النامية تشق طريقها إلى الضوء ؛ فإذا مارفع الرجل العمل عقيرته ونادى — إن هذه الشجرة أخشاب ميتة — وردد صدى ندائه رجل العلم ، أجابه المصلح أو الشاعر على الفور إن هذه الشجرة حية وإن ماء الحياة يجري فيها ، وفيها أوراق وبراعم ، وإن تكون كما هي الآن إذا أقبل الربيع ، إنى أعرف هذا حق المعرفة وأنا واثق منه كل الوثوق ، وإن كنت لا أستطيع أن أقم عليه الدليل . »

هكذا يتصور دكنسن المصلح وعمله وأمله ، وتلمح مصداق هذا في كل فصل
من فصول كتبه وفي ثنايا سطره .

فأهني الأستاذ محمد بدران على ما نال من توفيق في ترجمة هذا الكتاب
النافع وما أضاف إليه من تعليقات توضيح غامضة وتبجلى إشاراته .
والله المستول أن ينفع به كما نفع بأصله .

أحمد أمين

المتحدثون

Henry Martin : أستاذ

هنري مارتين

Charles Stuart : مدير مصرف

تشارلس استيورت

Sir John Harrington : سري لا يعمل

سير جون هرنجتون

一
二
三
四
五
六
七
八
九
十

القَدَالَةُ وَالْحُرِّيَّةُ

حِوَارُ سَيَّاسِي

استيورت : أفى المكان عينه ؟ . لقد كنت أعرف أننا سنجدك حتماً في هذا المكان . ولا تزال أيضاً تدرس ؟

مارتن : أو أحلم . أكبر الظن أنك ستسمى ذلك حلاً . إن المكان يحببه إلى ، فأنا مولع بمنظر الماء الجارى وخزيره ، ومعجب بمراى السفوح العظيمة الخضراء ، يفوح منها عبير الصنوبر ، وصخور الحجر الأبل تتلألأ فى الهواء ؛ ولكننى اليوم أودع هذا كله لأنى عائد غداً إلى موطنى .

هرنجتن : غداً ؟ ولم هذا ؟

مارتن : لأن بعد غد يوم الانتخاب فى دائرتى .

هرنجتن : وهل أنت عائد حقاً لانتخب ؟

مارتن : أجل ما فى ذلك شك . ولم لا ؟

استيورت : ألسنت تعلم أن صاحبنا سياسى عظيم ؟ لقد اضطرت فى أثناء حرب البوير^(١) إلى الاشتراك فى معركة حامية لأدفع عنه جماعة من أعدائه ؛

(١) قامت هذه الحرب بين الإنجليز وجمهورية ترانسفال والأورنج الحرة فى شهر أكتوبر من عام ١٨٩٩ ، وتحمل الإنجليز فى أول الحرب ضربات عنيفة على يد القائد البويرى كروجر Kruger لاستخفافهم بقوة أعدائهم . ثم هبت المستعمرات الإنجليزية فى كندا وأستراليا ونيوزلندا الجديدة والأجزاء التى ظلت موالية للإنجليز فى جنوب إفريقيا لمساعدة إنجلترا . كما تفعل المستعمرات الإنجليزية فى هذه الأيام . وأرسل إلى جنوب إفريقيا قائد جديد ومعه رئيس أركان حرب لورد ككتشنر ، فانتصر الإنجليز على البوير فى عدة مواقع فى عام ١٩٠٠ فر على أثرها القائد كروجر إلى أوربة ، وأخذ يشير الرأى العام الأوروبى =

وكان من أكثر ما ألتنى في هذا الحادث أنى بطبيعة الحال من أنصار الرأى المخالف له .

مارتن : إن استيورت يحترق آرائى السياسية أشد الاحتقار .

استيورت : ليس لى أقل اعتراض على آرائك ما دمت لا تخرجها من حيز التفكير إلى حيز التنفيذ ، ولست أعارضك لأن لك آراء نظرية تعتنقها ، بل لأنك تريد أن تطبق هذه الآراء عمليا .

مارتن : من سوء حظى أننى لا أستطيع مهما حسنت نيتى أن أفرق بين الأفكار والأعمال . وفى الحق أننى قد بذلت فى هذا جهداً كبيراً ، فقد كنت وأنا شاب غارق فى بحار الفلسفة ، أرى العالم المادى من حولى يؤلم قلبى ويقض مضجعى بعناده وإصراره ، وهو ظاهر الاستقلال عن تفكيرى ، حتى اعترمت أخيراً أن أندفع فى تياره لأعرف كنهه وأسبر غوره ، فأصبحت مهندساً ، أو بعبارة أصح حاولت أن أكون مهندساً ، ولسكن ذلك لم يجدنى نفعا ، فقد قادنى المصنع إلى علم الحيل ، وأسألتنى هذا إلى علم الطبيعة ، ثم عاد بى هذا العلم الأخير إلى ما وراء الطبيعة ، ووجدت العالم الحقيقى كما يسميه الناس مجرد نسيج واحد من مادة الأفكار^(١) . أما هو فى صورته الظاهرة التى يبدو فيها للناس فلم يكن ليثير اهتمامى ، بل كل ما كنت أهتم به فيه هو أنه روح متجسد ، وقد ظل هذا رأى فيه طوال حياتى . وأما الحياة العملية فبأنى كلما حاولت أن أخترق حجبتها وأسكن إليها قذفت بى مرة أخرى إلى عالم الأفكار استيورت : إن معنى هذا فى رأى أنك قد خلقت لتكون من علماء

== على الإنجليز . على أن الحرب لم تنته بهذه الهزائم ، لأن البوير عمدوا إلى حرب العصابات ، وظلوا يهاجمون قوافل المؤن والحاميات المنفرقة حتى شهر أبريل من عام ١٩٠٢ ، ثم انتهى الأمر بتسليمهم إلى لورد كيتشنر فى شهر مايو عام ١٩٠٢ .
(١) انظر قول شيكسبير فى رواية العاصفة : « إن نحن إلا مادة من نسيج الأحلام » .

ما وراء الطبيعة وذلك ما كنت أظنه على الدوام .

مارتن : لست كذلك مع الأسف ، لأن عالم الأفكار يقذف بي مرة أخرى وبالسرعة نفسها إلى عالم الواقع ، فكأننى روح من تلك الأرواح البائسة التى لا تجد لها مكاناً فى الجنة ولا فى الجحيم ، فإذا ما بدأت مع هيجل Hegel^(١) وجدت نفسى آخر الأمر فى سوق المال ، وإذا بدأت بسوق المال انتهى بي المطاف إلى هيجل .

استيورت : وإذا بدأت كما بدأنا من زمن قريب بإصلاح ضريبة الدخل ، انتهيت ببحث المبادئ التى تحتويها « جمهورية » أفلاطون^(٢) .

مارتن : إن هرنجتن هو الذى قادنا إلى هذا البحث ، ولكن الصلة بين الاثنين واضحة كل الوضوح .

استيورت : أخشى أن أقول إن هذه الصلة لا تزال بعيدة عن إدراكى .
مارتن : إننى أراك مثل معظم من لقيتهم من رجال الأعمال مطمئناً إلى الإيمان بغائية نظام الأشياء ، ولا تقل دهشتى من هذه العقيدة عن دهشتك أنت من ميلى إلى ما لم تعرف أو تجرب . أظنك تعلم بوجه عام أن تاريخ الإنسان ليس إلا تطوراً مستمراً ، وأن الثغرة التى تفصل البريطانى القديم عن الإنجليزى الحديث ، لا تقل اتساعاً عن الثغرة التى بين الإنجليزى الحديث وذلك الرجل المثالى الذى يقصده أصحاب المثل العليا إن لم تزد عليها ؛ ولسكنك مع ذلك ترفض من غير تدبر صور المستقبل ، التى هى فى رأى كل

(١) هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١) : الفيلسوف الألمانى الشهير وأستاذ الفلسفة فى جامعة جينا فى برلين . كان الناس يحضرون من جميع أنحاء ألمانيا ومن خارج ألمانيا يستمعوا إلى محاضراته فى المنطق ، وما وراء الطبيعة ، وفلسفة الأخلاق ، والسياسة ، وعلم الجمال ، والفلسفة الدينية والاجتماعية ، وعلم النفس .

(٢) أفلاطون : هو الفيلسوف اليونانى الشهير معلم أرسطو . عاش فى القرن الرابع قبل الميلاد ، وله عدة كتب فلسفية أهمها كتاب الجمهورية فى الأخلاق ونظم الحكم .

ما يستحق البحث والتفكير ، وتعدّها أحلاماً وأوهاماً لا يستطيع تحقيقها .
استيورت : لست أرفضها لأنها تشير إلى نظام مخالف للنظام الذى نعيش
فى كنفه — ونحن مقبلون من غير شك على نظام غير نظامنا هذا ، خيراً
كان ذلك النظام الجديد أو شراً — ولكننى أرفضها لأنى أرى أن الاقتراحات
التي تفرضها على لا يستطيع تحقيقها عملياً .

مارتن : حسن ، ولكننى أسألك كيف تحكم عليها هذا الحكم القاطع وتعدّها
غير مستطاعة التحقيق ، مع أنى ألقى عناء كبيراً فى الحكم عليها بأنها
مستطاعة أو غير مستطاعة ؟

استيورت : أظن أن الذى يدفعنى إلى هذا الحكم هو أن الخطة التي سرت
عليها فى حياتى قد قربتنى من حقائق الحياة أكثر من الخطة التي سرت
عليها أنت ، وأرجو ألا يكون فى هذا القول ما يغضبك .

مارتن : إن هذا ليميدو تفسيراً معقولاً ، وكثيراً ما حاولت أن أقنع نفسى
بقبوله ؛ ولقد كان يسرنى أن أبتعد عن كل هذه المشاكل لو استطعت ، بحجة
أننى عاجز عن مواجهتها ، ولكننى عندما أتحدث إلى رجال الأعمال بما
أعتقد أنه الصراحة الكاملة ، يسوءنى موقفهم أشد الاستياء ؛ فهم أكثر
منى علماً بشئون أعمالهم ، ولا يقولون عنى قدرة على تحمّل ما يعرفون وفهمه
حق الفهم ، ولكنهم رغم هذا يحتفظون فى خبايا عقولهم بطائفة من الأفكار
عما هو منصف وما هو محبوب ، وينزلونها منزلة البدائى ، وهى مبادئ
لم يبحثوها بأنفسهم قط ، ولا أومن بها مطلقاً ، ولكنهم يقيمون عليها
كل حججهم .

استيورت : وما هى هذه البدائى التي تشير إليها .
مارتن : دعنى أذكر لك أهمها وأكثرها انتشاراً . هم يقولون مثلاً إن

الملكية والأسرة من الحقائق المقدسة النهائية ؛ ويعنون بالملكية والأسرة
سنن هاتين المشكلتين الأساسيتين القائمة في هذه الأيام . فإذا ما عرض عليهم
تبديل جوهرى في هذه السنن ، أعرضوا عنه ولم يعيروه التفاتاً ، وإن بدا
منهم أنهم يجادلون فيه ، وهم في الواقع قد رفضوه قبل أن يناقشوه . وإني
لأعتقد على الرغم منى أن بعض رجال الاقتصاد أنفسهم يعالجون المسائل
الاقتصادية بهذه الطريقة عينها ؛ وترى الكثيرين منهم ، رغم علمهم وإيمانهم
بعقائدهم ، دعاة في حقيقة أمرهم أكثر منهم علماء .

استمورت : إذا كانت حججهم قوية قاطعة فسواء علينا أكانوا دعاة أم
علماء . إني أنا شخصياً لا أبرئ نفسي من التحيز والهوى ، ولست أعتقد
أن في الخلق كلهم ، من مضى منهم ومن سيجىء ، من هو برئ من الهوى
والتحيز ؛ ولكن اعتراضى على كل ما سمعته من مشروعات الإصلاح
الواسعة البعيدة المدى ، لا يقوم على الهوى ، وإن كان هذا الهوى مما يقوى
اعتراضى ويؤيده ، بل يقوم في الواقع على المنطق الصارم .

مارتن : نعم ، ولكن إلى أى حد تبلغ هذه الصرامة ؟ ذلك ثانى أسباب
متاعبى . إن الصعوبة التى تكتنف كل ما يدور حول هذه الموضوعات من
نقاش ، هى أن المتناقشين يعودون في آخر الأمر إلى حقائق عن الطبيعة
البشرية يفترضونها افتراضاً . فكل من حدثهم أنا يفترضون على الدوام تقريباً
أن الطبيعة البشرية كمية ثابتة قاسوها وقدروها تقديرًا دقيقاً ، لا ينقص عن
الحقيقة أو يزيد عليها إلا قليلاً . أما أنا فأعتقد أنها كائن حي دائم التطور ،
فهى لم تسكن من ألف عام مضى كما هى اليوم ، ولن تكون كذلك بعد
ألف عام من وقتنا هذا . وليست هى فى آسية أو إفريقيا كما هى فى أوربة ،
فهى مخلوق ينمو على الدوام لا نكاد نعرف شيئاً عن سنن نموه ؛ ولهذا أرى

أنك إذا وقفت بها عند حد معين ، وقلت : « هذه هي الطبيعة البشرية ، وهكذا يجب أن تكون ، ومن أجل ذلك لا يمكن أن يكون للمجتمع إلا هذه الصورة أو تلك » ، إذا فعلت ذلك كنت أبعد ما تكون عن العقل . وهذا هو الذى يجعلنى أخرج من كل جدل مهما كانت حدته ، وكل تحليل مهما تسكن دفته ، وأنا كاره له غير مقتنع به ، وأحس أنه بأجمعه قائم على فروض لا أستطيع قبولها .

استيورت : إن كل من أوتى شيئاً من العقل لا يستطيع أن ينكر أن الطبيعة البشرية فى تغير مستمر يجعل ما ليس مستطاعاً الآن مستطاعاً فى المستقبل . وكل ما أقوله إن الواجب عليكم أن تغيروا طبيعتكم قبل أن تعبثوا بنظامكم . مارتن : وهذا أيضاً يبدو فى ظاهره قولاً سليماً معقولاً ، ولكنه من الوجهة العملية معطل للرقى والتقدم . ذلك أنه إذا صح أن النظم تعتمد على الطبيعة البشرية ، فإن الطبيعة البشرية أيضاً تعتمد على هذه النظم وعلى رأينا فيها ؛ وإذا اعتقدت أن هذه النظم مقدسة لا يصح أن يوجه إليها نقد أو تجريب فيها تجارب ، فإنك بذلك تعطل تغير الطبيعة البشرية التغير الذى تقول إنك راغب فيه ، وذلك لأنك بعملك هذا تسكب سورة الروح التى لا بد منها لحدوث ذلك التغير . ليس يكفى أن تحت الأغنياء على أن يكونوا كرماء ذوى نبل ومروءة ، وأن تحت الفقراء على أن يكونوا صابرين مقتصدين ؛ إن كلامك هذا لا يترك فى الناس أثراً ، وإنما الذى يحركهم هو أن تبين لهم أن النظام الذى يعيشون فى كنفه نظام لا يتفق مع العقل ولا مع العدالة . فإذا فعلت ذلك فإنهم قد يحسون بعيب هذا النظام وثقل وطأته عليهم فلا يطيقون البقاء فى ظله ، وعندئذ ، وعندئذ فقط ، شيئاً الظروف التى يصح أن تتغير فيها الطبيعة البشرية .

استيورت : إن في العالم كثيراً من الاشتراكيين يحاولون أن يكشفوا عن هذا السوء .

مارتن : نعم ، ولكن الطريقة التي يعرضون بها قضيتهم قد عجزت لسبب ما عن إقناع أشد الناس حاجة إلى الإقناع ، وهم أولئك الرجال القادرون الذين يسيطرون على عالم الأعمال ويوجهونه حيث يشاءون .

استيورت : وأنا أقول إن علة عدم اقتناعهم هي أنهم حقاً رجال قادرون .
مارتن : لست أظن هذا ، بل أرى أن علة عدم اقتناعهم هي أنهم رجال لم يؤثروا إلا حظاً قليلاً من التعليم ، وأن خيالهم ضيق محصور في دائرة أعمالهم ، فهم عاجزون عن رؤية الحقائق التي يلفت الاشتراكيون أنظارهم إليها لأنهم لا يشعرون بها شعوراً حقاً ، فهم يفندون آراء أولئك الاشتراكيين ، أو بعبارة أصح هم يتجاهلون هذه الآراء ، من غير أن يفهموها ، وهم لم يفهموها لأنهم لم يقدروها حق قدرها . ولست أنكر عليهم حسن طوبيتهم ، ولكن الذي أنكره هو كفايتهم ؛ فهم لم يجربوا تلك الثورة النفسية التي جعلت الاشتراكي اشتراكياً ، لأنها أظهرت له كل شيء في ضوء جديد ، أظهرت له حقائق الحاضر وممكنات المستقبل . ويخيل إلى أن هؤلاء أعظم قدرة من معظم الاشتراكيين ، وقد بلغوا من الكفاية مبلغاً لا أستطيع معه أن أتصور حدوث انقلاب ناجح في الأفكار إلا إذا رضوا عنه وتعاونوا تعاوناً جدياً مع القائمين به . ولكن كفايتهم لا يكون لها أقل أثر في الغرض الذي أعني به إلا إذا تطوروا تطوراً يصل بهم إلى حد التحول عن عقائدهم ؛ ولست أنكر أنهم حتى بعد هذا التحول قد يظلون معارضين لكل ما يقترحه الاشتراكيون وإن كنت أرجح أنهم لن يظلوا كذلك ، ولكن معارضتهم إذا بقيت ستكون غير ما هي الآن ، ستكون معارضة أناس يريدون أن يعينوا غيرهم

على الإصلاح ، لا أن يقفوا في سبيله ، شعارهم « إذا لم يكن هذا الشيء أو ذاك مستطاعاً من الناحية العملية ، فلنجرّب غيره هذا أو ذاك » . أما الآن فإن موقفهم يتمثل غالباً في قولهم : « إن علينا أن نثبت أن كل شيء غير مستطاع عملياً ، حتى لا يعمل شيء قط » .

استيورت : إذا وصل الأمر إلى هذا الحد فلم تطلب حدوث ذلك التغيير الأساسى الثورى ؟ إنى لست من المتفائلين الذين يحسنون الظن بكل شيء ، وأرى أن فى العالم شراً كثيراً ، وأن من هذا الشر ما يستطيع منعه والقضاء عليه ، ولكننى لست أيضاً من المتشائمين ، وأرى أن الأمور فى وضعها الحالى مما يمكن احتمالها ؛ فالاجتماع بشكلكه الحاضر آلة مهما يكن فيها من عيوب تدور وتؤدى عملها ، ولكنك إذا ما فصلتها وفككت أجزائها لتصالح من شأنها ، فقد تعجز عن أن تعيد هذه الأجزاء إلى مكانها الأول .

مارتن : وهل تظن أن هذا يكون رأيك إذا كنت ، وأنت صاحب هذه التجارب والمواهب ، من طبقة الفقراء لا من طبقة الموسرين .
استيورت : أظن أن هذا ما يجب أن يكون ، ولكنك قد لا يكون ، لأن الحقد أو الأمل قد يعميان بصيرتى .

مارتن : ألسن الآن أعمى البصيرة ، أعماك الخوف إن لم يعملك الأمل ؟ أليست طائفتنا كلها عمياء إلا من تحول منها عن آرائه ؟
استيورت : قد يكون هذا ، ولكن لا فائدة ترجى من أن يستبدل هوى بهوى سواه .

مارتن : لسن فى وسعنا أن نحاول إصلاح أحدهما بمراعاة الآخر . وعلى أية حال فإن من الخير للأغنياء أن ينظروا إلى المجتمع بأعين الفقراء .
استيورت : أظن أن هذا نفسه هو الذى يفعلونه كلهم .

مارتن : كلا . إنهم لا يفعلونه كلهم ، وأكثرهم امتناعاً عن فعله أولئك الذين يجب عليهم أكثر مما يجب على غيرهم أن يفعلوه ، أغنى رجال الأعمال الذين تقع عليهم أكثر من غيرهم تبعة استمرار نظامنا الاجتماعي الحاضر ، خيراً كان هذا النظام أو شراً .

استيورت : وهل أولئك هم الذين يحتاجون إلى الهداية ؟
مارتن : نعم .

استيورت : حسن ! إني واحد منهم ، وهأنذا رهين إشارتك ، فاهدني إذا استطعت .

مارتن : إني آسف ، لاني لست نبياً هادياً ولا اقتصادياً ، بل إني لست أيضاً اشتراكياً ؛ وخير ما أستطيعه أن أكون باحثاً حائراً ذا ميول اشتراكية ؛ وفوق هذا فإن عليّ أن أبدأ بهداية هرنجتين .

استيورت : ما هذا ؟ أليختلف الطبيبان ؟

مارتن : نعم ولكنهما متفقان على ألا يتفقا معك . إني أنا وهرنجتين ساخطان على نظامنا الاجتماعي الحاضر ، وإن كنا غير متفقين على النظام الذي يجب أن نستبدله به .

استيورت : وما هو موضع الخلاف بينكما ؟

مارتن : الخلاف أنه أرسقراطي وأنا ديمقراطي .

استيورت : حسن ، وأنا نفسي أرسقراطي بعض الشيء ، ولهذا أظن أنني سأتفق معه .

هرنجتين : هذا بعيد الاحتمال ، لأنني مثل مارتن من المثاليين .

استيورت : أظنك مثالياً من أولئك المتكبرين المتباعدين عن الناس ، وإن كنت لا تقحم مثالييتك في كل شيء كما يقحمها هو ، لأنك في ظني لا تتصور أن هذه المثالية من الأشياء العملية .

§ ١ المرفل

هرنجتن : است أرى في هذا الزمن الخبيث شيئا صالحا عمليا .
مارتن : إنكما تريان حرج مركزي بينكما ؛ إن عليّ أن أقنعكما بقيمة
المثل العليا عامة ، وعليّ أيضاً أن أقنع هرنجتين بفضل مثلي الأعلى على مثله .
استيورت : إفعل ما بدا لك ، وإذا أردت أن تقضي آخر أيامك في هذه
المحاولة العقيمة فلن تجد مني معارضة .

مارتن : وهل في وسعي أن أقضي آخر أيامي فيما هو خير من هذا العمل
إذا لم تجد أنت ما يمنعك من الإصغاء إليّ ؟

استيورت : است ممانعاً قط ، وها هي ذى قصبة تدخيني أشعلها .

مارتن : إذن فدخن واصغ إلى ، وقاطع كلما أحببت ، وأرجو أن
تكثر من هذه المقاطعة لأنني أريد أن أستثيرك .

استيورت : أبذل في هذا أقصى جهديك ، فإني من أهدأ الناس طبعاً .

مارتن : إن الذي يجب عليّ نحو هرنجتين هو أن أستنتج منه مثله الأعلى
ثم أوازن بينه وبين مثلي ؛ وأما ما يجب عليّ نحوك فهو أن أوازن بين مثليها من
جهة وبين حال مجتمعتنا الحاضر من جهة أخرى ، فأثبت لك بهذه الموازنة
أنا في حاجة إلى المثل العليا ، وإلى المثل العليا الواضحة المحددة ، لنحكم بها
على هذا المجتمع ، ونصلح بها من شأنه .

استيورت : حسن جداً .

مارتن : سأبدأ إذن من نقطة أنا وهرنجتن متفقان عليها ، وهي

§ ٢ أشكال المجتمع
(١) الأبركية

(١) الأبركية لفظ إغريقي مكون من كلمتين Oligos = قليل ، وأركين Archein =
الحكم . وكان الكتاب السياسيون من الإغريق القدماء يستعملون هذا اللفظ للدلالة على
الحكومة التي تتولاها أقلية من الأعيان يستخدمون سلطتهم في الغالب لمصالحهم الخاصة
وتوسيع دائرة امتيازاتهم وسلطانهم . فهي بالنسبة للأرستقراطية كالاستبداد بالنسبة
للملكية . ويستعمله مؤلف هذا الكتاب للدلالة على المجتمع الذي تسوده هذه الفئة .

أنا نعى بالأرستقراطية والديمقراطية صورتين من صور المجتمع لا من صور الحكم ، وأن الذى يميز إحدى الصورتين عن الأخرى هو الغاية التى يضعها المجتمع نصب عينيه ، وليس هو عدد الأشخاص الذين يعهد إليهم المجتمع بالسلطة السياسية .

هرنجتن : هذا ما لا شك فيه .

مارتن : وهل توافق على أن الفرق بينهما هو هذا أو ما يقرب منه : أن الأرستقراطية والديمقراطية صورتان من صور المجتمع لا من صور الحكم ، وأن الذى يميز إحدى الصورتين عن الأخرى هو الغاية التى يضعها المجتمع نصب عينيه ، وليس هو عدد الأشخاص الذين يعهد إليهم المجتمع بالسلطة السياسية ؟

هرنجتن : هذا ما لا شك فيه .

مارتن : وهل توافق على أن الفرق بينهما هو هذا أو ما يقرب منه : أن الأرستقراطية تعمل لصالح طائفة خاصة وأما الديمقراطية فتعمل لخير الجموع ؟
هرنجتن : لست أظن أنك تنتظر منى أن أسلم لك بهذا . إن الأرستقراطية كما أفهمها أنا تعمل بالتأكيد لخير الجموع .

مارتن : إذن فأنت من مبدأ الأمر تخالف رأى إحدى مدارس التفكير الحديثة التى تعتقد أن الخير هو القوة دون غيرها ؟ على أن من واجبي أن أعذر إليهم حين أستعمل كلمة الخير لأنهم لا يعتقدون بشيء من هذا القبيل ، ولسكنى أحسبهم وإن نبذوا هذا اللفظ يقصدون معناه ، فهم يقولون إن القوة هى الشيء الوحيد الذى يجب أن يعنى بالعمل له كل رجل كريم ، وهم يعظمون من يعملون لها ويحقرون من لا يسعون إليها .

هرنجتن : وهل يفهمون من القوة السيطرة على غيرهم من الناس ؟

مارتن نعم ، وهم يرون أن هذه السيطرة غاية في ذاتها ، وأن العدالة والرحمة والإنسانية وما إليها من الصفات مثل عليا باطلة ، لا يؤمن بها إلا الضعفاء والمنحطون من الناس ، وهم لذلك يرون أن المجتمع الأرستقراطي هو المجتمع الذي تخضع فيه كتلة الشعب إلى أقلية منه ، لا تستخدم سلطانها لخير الشعب ، لأن ذلك في اعتقادها مبدأ باطل ، بل تستخدمه لتتسل من ورائه الرفعة في الحياة .

هرنجتن : أظنك تفكر في نشة^(١) ومن يقولون إنهم تلاميذه وأتباعه ، ولكن هل تشك في أن هؤلاء قوم لا يكادون يستحقون العناية ؟ لقد كان نشة نفسه رجلاً عبقرياً ما في ذلك شك ، ولكن عزلته وحياته غير الطبيعية قد أفقدته كل شعور بالإنسان والتناسب ، ولعل مرضه الذي قضى على حياته كان من أسباب هذه الحال أيضاً . ويخيل إلى أن أتباعه الذين يرددون أصداء نظريته وإفراطه ، من غير أن يكون لهم شيء من عبقريته ، قوم بلهاء

(١) فريدرخ فلهلم نشة Friedrich Wilhelm Nietzsche (١٨44 — ١٩٠٠)

الكتاب والفيلسوف الألماني الشهير صاحب نظرية الإنسان الكامل Superman or Overman . ولد في ليزج ، ولا بلغ الخامسة والعشرين من عمره عين أستاذاً في علم اللغات في جامعة بال بسويسرا ؛ وفي عام ١٨٧٦ اضطربه مرض عينه ونحى إلى الانقطاع عن العمل بإجازه مرضية ، ثم أحيل إلى المعاش بسبب هذا المرض في عام ١٨٧٩ . وقضى أكثر المدة الباقية من حياته في مصحات يقاسى آلام المرض حتى قال إنه كان يقضى في السنة مائتي يوم يعاني فيها أشد الآلام . ولكنه كان في أثنائها يديج المقالات التي أذاعت في العالم شهرته ، وفي عام ١٨٨٨ قرر الأطباء أنه مصاب بجنون لا يرجى منه شفاء ، ومات في ٢٥ أغسطس من عام ١٩٠٠ . ويجب علينا عندما نقرأ كتاباته أن نذكر هذه الظروف كلها لنستطيع أن نفهم ثورته على العرف في العلوم وفي الأخلاق وثورته على المجتمع وعلى الدين المسيحي والأخلاق المسيحية وعلى سيادة الدولة وعلى الديمقراطية وعلى الثقافة التقليدية . فكتاباته ثورة فلسفية صادرة عن رجل ذي عواطف ثائرة ومزاج عصبي حاد ، وليست فلسفته نظاماً منسجماً متناسقاً ، ولا هي موضوعة بطريقة منظمة ، بل هي مجموع وجهات نظر شخصية وآراء متفرقة .

يعوزهم الإخلاص . وإني لأعترف صراحة أنني لا أطيق قوما كهؤلاء ، يعيشون عيشة أبناء الطبقة الوسطى المعتادة ، ويتصفون هم أنفسهم بجميع خصائص هذه الطبقة التي يدعون أنهم يحتقرونها ، وينتظرون أن يتصف غيرهم بجميع هذه الخصائص نفسها ، ولكنهم مع ذلك يتصورون أنهم منسجمون مع مجتمع لا يعرف من الشرائع إلا شريعة القوة ، وأن الوجود فيه — ولا أقول السيطرة عليه — يتطلب صفات ، لك أن تسميها فضائل أورذائل إذا شئت ، هم آخر من يستطيعون الاتصاف بها . إن الرجل الذي يحق له أن يفكر التفكير الذي يدعيه هؤلاء لأنفسهم سيصبح من غير شك في مجتمعا هذا من كبار المجرمين أو الثوريين أو الفوضويين ، ولا يحق له وهو جالس أمام طعامه وشرابه ، أن يكتب من العبارات ما يخيف صغار الأطفال .

مارتن : لست أعرف ما كان يقوله هؤلاء السادة دفاعا عن أنفسهم لو أنهم كانوا الآن معنا ، ويخيل إلى أنك لا تريد أن تنصرهم ، وقد كان لي بعض الأمل في هذا ، أما أنا فليس في مقدوري أن أدافع عنهم ؛ ولكننا إذا صرفنا النظر عن هؤلاء الفلاسفة الذين يعتقدون مذهب القوة من غير أن يعملوا به ، وجدنا في المجتمع ماضيه وحاضره رجالا يمارسون تعاليم هذا المذهب من غير أن يجهروا باعتناقه . إن الرجل القوي الذي يقول به نشة ليس مثلاً أعلى خيالياً ، بل هو حقيقة واقعة ، وقد كان في طاعة الإغريق ، وفي أشرف العصور الوسطى ، وفي أمراء النهضة رجال من هذا النمط ، لا يقولون عدداً عن كان بينهم من الأنماط المغايرة لهم . وإذا كان لنا أن نصدق ما يصل إلينا من الأنباء ، فإن بين المالين في وقتنا هذا رجالا من هذا الطراز ، ويخيل إلى أنى واجد من بين هؤلاء الرجال الحداثيين من

يمثلون بريندر Periander^(١) ، أو فرن - ده - بف Front-de-Boeuf^(٢) ،
أو شيزار بورجيا Caesar Borgia^(٣) أصدق تمثيل . ذلك أن الذي يعمل له
هؤلاء هو القوة لا الثروة ولا الراحة ، وهم في سعيهم لبلوغ غرضهم هذا يطأون
بأقدامهم جميع الشرائع والمبادئ الخلقية^(٤) . إنهم يسرقون كما كان يسرق
طغاة العهد القديم أو أشرف العصور الوسطى ، وكل ما هنالك من فارق
بين هؤلاء وأولئك أنهم لا يسرقون الضياع والتصور والسلع المادية كما كان
يسرق الطغاة والأشراف السافو الذكور ، بل يسرقون رموز هذه الأشياء
وهي النقود والأوراق المالية ؛ وهم يعذبون الناس كما كان يعذبهم الطاغية
والشريف ، وكل ما هنالك من فارق أن الطاغية أو الشريف كان يمسك
بيده السكين وآلة التعذيب ، ويشاهد بعينه دماء الضحايا تجري على الأرض
ويسمع صراخهم بأذنيه ، أما المالئون في هذه الأيام فقد لا يرون وقد
لا يعرفون عواقب أعمالهم إلا حين يقرأون في الصحف أو يسمعون وهم عائدون
من الكنيسة أن زيدا يحاكم أمام محكمة الإفلاس ، وأن عمراً قد أودع

(١) بريندر Periander (٦٢٥ — ٥٨٥ ق . م) طاغية مدينة كرنث اليونانية ،
وإن كان الإغريق القدماء يعدونه من حكمائهم السبعة ، أصدر كثيرا من القوانين الشديدة
الظالمة ، وعمل على إفقار أهل المدينة بفرض الغرامات الباهظة عليهم ومصادرة أملاكهم ،
وأراق كثيرا من الدماء واقتطف أفظع الجرائم والآثام .

(٢) Sir Reginald Front-de-Boeuf شخصية في قصة إيشهو Ivanhoe للسير
ولتر اسكت . وهو من أعيان الريف الفساة يتخذ قصره سجناً يلقي فيه أعداءه ويسومهم
سوء العذاب ، ثم ينتهي أمره بأن يحترق في نار تشب في هذا القصر نفسه .

(٣) شيزار بورجيا : من بابوات رومة في عصر النهضة الأوربية ينتمي إلى أسرة
أسبانية المنشأ ارتقى مؤسسها عرش البابوية في عام ١٥٥٥ ، وبضرب المثل بهذه الأسرة عامة
وبشيزار هذا خاصة في الفساد الخلقي الطليق الذي لا يتورع أصحابه عن الاندفاع فيه إلى أقصى
حد . أقرأ عن هذه الأسرة كتاب « النهضة الأوربية » بين صفحتي ٤٢ ، ٤٧ .

(٤) لعل المؤلف وهو يكتب هذا كان يفكر في كتاب الأمير لسكيثي . أقرأ عن
هذا الكتاب في الفصل الخامس بالحالة السياسية من كتاب « النهضة الأوربية » السالف الذكر .

مستشفى الأمراض العقلية ، وأن بكرا قد انتحر وترك زوجته وأطفاله في فقر مدقع . ومن واجبي أن أقول إن هذه النتائج ، وفق هذه النظرية التي نحن بصددھا ، لا تسوءهم بل تسرھم ، لأنها تقوى من إحساسهم بالحياة . ولما كانت القوة هي مثلهم الأعلى فإنهم أعظم ما يكونون شعورا بها إذا كانت المقاومة التي تغلبوا عليها جد عنيفة ، وهل هناك مقاومة أشد عنفا من التي يثيرها خوف النهب والخراب ؟ وإذن فكما زادت آلام الضحية زاد سرور الرجل « الكامل » ، لأنه يصبح في ذلك الوقت أكثر شعورا بقوته ، وهذا الإحساس بالقوة ينطوى على أسباب غبطته ورضائه في الحياة .

استيورت : قد يكون قولك هذا وصفا لرجل نشئة « الكامل » ولكنه صورة هزلية ممسوخة سخيصة لا تنطبق حتى على رجل المال الأمريكي .
مارتن : إنى أعترف إذا أحببت بأن هذه صورة هزلية لهما كليهما ، ولكن مجرد تفكيرنا في أن هذه الصورة لا يمكن أن تكون إلا صورة هزلية هو في حد ذاته تخطئة لمبدأ القوة وحكم عليه . والحق أنى أشعر — وأظن أن من حق كل إنسان غيرى أن يشعر — أن اتخاذ القوة مثلا أعلى — القوة وحدها مجردة عن كل ما عداها من المثل — مبدأ لا يمكن أن يدين به إنسان عاقل ، وأن الذين اعتنقوا هذا المبدأ — وقد يكون في الناس من اعتنقوه — يجب أن يوضعوا بين شواذ الخلق . لكننى مع هذا أعتقد أن الاستمتاع بالقوة كان من أكبر البواعث التي تحرك جميع الطبقات الحاكمة . وليست القوة التي أعنيها هي القوة المطلقة التي يسعى إليها صاحبها مهما لاقى في سبيلها من مشقة ، بل الذى أعنيه هو القوة التي يخفف من حدتها اعتبارات الإنسانية والعدالة أو حسن الرأى على الأقل . وأعتقد كذلك أن مرمى سياسة هذه الطبقات جميعها هو الاحتفاظ بالقوة لا العمل

(١) الأجرية

لصالح العام . نرى ذلك واضحاً كل الوضوح في حال الطاغية النموذجي ؛
ولكننا لا نعدم أن نجد أمثلة كثيرة من غير الطغاة . إذا لم نعد هذا
الطاغية طرازاً عادياً من الأحكام كما قلت ذلك من قبل مثال ذلك أن أهم
غرض ترمى إليه جميع النظم في كل مجتمع يملك الرقيق — ولقد كانت
الكثرة الغالبة من المجتمعات في جميع عهود التاريخ ممن يمتلكون الرقيق —
هو الاحتفاظ بسيادة ملاكه ؛ فالقاعدة الأولى لديها هي أن تكون لها قوة ،
تلك هي البديهة الأساسية ، أما كيف تستخدم هذه القوة وأى قدر من
الإنصاف أو حب الخير تمزجها بها ، فهما عندها في المئزلة الثانية . ونرى
هذه القاعدة بعينها في كل بلد اتصل فيه الرجل الأبيض بالشعوب الملونة ؛
فأهم ما يعنى به هنالك أن تكون القوة للرجل الأبيض ، وأن تكون القوة
له وحده . ولنضرب لذلك أمثلة أقرب من هذه إلى الحالات المألوفة . لسنا
نخطئ إذا قلنا إن الغرض الأول الذي كانت تعمل له الأرستقراطية
الإنجليزية في أيام عزها هو أن تحتفظ بقوتها وأن تديمها وتملأها ، وفي
وسعنا أن نقول دون أن نتهم بالشطط ، إن هذا الباعث عينه هو الذي يحرك
الطبقة الغنية التي تحكم مجتمعنا الحاضر . والحق أن التاريخ كما يتبين لي من
قراءته سجل متصل أو شبه متصل لحكم الطبقات التي تعمل لمصالحها
الخاصة ، أو لحكم الأفراد الذين يعملون لمصالحهم الخاصة ، وإن كنت
لا أدعى أن حكمهم لا يعمل في كثير من الأحيان لخير المجتمع أيضاً ، فهو في
كثير من الأحيان يعمل لهذا الخير . وإذن فقد كانوا إلى هذا الحد يمثلون مبدأ
القوة الذي يصف به نقشة الرجل « الكامل » . ومن أجل هذا بدأت ببيان
رأيه لأنني ظننت أنك قد ترضى بأن تسمى أمثال هذه الحكومات أرستقراطية ،
وأننا قد نجد في هذا الرأي إيضاحاً لما نفهمه من المبدأ الأرستقراطي .

هرنجتن : إني حين أدافع عن مبدئي أرى من واجبي أن أدافع عنه في
أظهر صورة من صورته أي في صورته المثالية . لقد قلت من قبل إني
لا أعترف بأن الغاية الحقيقية الأرستقراطية هي تركيز القوة في يد الطبقة
الحاكمة ، وأرى أن كل ما ضربته من الأمثلة ليس إلا قلباً لهذا المبدأ كما
يقول أرسطاطاليس ، وأنا أسمى هذه الحكومات حكومات أجزكية
لا أرستقراطية ، وقد يكون أصح من هذه التسمية أن نطلق عليها اسم
حكومة الأسر لولا أن هذا اللفظ قد أصبح له معنى غير هذا .

مارتن : إن الاسم لا يعنيني ، وأهم منه في نظري تحديد معناه . إن الذي
وصفناه نوع من أنواع المجتمع مبدؤه الأول الاحتفاظ بسلطان الطبقة الحاكمة ،
ولنسم هذا النوع إذا شئت الأجزكية . والآن قل لي كيف تفرق بين هذا
النوع وبين مثلك الأعلى في نظم المجتمع وهو الذي تسميه المجتمع الأرستقراطي ؟
هرنجتن : ليس المبدأ الذي يقوم عليه النظام الأرستقراطي كما أفهمه أنا
هو جمع السلطة في يد الطبقة الحاكمة ، بل هو العمل لخير المجموع .

مارتن : إن هذا يفرق بينه وبين الأجزكية ، ولكنه لا يفرق بينه وبين
الديمقراطية ، لأن الديمقراطية تدعى هي أيضاً أنها تقوم على هذا الأساس .
هرنجتن : إن الأرستقراطية تمتاز عن الديمقراطية بأنها تعترف بوجود
التفوق والنقص

مارتن : أتقصد أنها تعترف بذلك في نظمها ؟

هرنجتن : نعم ، إن الأرستقراطية هي مجتمع الطبقات ، ففيها طبقة حاكمة
وطبقة محاربة (إذا اقتضت ذلك الضرورة) ، وطبقات أصحاب المهن وطبقات
العمال وما إلى ذلك .

مارتن : إنها في هذا كله شبيهة بمجتمعنا الحاضر .

(٢) الأرسطراطية

هرنجتن : نعم ، ولكن بينها وبينه فارقين عظيمين ؛ أولهما أن طبقاتنا ليست ثابتة محددة ، أى أن فى وسع بعض الناس أن ينتقلوا من طبقة إلى طبقة ، وهم ينتقلون بالفعل ، وثانيهما أن هذه الطبقات لا تطابق المواهب والكفايات ، لأنك ترى كثيرين ممن يعملون فى كل مهنة يصلحون لغيرها أكثر مما يصلحون لها .

مارتن : أنت تعنى إذن أن طبقات النظام الأرسطراطى طبقات ثابتة جامدة وأن الأفضل أن نسميها طوائف ؟

هرنجتن : نعم ، وأكرر هنا ما كنت أقوله من بضعة أيام ، وهو أن نمط الأرسطراطية العام قد وضعه وحدده أفلاطون تحديداً ليس بعده زيادة لمستزيد . أما التفاصيل فقد تختلف بطبيعة الحال باختلاف الزمان والمكان
مارتن : لقد كانت طبقات أفلاطون وراثية فهل ترضى أنت بذلك ؟
هرنجتن : ليس فى ذلك شك

مارتن : وهل توافق أيضاً على ما وضعه من القواعد لتنشئة المواطنين ؟
هرنجتن : لا بد من وجود قواعد مثلها أو شبيهة بها ، إذا كان لا بد من وجود أرسطراطية مثالية ؛ وذلك لأن من المتعين أن يكون فى مقدورنا أن نعرف بوجه عام ما لىكل طفل يولد من مواهب ، ولأى الطبقات ينتمى بطبيعته ، وأن نتحقق من أن كل طبقة لا يولد لها إلا العدد المطلوب من الأفراد

مارتن : حسن ؛ إن مثلك الأعلى إذن هو مثل أفلاطون ، وهو وجود نظام من الطوائف ، ولكنه نظام محكم يحدد لىكل رجل منذ ولادته عملاً خاصاً به ، يناسب مواهبه ويتفق مع مصالح المجتمع كله ، لأن مصالح المجتمع لا المصالح الخاصة للطبقة الحاكمة هى الغاية التى من أجلها يوجد المجتمع .

هرنجتن : هذا ما أقصده بالضبط ، وهذا هو المجتمع الذى يسميه أفلاطون (٢) الأرستقراطية المجتمع العادل ، وهو يعرف العدالة بأنها قيام كل طبقة بوظيفتها المخصصة لها بحيث لا تعتدى إحداها على وظيفة الأخرى .

مارتن : إنك إذن توافق بوجه عام على ما وصف به أفلاطون الأرستقراطية ، فهل توافق أيضاً على ما وصف به الديمقراطية ؟

هرنجتن : نعم ، إنى أعرف الديمقراطية بأنها حكم السوق ، وهى تتجاهل النقائص والميزات التى تقوم عليها الأرستقراطية ، فهى تنكر الكفايات أو تكبتها كبتاً ، ومقياسها الوحيد هو الكثرة العددية ؛ وتفترض أن هذه الكثرة تتكون من وحدات متماثلة يطلق عليها اسم أوساط الناس ، وهى لا تعترف بوجود طبقات أو فروق بين الناس ، أو خضوع بعضهم لبعض ، وهى فى صورتها النهائية التى يودى إليها منطقها ترجع كل شىء إلى الكثرة ، وليست قط مجتمعة بالمعنى الصحيح ولكنها الفوضى كما يعتقد الكثيرون فى هذه الأيام

مارتن : إنك قوى الإيمان بآراء أفلاطون ، ولكن لى سؤالاً لا بد أن أسأله : هل الديمقراطية كما تصفها الآن طراز من المجتمع تسعى إليه ، أو هل هى نظام قائم بالفعل ؟

هرنجتن : إنها طراز إذا أحببت ، ولكنها طراز يمثل كل الدول الديمقراطية مارتن : دعنى إذن أصل إلى جوهر هذا الطراز . هل جوهر الديمقراطية هو أنها تنكر كل الكفايات الخاصة ، فلا تتردد فى أن تعين أى شخص فى أى منصب كان ، وتفضل فى كل ما تصدره من قرارات فى الشؤون العامة أن تستشير أوساط الناس على أن تستشير الخبراء المختصين ؟

هرنجتن : هذا بعض ما أتهمها به ، ولكننى أرى فوق ذلك أن الديمقراطية

(٣) الأقلراطية

تنكر تفوق قيم الأشياء فضلاً عن إنكارها تفوق كفايات الناس ، فهي لا تعتقد أن شيئاً من الأشياء ، أو أن نوعاً من النشاط ، خير في ذاته من شيء آخر أو من نشاط آخر ، وهي على الأخص لا تقوّم الثقافة أو الفن أو العلم ، إلا أن يكون العلم صالحاً للأغراض المادية فتقومه بقدر صلاحيته لها
مارتن : حسن ، إن الديمقراطية في رأيك ليست هي حكم السوق فحسب بل هي حكم السوق الذين لا موازين عندهم
هرنجتن : نعم .

مارتن : لست أنكر أنك واجد في بعض الديمقراطيات القائمة بالفعل ، والتي تعرف عنها شيئاً — وهو شيء تافه ضئيل — بعض هذا الميل الذي وصفته ، ولكن الصواب في رأيي ألا يسمى المجتمع الذي تسوده مثل هذه الميل مجتمعاً ديمقراطياً ، فأنا أريد أن أحتفظ بلفظ الديمقراطية لمثل الأعلى ، كما احتفظت أنت بلفظ الأرستقراطية لمثلث الأرستقراطي الأعلى ، ولهذا لا أوافق على أن تعرف الديمقراطية بأنها حكم السوق الذين لا موازين عندهم ، بل أرى أن مثل هذا المجتمع ليس في حقيقة الأمر إلا قلباً أو إفساداً لمثل أعلى ، شأنه في ذلك كشأن الأنجركية ، وأرى إذا وافقت أن أسميه مجتمعاً أقلقراطياً^(١) .

هرنجتن : سمع ماشئت ، ولكن قل لي ما هو مثلك الأعلى لما تسميه ديمقراطية ؟

مارتن : سأصل إلى هذا بعد قليل . أما الآن فاسمح لي أولاً أن أعرض عليك أن الأنجركية والأقلقراطية إفساد لمثلين أعاليين ، وأن كليهما تنتج الأخرى . وذلك أنه إذا كانت الموازين التي توضع هي موازين الطبقات

(١) يتكون هذا اللفظ الإغريقي من جزأين Ochlos ومعناه الرعايا ، و Kratia حكم فالأقلقراطية إذن حكم الرعايا . والمجتمع الأقلقراطي هو المجتمع الذي يسوده الرعايا .

(٣) الألقراطية أو أنها قد لوثتها واستغلتها أهواء الطبقات ، انتقضت كتلة الشعب بطبيعة الحال على جميع الموازين . وإذا عدت الثقافة والفن والعلم امتيازات تختص بها بعض الطبقات ، فإن مقت الناس للطبقات نفسها يلحق بهذه الامتيازات أيضاً ، وفي هذه الحال ترى الذين يحال بينهم وبين التمتع بأية ميزة من هذه الميزات ينظرون إليها بنفس الحسد والغل اللذين ينظران بهما إلى من يتمتعون بها . وكذلك إذا عدت الكفاية الإدارية والسياسية حقاً موروثاً للطبقة الحاكمة التي تحكم أكثر ما تحكم لمصلحتها الخاصة ، فإن هذه الكفاية نفسها تصبح كرهية مردولة في نظر من تضحي بهم لمصلحتها بدل أن تعمل لخيرهم . ولقد كانت هذه الألقراطية في كل الظروف التي وجدت فيها انتقاضاً على الأجرية ، ولهذا يجب ألا نعدّها مقياساً نحكم به على ما يمكن أن تؤدي إليه الديمقراطية .

هرنجتن : ولكني أسألك مرة أخرى ماذا تفهم من لفظ الديمقراطية ؟
 مارتن : سأحدث عن هذا بعد هنيهة ، ومن السهل على أن أصف المثل الأعلى للديمقراطية بعد أن عرفنا صورتها الفاسدة . إنني أرى أن الديمقراطية تختلف عن الألقراطية ، في أن الأولى لها موازين وموازن صحيحة ، وقد ترجع الأمر إلى الشعب في كل الأمور الخطيرة ، ولكن هذا الشعب الذي ترجع إليه يكون شعباً مؤلفاً من أفراد مستنيرين لا من وحدات جاهلة متحادة ضعيفة العقل . وفوق ذلك فإنها ، وإن لم ترم إلى إيجاد كفايات خاصة ، لا تتجاهل هذه الكفايات إذا وجدت ، بل تعمل على الدوام لوضع أقدر الناس في خير مكان يفاسبه ، وتمنحه من الإجلال والثقة بقدر ماله من الكفاية .

هرنجتن : إنك تصف شيئاً قريباً جداً مما أسميه أرسقراطية .

مارتن : لسكن الفارق بين الاثنين فارق خطير ، فالأرستقراطية كما تراها أنت تضع الناس بعضهم فوق بعض ، والمجتمع الأرستقراطى مقسم إلى طبقات محددة مرتبة ترتيباً نزولياً ، يبدأ من أعلى الطبقات وهى الطبقة الحاكمة وينتهى بأسفلها . ويتضمن هذا الترتيب وجود طبقات منخفضة وأخرى متفوقة ، ومن أجل ذلك تراه يعهد بأرقى المناصب على الدوام إلى طائفة خاصة ، كما يعهد بالمناصب الصغرى وما هو أصغر منها إلى طوائف أخرى . هذا هو الذى نعتقد أنه ليس كذلك ؟

هرنجتن : بلى ، هو هذا .

مارتن : ولسكن الديمقراطية كما أتصورها أنا ليس فيها شيء من هذا . إن فيها مناصب مختلفة ، ولسكن ليس فيها طبقات مختلفة ، وهى لا تعترف بوجود طوائف ، وأهم من هذا كله أنها لا تخصص طبقة بشؤون الحكم ، وإن وجد فيها أعمال إداريون مدربون . وفيها ينال كل المواطنين درجة عالية متساوية من التعليم الرافق قدر المستطاع ، يؤهلهم كلهم لأن يشغلوا مناصب عالية متساوية فى قدرها ، وإن اختلفت فى صورها . ومهما يكن من أمرهم فإن اختلاف كفاياتهم لا ينطوى على اختلاف فى منزلتهم الاجتماعية . والمبدأ الذى يعمل له المجتمع الديمقراطى هو تنسيق صفوف جماعة متساوية فى المنزلة ، لا إخضاع جماعات غير متساوية بعضها إلى بعض . وقصارى القول إن الديمقراطية تعمل لتقرير المساواة فى المنزلة وإن اختلفت المناصب ، ولتقرير إشراف الشعب بلا خلط فى الموازين . وأنت ترى من هذا أنها تختلف عن الأرستقراطية والألقراطية ، ولا يمكن بطبيعة الحال أن تلتبس بالأجركية . أيكفيك هذا تلخيصاً لمبادئها ؟

هرنجتن : نعم ، ولكنه تلخيص ينقصه كثير من التفاصيل .

استيورت : هل تسمحون لى أن أقول إن هذا هو شأن الأنماط الأخرى (٤) الديمقراطية التى تناولناها بالبحث ؟

مارتن : لا شك فى هذا ، ولكن الإنسان يتعين عليه أن يبدأ من نقطة ما ، وقد أوتيت أنا شيئاً من تحذلق الأسانذة ، فأحب أن أسير فى بحثى سيراً منظماً مرتباً .

استيورت : فلتستمر ، ولست أريد أن أقاطعك .

مارتن : لن أحاول أن أستغل صبرك استغلالاً سيئاً ، ولربما كانت (٥) المجتمع الحاضر الخطوة الثانية فى بحثى أكثر استرعاء لالتفاتك . إنى أريد الآن أن أصف الصلة القائمة بين الأنماط الأربعة التى ميزنا بعضها عن بعض ، وبين المجتمع الحاضر الذى نعيش فيه ، والذى لا يختلف أحد فى أنه يستأثر وحده باهتمامنا .

استيورت : هذا إذن هو الموضوع الذى أبدأ عنده فى التدخل .

مارتن : أرجو أن تتدخل كلما أحسست بميل إلى التدخل .

استيورت : أشكرك وأرجو منك أن تواصل القول .

مارتن : أبدأ بتوجيه السؤال الآتى إلى هرنجتين وهو : بأى هذه

الأنماط الأربعة يشبه مجتمعا الحاضر ؟

هرنجتن : إنى أرى أن هذا المجتمع فى دور انتقال من الأجركية إلى

الأقلقراطية . لقد كان فى القرن الثامن عشر مجتمعا أجرينيا محضاً ، فكان

الأعيان ملاك الأرض يحكمون ، وكانوا يحكمون لمنفعتهم الخاصة .

استيورت : أكانوا يفعلون ذلك حقاً ؟ أظن أنهم هم الذين وضعوا

أساس الإمبراطورية .

هرنجتن : إنى أقر بأنهم كانوا معتدين نهائين ككل الأجركيات ،

ولكنهم كانوا رغم هذا مجتمعا أجرينيا حسب تعريفنا السابق ، لأن المبدأ

(٥) المجتمع الحاضر الأساسى الذى كانوا يسرون عليه فى حكمهم هو أن الغاية من هذا الحكم الاحتفاظ بسلطانهم .

استميرت : هذا صحيح ، ولقد كانوا خليقين بسلطانهم الذى احتفظوا به . لقد كانوا مثلاً أعلى فى شرف النفس ، وكانت لهم شجاعة وقوة ، وقدرة على الابتكار ، وكان لهم ذوق سليم وخلق كريم ، وكانوا يجلبون الفلسفة والفن والعلم . ولقد كنت أظن أنك تقدر هذه الصفات الأخيرة حق قدرها . هرنجتين : أظن أن بعضهم كان متصفاً بهذه الصفات حقاً ، وأنت إذا عنيت بالواقع للموس لم تجد مجتمعاً تنطبق أحواله تمام الانطباق على نمط واحد من الأنماط السالفة الذكر ، ولست أنكر أن معظم الأجركيات كانت تتصف ببعض صفات الأرستقراطيات . على أنه مهما تكن حال المجتمع فى القرن الثامن عشر ، فإن الأمور كلها قد تبدلت الآن ، ففى عام ١٨٣٢^(١) ، كما أعتقد ، بدأ الأجركيون ، أو الأرستقراطيون إذا شئت أن تطلق عليهم هذا الاسم ، يفقدون ما كان عليهم من التبعية وما كان لهم من سلطان ، وأخذوا من ذلك الوقت يفقدون أيضاً صفاتهم الخلقية ، فلم يعودوا يأخذون أنفسهم بمستوى خاص من الشرف وحب الخير العام والذوق السليم ، وأصبحوا لا يفرضون احترامهم إلا على الخمارين وأدنياء الخدم والساقطات من النساء .

(١) عام ١٨٣٢ : يعد الإنجليز هذا العام من الأعوام الهامة فى تاريخهم الدستورى والاجتماعى . ففيه أقر البرلمان البريطانى قانون الإصلاح الدستورى Reform Act الذى بطل نظام الانتخاب ، وعدل تكوين مجلس النواب ، وأعاد تنظيم الدوائر الانتخابية ، وخفف أو ألغى كثيراً من القيود المفروضة على حق الانتخاب ، وحتم إنشاء سجلات للناخبين . وأتقص القانون كثيراً من حقوق الأغنياء ، وزاد فى حقوق الطبقات الوسطى . اقرأ تفاصيل هذا القانون فى كتاب « البرلمان » لسير كورتناى إلبرت طبعة Home University Library

استيورت : حسبك هذا ! إن الإنصاف ليقضيك أن تعترف بأن عدداً (٥) المجتمع الحاضر من أعظم رجال الحكم عندنا في هذه الأيام لا يزال يؤخذ من الطبقة الأرستقراطية .

هرنجين : أسلم بهذا ، ولكنهم ليسوا إلا بقايا هذه الطبقة ، ولا يمثلون الاتجاه الحقيقي الذي يتجه إليه مجتمعنا الحاضر . وما من شك في أن هذا المجتمع يتجه نحو الألقراطية ، وأقول الألقراطية لأنى لا أستطيع أن أسميه مجتمعاً ديمقراطياً بعد ذلك التعريف الذى عرف به مارتن الديمقراطية . إن المبدأ الذى قررنا أن نتبعه في مجتمعنا الحاضر ، والذي نريد أن نقرر اتباعه ، هو مبدأ الكثرة العددية ؛ فهذه الكثرة هى التى تحدد سياسة حكومتنا ونوع تعليمنا واتجاه أخلاقنا الاجتماعية والقومية . هل نتعاطى الحزب أو لا نتعاطاها ؟ سل في ذلك الأغلبية . وهل نكون إمبراطورية أو جزيرة منعزلة ؟ سل الأغلبية . وهل ندرس اللغتين اللاتينية واليونانية أو ندرس الاختزال وإمساك الدفاتر ؟ سل الأغلبية . وهل تكون لغتنا أداة مختارة للتفكير ، أو تكون لهجة عامية حقيرة ؟ سل الأغلبية . وما أحسن مائة كتاب لدينا ؟ وما خير مسرحيات الفصل ؟ ومن أقدر جندى وأعظم سياسى ؟ كل هذا مرجعه إلى الأغلبية . إن الأغلبية العددية هى التى تحكمنا ، وليست هذه الأغلبية مكونة من أفراد مارتن الديمقراطيين بل هى مكونة من وحدات ألقراطية عارضة لا خلاق لها ولا تدريب .

استيورت : يؤسفنى أن أثير غضبك ، ولكن يلوح أن هذا أيضاً مبالغ فيه ، وأنه لا يزال لدينا كثير من الناس ذوى الأخلاق السكريمة فى اسكتلندة على الأقل .

مارتن : وقد يكون لدينا منهم قلة فى إنجلترا نفسها .

استقيورت : أما إنجلترا فإنني أتركها لرحمتك .

مارتن : أخشى ألا يكون في وسعي أن أدفع عنها تهمة الألقراطية ، ولكن الذي يسترعى نظري فيها أكثر من هذا هو طابعها الأجركي . يقول هرنجتن إن الأجركية آخذة في الزوال ، ولكنني أقول إنها تبدل صورتها من الأجركية المولد إلى الأجركية المال ، وإن ما يسميه ألقراطية ليس من بعض نواحيه إلا ستاراً يحدث من ورائه هذا التبدل . وليست الكثرة العددية هي التي تحكمنا ، بل الذي يحكمنا هو ما يسيطر على الكثرة العددية ؛ وإذا شئت أن تعرف ماهية ذلك الشيء الذي يسيطر عليها قلت لك إنه المال في كل الأحوال . إن المجتمع الحاضر ، إذا أنا تأملت من أعلاه إلى أسفله ، لا يعدو أن يكون جماعات أجركية بعضها تحت بعض ، ويفرض بعضها سلطانه على البعض ، ولكل جماعة منها امتيازاتها الخاصة التي تكافح للاحتفاظ بها وتحيا بها في داخل نطاقها . وإني لأتصور المجتمع كأنه هرم مدرج يأخذ في الاتساع من أعلاه إلى أسفله ، ولكنه يتسع في عدة درجات . ومع أني لا أقول إن كل واحدة منها يفصلها عما فوقها سد منيع لا يمكن تخطيه ، فإني أؤكد أن بينهما مسافة بعيدة يحتاج من يريد تسلقها إلى كثير من الرياضة الشاقة والمران الطويل . ويقف على كل درجة من درجاته خليط من الناس يضطرون مستميتين ، ويطأ بعضهم بعضاً بأقدامهم ، وأكبر ما يهيم كلا منهم أن يزيد في مساحة موطن قدميه ، ليفسح مكاناً له ولأبنائه ؛ فإذا عجز عن ذلك تعرض لخطر السقوط إلى الدرجة التي تحته ، أو هوى إلى القاع متخطياً جميع الدرجات دفعة واحدة . ولهذا يتحتم عليهم جميعاً في كل مرحلة من المراحل أن يجعلوا الانتقال من درجة إلى درجة أعلى منها أكثر مشقة بقدر المستطاع ، وسبيلهم إلى ذلك أن يحتفظوا بجميع الامتيازات

التي تمنع غيرهم عن أرضهم ، ويوسعوا نطاقها ، سواء في ذلك أكانوا من أصحاب المهن كالحامين ، أم كانوا من رجال المال أو الجامعيين ، أو مهرة الصناع أو غيرهم أيا كان عملهم . وأكبر همهم كلهم أن يحتفظوا بمستوى حياة طبقتهم الخاصة ، أو أن يرفعوا هذا المستوى ، وأن يضيقوا الباب الذي يحاول غيرهم أن يلجوه ليصلوا منه إلى طبقتهم ، وذلك بتحديد عدد من يستطيعون أن ينالوا حاجتهم من التدريب المطلوب ؛ وأن يقللوا من وسائل منافسة غيرهم لهم بكافة الطرق المستطاعة ، وما من شك في أن هذا المسلك وهذه العقلية مسلك الأجركي وعقلية الأجركية بقضيهما وقضيتهما .

استيورت : ما أشد عنفكم أيها الفلاسفة ! إنني ليصعب على أن أجد في هذا الوصف صورة للمجتمع المنظم الظريف الذي نعيش كلنا فيه .

مارتن : إن أصعب ما يستطيع المرء أن يدركه هو الهواء الذي يتنفسه ، ولكنني أظن أنه إذا هبط زائر من طبقات الجو العليا إلى هذه الأوكار والكهوف التي نأوى إليها ، ونقضى حياتنا فيها ، فإنه يرانا ويحكم علينا حكماً لا يقل في قسوته عن حكمي أنا إن لم يكن أشد منه قسوة . ومهما يكن ذلك الحكم فإن تلك العناصر الأجركية التي حاولت أن أكشف عنها لا شك في وجودها بيننا مهما كانت نسبتها إلى المجموع كله . وبقيني أن ذلك مما لا يستطيع أحد أن يجادل فيه .

هرنجتن : أعترف بوجود الأجركية ؟

مارتن : وأنا أعترف بوجود الأقلراطية ، ولكن هل ترى في مجتمعنا عناصر أرستقراطية أيضاً ؟

هرنجتن : لقد سلمت لستيورت بوجود بعض بقايا من عهد قديم ، ولكنها بقايا مسرعة إلى الزوال ، ولا يحسب لها في الحقيقة حساب .

(٥) المجتمع الحاضر مارتن : أما أنا فأني أتبين في هذا المجتمع بعض عناصر قد تكون بداية للديمقراطية ، منها التعاليم الإجبارى الجائى وامتحانات السابقة وغيرها من الوسائل والأنظمة التى ترمى إلى وجود المساواة فى الفرص والكفايات ؛ ولكن هذه أيضاً لا تزال فى بدايتها ، وإني لأميل بوجه عام أن أصف مجتمعنا الحاضر بأنه مزيج من نظامين فاسدين هما الأجرىمية والأفقرراطية . هرنجتن : وهذا رأيي أيضاً .

مارتن : وأزيد على ذلك أن العنصرين اللذين يتكون منهما هذا المزيج يولد كلاهما الآخر ويُثَبِّتُهُ وَيَقْوِيهِ ، ذلك أن كل قسم ممتاز من المجتمع أفلقراطى من حيث علاقته بما هو فوقه من الأقسام ، وإن كان الأجرىما من حيث علاقته بالأقسام التى تليه من أسفل ؛ فهو يحتقر من هم دونه ويرهبهم ، ويعمل على أن يظلوا أقل منه درجة ؛ وهو يحسد من هم أعلى منه ويحقد عليهم أشد الحقد ، ويرى أن الامتيازات التى تمنعه أن يعلو عن مكانته امتيازات ظالمة لا يستحقها أصحابها ، أما الامتيازات التى تمنعه أن ينحدر إلى أسفل فهى وحدها التى يراها امتيازات مشروعة قائمة على الجدارة . ومن ثم نرى أن كل طبقة تعمل للاحتفاظ بالمستوى الذى هى فيه ، ولكنها تنكر مستوى الطبقات التى تعلوها وتنزعها فيه . فالغيرة التى تمزق قلب الأفقرراطية توجد إلى جانب الأنانية الضيقة التى تغل فى صدور الأجرىمية ؛ وكأن كليهما أفهى هائلة تنهش الأخرى فى كل مرحلة من مراحل الحياة ، وفى طبقات المجتمع كلها من أعلاها إلى أسفلها . استيورت : أظن أن فى وسعى أن أحتج على ذلك القول احتجاجاً ليناً . مارتن : أرجوك المَعذرة لقد نسيت . إنك بطبيعة الحال لاتوافقنى على هذا القول فهل لك أن تدلنى إذن على موضع خطاى ؟

استورت : لست أقول إنك مخطئ ، إذ ليس في وسعي أن أرى كيف يكون الإنسان مخطئاً أو مصيباً في مثل هذه الأمور . وكل ما أقوله إنك تنظر إلى الأمر من ناحية وأنا أنظر إليه من ناحية أخرى ؛ إنك تعده قلباً لمثل أعلى وتقول « ما أسوأه ! » وأنا أعده نتيجة للواقع وأقول « ما أخلقه أن يكون أسوأ من هذا بكثير ! » ولست أجادل فيما ذكرته من الحقائق ، ولكنني أجادل في أنك تعلق عليها من الأهمية أكثر مما تستحق .

مارتن : وهذا الجدل أيضاً يرجع بنا إلى النقطة التي بدأنا منها . إنني إذا ما قسوت في حكمي على المجتمع فمناً هذه القسوة هو اعتقادي أن بعض ما فيه من عيوب راجع إلى ظروف في وسعنا أن نبذلها ، أما أنت فتري عكس هذا ، ولذلك أراك أكثر مني ميلاً إلى اللين أو المسالمة ، فمن العبث وضيع الوقت إذن أن تحدّد الفروق بيننا في هذه المرحلة ، وإذا قدر لي أن أحولك عن رأيك فلن يكون ذلك إلا إذا استطعت أن أبين لك أننا إذ نحفظ ببعض النظم التي نستطيع تغييرها ، نخلد بعض الشرور التي في وسعنا أن نعالجها ونتخلص منها . فهل توافق على هذا ؟ وهل أواصل حديثي على هذا الأساس ؟

استيوت : واصله من غير شك .

مارتن : أسألك الآن إذن ما هي النظم الهامة حقاً ؟
استيوت : أظن أن أهم هذه النظم كلها هو الحكومة .

مارتن : يلوح أن الفلاسفة من رجال السياسة يظنون ذلك ، ولربما كانوا في ظنهم هذا غير بعيدين كل البعد عن الصواب ، طالما كان زمام الحكم في يد الملك أو في أيدي طائفة خاصة من الطوائف ، وطالما كان كل إصلاح لهذه النظم لا يتم إلا بشورة سياسية . وحتى في هذه الأحوال لم يكن

٣٤ نظام الزواج الطابع الذى يطبع به المجتمع هو شكل حكومته ، بل كان هذا الطابع هو النظم التى تسندها الحكومة ؛ فلما أصبح نظام الحكم فى معظم الدول المتحضرة يمثل رأى العام فى البلاد تمثيلاً متفاوت الدرجات ، أخذ يتضح شيئاً فشيئاً أن الأنظمة الاجتماعية لا السياسية هى التى تعين طابع المجتمع الحقيقى استيورت : وما ذا تعنى بالأنظمة الاجتماعية !

مارتن : إننى أعنى بهذه العبارة النظامين العظيمين الأساسيين اللذين يحركان المجتمع بأكمله ويسيطران عليه ، وهما نظاما الزواج والملكية . استيورت : أتقول الزواج ؟^(١)

مارتن : نعم ، فهل نبدأ بحثنا به ؟ استيورت : وهل ثمة شئ كثير يمكن أن يقال عنه ؟ مارتن : كثير وكثير جداً ، لكن من الصعب أن نذكره استيورت : إن فى وسعى أن أفهم أن الملكية من وجهة نظرك مهمة ، ولكن لم تذكر الزواج ؟ لقد كنت أظن أن الزواج فى أى مجتمع من المجتمعات لا يمكن أن يختلف كثيراً عما هو عليه الآن مهما اختلف المجتمع فى غيره من السنين .

مارتن : ربما كان ذلك ولكنه ليس من الأمور الواضحة الجلية ، وأنا أحب أن أبحث المسألة بحثاً صريحاً كما لو كانت من المسائل التى يصح أن تطرح على بساط البحث من غير تحفظ .

استيورت : يبدو لى أن ذلك أمر غريب ، ولكننى لا أعارض فيه . مارتن : إذن ما هو الزواج من الناحية الاجتماعية ، أليس هو الأداة التى تسيطر على إنتاج الأطفال وتربيتهم ؟

(١) تكلم المؤلف على نظام الزواج فى كتابه الآخر « معرض الآراء الحديثة » . فليرجع القارىء إلى هذا البحث فى الترجمة العربية لهذا الكتاب فى صفحتى ٥٣ ، ٥٤ .

٣٥ نظام الزواج

استيورت: بلى ، إنى أظنه كذلك .

مارتن : إذن فأهميته واضحة لأن عدد السكان ونوعهم موقوفان عليه .
استيورت: نعم ، ولكن هذا من المسائل التى يجب أن يوكل أمرها إلى الآباء .

مارتن : ليس من حقنا أن نفرض يدنا من المشكلة بهذه السرعة وبهذه السهولة . إن فى وسعنا أن نبحث فيما بعد هل يترك عدد الأبناء ونوعهم فى آخر الأمر للآباء أو لا يتركان لهم ، ولكن علينا أولاً أن نبحث فيما يجب أن يكون الغرض من تنشئة الأطفال ، سواء ترك أمرهم للآباء أو للسلطات العامة .
استيورت : حسن قل ما شئت .

مارتن : ولنبدأ أولاً بعدد الأطفال . ألا يبدو لك غريباً أن المفابر والصحف والسياسة تفترض كلها دائماً أن كل تحديد لمعدل الزيادة فى السكان شر مستطير ، وأن وقوف نسبة المواليد عند حد معين أو نقصها عن هذا الحد يعد تدهوراً فى كيان الأمة ، كأن هذا من البدائى التى لا تحتاج إلى دليل ؟

استيورت: أليس هذا صحيحاً ؟

مارتن : مبلغ علمى أنه ليس واضحاً كل الوضوح ، وأنه لا يؤدى حتماً إلى هذا التدهور ، وأظن أن الأمر المرغوب فيه من الناحية الاقتصادية هو وجود عدد معين من السكان ينتج أعظم قدر من الإنتاج إذا تيسرت له الظروف الفنية وغير الفنية الموجودة فى وقتنا الحاضر . وإذا ما نقص عدد السكان عن هذا العدد أو زاد عليه نقص مقدار الثروة التى يملكها كل فرد من أفرادها ، وإذا اختلف التناسب اختلافاً كبيراً فقد يوصل الأمر إلى حد الهلاك من الجوع .

(١) في تحديد عدد السكان

استيورت : لقد كنت أظن أنه لم يبق أحد يؤمن بهذا القول الخفيف الذي كان مالتس Malthus^(١) يروع به المجتمع في يوم من الأيام .

مارتن : لست أراه غولا موهوما ، بل أعتقد أنه وحش صار حقيقي قد التهم الآلاف والآلاف الآلاف من أبنائه فيما مضى ؛ وإذا كنا نحن الغربيين قد استطعنا أن نتقى أذاه في خلال القرن الأخير أو نحوه لظروف استثنائية محضة ، ألا ترى هذا الوحش يلتهم الناس الآن في غير هذه البلاد ؟ إنى ليبدو لى أن سكان الهند والصين يتكاثرون كثرة تفوق قدرة البلاد على إطعامهم ، وأن لا شئ يمنعهم أن يتجاوزوا هذه المقدرة إلا القحط والوباء .

استيورت : ذلك بأن طرق الصناعة الحديثة لم تطبق بعد إلى أوسع حد في هذين البلدين .

مارتن : ربما كان ذلك ، ومن يدرى فقد يحدث أن تزداد وسائل السيطرة على الطبيعة عدداً وإتقاناً بحيث ينعدم الخطر من تجاوز عدد السكان مقدرة الطبيعة على الإنتاج في العالم كله . لكننا حتى إذا حققنا هذا الغرض لا نسكون قد وصلنا إلى كل ما نبغى . إن الذى نبغيه من غير شك ، إذا أردنا أن يرقى المجتمع الرقى الذى نشده ، هو أن نرفع مستوى

(١) Thomas Robert Malthus (١٧٦٦ - ١٨٣٤) من علماء الاقتصاد الإنجليز ، وكان أستاذاً للتاريخ الحديث ولعلم الاقتصاد السياسى ، وأهم كتاباته مقالته عن تعداد السكان وأثره في مستقبل المجتمع ، وفي هذا المقال أورد النظرية القائلة بأن الحياة الحيوانية تميل إلى الازدياد فوق الحد الذى يكفيه ما في العالم من غذاء ، فإذا لم تقيد زيادة السكان المطردة في العالم فإن مجموع ما ينتجه من الغذاء سيكون في مستقبل الأيام أقل مما ينى بحاجة هؤلاء السكان . ويقول إن العوامل التى تؤثر في عدد السكان في الوقت الحاضر هى الحروب والجاعات والأمراض ، فإذا لم تؤد هذه إلى الغرض المقصود وجب الالتجاء إلى العوامل الاصطناعية لانقاس النسل . ومن الطريف أن نورد هنا ما قاله مالتس عن نفسه : « أكبر الظن أنني وجدت القوس قد زاد انحناءها في ناحية ، فأعتراني ذلك على أن أسرف في حينها إلى الناحية الأخرى حتى تعمدل بعد ذلك » .

الحياة في العالم ارتفاعاً يفوق مستواها حتى في بلاد الغرب نفسها ؛ وقد
يتطلب هذا في ظني — ولا أقول إنه سيتطلب حتماً — تخفيضاً كبيراً في
عدد السكان . إن هذه المسألة تحتاج إلى دراية فنية خاصة ، ولست أدعي
أن في وسعي أن أصدر فيها حكماً قاطعاً ، وكل ما أصر عليه ألا يكون
الغرض الذي يسعى إليه المجتمع هو كثرة السكان مهما تسكن النتيجة ، بل
أن يصل هذا العدد إلى أقصى حد يتفق مع أرقى مستوى للمدينة يستطيع
المجتمع كله أن يبلغه .

استيورت : قد يكون هذا عين الصواب في أمة منعزلة عن غيرها ،
ولكنه لا يمكن الشعوب المختلفة من السكافح ؛ فإذا لم يزد سكان الغرب
مثلاً بنفس المعدل الذي يزداد به سكان الشرق فلا محيص له أن ينهزم في
مضمار المنافسة .

مارتن : كلا . إن السكافية والقدرة في هذا الصراع أعظم أثراً من
الكثرة العددية . فهل استطاعت روسيا والصين بكثرة عددهما أن تقهرا
اليابان^(١) ؟ وهل استطاع الهنود بكثرة عددهم أن يخرجوا عن حكم
البريطانيين ؟ ألم تسيطر القلة على العالم في كل مكان على الدوام ؟ إن
الجموع الفقيرة الجاهلة الغبية ليست مصدر قوة في أي مجتمع من المجتمعات .
استيورت : ربما كان ذلك ، ولكننا إذا فرضنا جدلاً أنه يحسن تحديد

(١) يشير المؤلف إلى الحرب الروسية اليابانية (١٩٠٥) التي هُزمت فيها اليابان
على قلة عدد سكانها دولة الروسية الأوروبية التي يزيد سكانها على مائة مليون ، فلم تفن
هذه الكثرة مع فساد نظام الحكم في البلاد عن التنظيم والدقة اللذين امتاز بهما اليابانيون
في هذه الحرب ، ورأى العالم دولة أوروبية كبرى ذات تاريخ حربي حافل بالانتصارات
تهزمها هزيمة منكرة دولة أسيوية ناشئة .

ويشير كذلك إلى الحروب الطويلة التي لا تزال نارها تشتعل من عدة سنين بين
اليابان والصين ، والتي اقتطعت فيها اليابان من بلاد الصين أجزاء واسعة ضممتها إلى أملاكها
أو أنشأت فيها حكومات صورية مستقلة تحت حمايتها .

(١) في تحديد عدد السكان

عدد السكان فما هي الوسائل التي تريد أن تتبعها للوصول إلى هذا الغرض ؟
مارتن : إن السكان يحددون عددهم بأنفسهم أمام أعيننا ، فالآباء في الطبقات العليا والوسطى وبين الأذكىاء من الصناع يحددون عدد الأطفال الذين يرغبون في وجودهم ، بحيث يكون هذا العدد مناسباً لموارد ثروتهم ، وهذا يبدو في ظاهره أمراً يحددون عليه من هذه الناحية .

مارتن : في اعتقادي أن هذا العمل قد يكون أثراً من آثار أنانية الآباء كما يكون أثراً لغيرها من البواعث .

مارتن : قد يكون للأنانية كما يكون لغيرها من البواعث أثر في هذا العمل ، ولكن هذا لا يقتل من رغبتنا في النتيجة . وإذا كان يحلوك أن تذكر الأنانية فإنني أنا شخصياً لا أتصور أنانية أشد من إخراج أطفال إلى العالم من غير أن يراعى مخرجهم هل في وسعهم أن يعولهم ، وكيف يستطيعون أن يعولهم ؟ .

استيورت : وهل في طاقة الإنسان أن يعرف ذلك ؟ إنني أرى أن تترك هذه المسائل تدبر أمرها بنفسها .

مارتن : ذلك ما يقوله رجال الدين ، أما أنا فليست أؤمن بأن من حقنا أن نلقى تبعات أعمالنا على العناية الإلهية . إن الرجل الذي أجله هو الذي لا يدخر جهداً في تقدير الطوارئ المحتملة في المستقبل ، وبخاصة في مثل هذه المسألة الخطيرة مسألة إيجاد أطفال في هذا العالم بغير رضاهم .

استيورت : لست أدري كيف يسمعك أن تقدر هذه الطوارئ ؟ .

مارتن : إن الناس يقدرونها فعلاً ، وأنا شخصياً أحمد لهم حسن صنيعهم . استيورت : ولكن قل لي ما هي نتيجة عملهم هذا ؟ إن خير الناس ، أو على الأقل أعظمهم حكمة وأبعدهم نظراً ، يحددون عددهم ، أما الفقراء القليلو

التبصر فلا يحددونه ، ونتيجة ذلك أن السكان تضمحل صفاتهم باستمرار ، (١) في تحديد عدد السكان وهذا هو الأثر المباشر لكل حسابهم وبعد نظرهم .

مارتن : ليس هذا أثر حسابهم وبعد نظرهم بل أثر انعدامهما بين الطبقات الدنيا في المجتمع ، والذي يستفاد من هذا من غير شك هو أن تحذو الطبقات الدنيا حذو الطبقات العليا . وإذا نظرت إلى المسألة هذه النظرة ، ألا ترى أن تدخل السلطات الحكومية لمنع انتشار المعلومات الخاصة بهذه المسألة ، مسألة تحديد النسل ، هو مثل من أغرب الأمثلة حتى في تاريخ الحكومات نفسها لوقوف السلطات في سبيل المصلحة العامة ؟

استيورت : أظن أن منطقك يؤدي بنا إلى هذه النتيجة . بيد أن تلك المسألة كلها مسألة تحديد عدد أفراد الأسر يبقى مع ذلك من الأمور البغيضة لى مارتن : إنى أدرك ما تشعر به ، ولكن هل من حقنا أن نترك العنان لشعورنا في هذا الأمر بالذات ؟ إن سعادة الأطفال وسعادة المجتمع هما اللتان تتعرضان للخطر ، وما من شك في أن هذه النظرة هي التي تحتم علينا أن نرحب بكل وسيلة تؤدي إلى انتشار الشعور بالتبعة بين الآباء في أوسع نطاق مستطاع ، والعالم بما يجعل هذه التبعة فعالة قوية الأثر .

استيورت : إنك لا تستطيع أن تضمن ألا يساء استخدام تلك المعرفة فتتخذ وسيلة للفرار من تبعات الأبوة كما يحدث كثيراً في هذه الأيام .

مارتن : كل المعارف أسلحة ذات حدين ، ولكن ليس أمامنا سبيل غيرها ، وأظنك توافقني على أن من واجبنا أن ننشر نور العلم ونتحمل عواقبه استيورت : أظن ذلك ولكن أى المعارف يجب علينا أن نذيعها ؟ أظن أن نوع السكان أهم كثيراً من عددهم ، وأظن أننا إذا نظرنا إلى الزواج من هذه الناحية تبين لنا من غير شك أن لا بد من تنظيمه تنظيمًا نضمن به

(٢) في تحديد صفات السكان

وجود أحسن نوع من الأطفال الذين يخرجهم إلى العالم . ولكن هل في وسعنا أن ننفذ هذا التنظيم حتى إذا رغبتنا فيه ؟ وهل نعرف السبيل الموصلة إليه ؟ .
مارتن : إن أول شروط المعرفة هو الرغبة فيها ، ومن رأيي أن المجتمع لم يُبدِ قط رغبة حقة في هذه المعرفة . لست أنكر أن العالم القديم قد عنى بهذه المسألة أكثر مما عنى بها العالم الحديث حتى الآن ؛ لقد كان المفكرون في ذلك العالم يدركون حق الإدراك أن نوع النسل يجب أن يكون العامل الأساسي في تحديد العلاقات الزوجية ، وكانت لهم طرق يحاولون بها أن يبلغوا هذه الغاية ، ولكنها طرق ساذجة بدائية من غير شك ؛ ثم رجعت المسيحية والعصور الوسطى بالناس إلى وراء في هذه المسألة كما رجعت بهم إلى وراء في مسائل أخرى كثيرة ؛ ومع أن كُتّاب عصر النهضة قد أحيوا هذه الفكرة فإنها لم تؤثر بعد ذلك قط في جمهور الشعب .

استيورت : وهل يسمح الناس للأنظمة أن تتدخل في مثل هذه المسألة مهما تسكن أحوالهم ؟

مارتن : لقد كانوا على الدوام يسمحون للنظم بأن تتدخل فيها ، وأن يكون تدخلها قويا فعلا ؛ ولكن الشيء الغريب في هذه المسألة — وهو شيء غريب حقا إذا فسكرت فيه بامعان — أن القيود التي فرضت لا تبدو في مجموعها كأن لها صلة بالغرض الأسمى الذي يرمى إليه الزواج . لقد كان الذي يوحى بها في بعض الأحيان هو العادات المتبعة في انتقال الملكية ، أو القوانين المنظمة لهذا الانتقال ، وكان يوحى بها أحيانا أخرى خرافات تعجز عن فهمها مداركنا ، وكان الباعث عليها فترة من الزمان نوع من منطق ما وراء الطبيعة ، ولكنني أشك في أن الغرض الذي وضعت هذه القيود من أجله هو إنتاج أحسن الأطفال ، وأكبر ظني أن الكثير منها لا يمكن الدفاع عنه

بالاستناد إلى هذا الأساس ، وإن بدا هذا الكثير مستحجاً مرغوباً فيه من (٢) في تحديد صفات نواحٍ أخرى . وحسبى أن أضرب لذلك مثلاً واحداً هو مسألة الزواج بأخت زوجة متوفاة ، تلك المسألة التي طال فيها الجدل .

استيورت : ذلك أمر غريب .

مارتن : إنه لشديد الغرابة حقاً ، وإني لأشك في أنك لو فاجأت إنساناً بسؤاله عن أسباب هذه الزواجر والنواهي التي ترتضيها الآن ونقبلها على علاتها ، لوجدت لديه جواباً . لقد يكون لها أسباب ، ولست أشك في أن لبعضها أسباباً ، ولكن أعظم ما يدل على نقص تفكيرنا في هذه الموضوعات أن قواعدنا المقررة لا تراجع قط ولا تتحدى إلا في تلك المسألة الوحيدة التي ذكرتها تَوَّأ . وبينما نحن نقبل بعض الزواجر والنواهي على علاتها لأنها مقررة من قديم ، فإننا لم نسكد بعدُ نبداً بسؤال أنفسنا ، ألا توجد نواهي غيرها أعظم منها خطراً يجب أن تدخل في نظمنا ؟ نرى المجرمين والبلهاء والمسؤولين والمصابين بالزهرى ، وفي استطاعة كل واحد منهم أن يتزوج ، ما لم يكن ممن تنطبق عليهم النواهي الموضوعية ، وأن يخرج للعالم ما يشاء من الأطفال من غير أن يفكر في أنه يخلف إلى من بعده رذائله وأمراضه .

استيورت : لا شك في أن هذا أمر يؤسف له كل الأسف ، ولكنني لا أعرف كيف تستطيع أن تمنعه .

مارتن : يشترط لمنعه شرطان : أولهما المعرفة ، وثانيهما الإرادة ، ولربما كان من واجبي أن أقول إن أولهما الإرادة وثانيهما المعرفة . وإذا كان لا بد أن يرقى المجتمع ، فإني أعتقد أن هذه المسألة يجب أن تكون من المسائل الجديرة باهتمامه ؛ وإذا تقدمت المعارف فقد يكون في وسعنا أن نتوقع حدوث تطور في نظام الزواج أساسه منع كل زواج نعرف من قبل أنه سيخرج

(٢) في تحديد صفات المجتمع أبناء غير صالحين ، سواء كان ذلك المنع بطريق التشريع أو الرأي العام أو بهما معاً ، وتشجيع كل زواج ينتج له أبناء صالحين . ذلك رأى أقول ما يوصف به أنه معتدل لا إسراف فيه ؛ وأرجو أن أكون قد نجحت في كسب موافقتك على كل ما قلته حتى الآن .

استيورت : است أعارض في الاقتراح نفسه ، ولستكني أقول إنه اقتراح مستحيل التنفيذ ، ذلك أن الناس لن يقبلوا أى تدخل من غيرهم في مثل هذه الشؤون .

(٣) هل هذا التحديد مستطاع ؟
مارتن : إن الأمر عكس هذا ، فلم يوجد قط مجتمع لم يخضع فيه الناس إلى أشد ضروب التدخل في شؤونهم ، سواء أكان هذا التدخل عن طريق التشريع أم عن طريق الرأي العام . وإنا لنجد على الدوام في المجتمعات المتوحشة قيوداً على الزواج لا حصر لها ، تفرض على الأفراد وتنفذ فيهم ولا يستطيع الباحث في هذه الأيام أن يدرك معناها . وقد كانت مرتبة الشخص وأملاكه في المجتمعات المتمدينة قديماً وحديثاً أهم العوامل في الروابط الزوجية ؛ ففي كم بلد وكل أسرة تتمتع المرأة بحرية قبول الزوج أو رفضه ؟ وفي كم بلد وكل أسرة يختار الرجل زوجته وفقاً لميوله وحدها ؟ وإذا كان في الاستطاعة فرض كل هذه القيود التي تحتّمها الأسرة أو يحتّمها المجتمع ، ومعظمها قائم على العباوة أو الأثرة ، إذا كان ذلك في الاستطاعة فهل لا يكون من المعقول أن نرجو أن يخضع مجتمع ذكي مفكر إلى نظم وقيود يفهمها ويدرك أن المصلحة العامة وحدها هي الباعث عليها ؟

استيورت : إنا إذا سلمنا أن من المستطاع فرض القيود وتنفيذها فإني أرى أن ثمة صعاباً أخرى لا حصر لها . وأول هذه الصعاب أنك لا تستطيع

أن تقول ما هو الغرض الذى نربي الأطفال من أجله ؟ فهل تريد مثلاً عدداً (٣) هل هذا التحديد مستطاع ؟
من الأنماط المتخصصة تخصصاً ضيقاً محصوراً ، بعضها متفوق فى العقل
وبعضها فى الجسم وما إلى ذلك ؟ أو هل تريد أن تنشئ نمطاً راقياً وسطاً
كاه من طراز واحد ؟

مارتن : إن الجواب عن هذا السؤال يتطلب معرفة نوع المجتمع الذى
تريده ، وتلك مسأله سنصل إليها فى بحثنا بعد قليل . ولكن فى وسعنا أن
نقول من الآن إنه مهما يكن نمط المجتمع الذى نرغب فيه ، فإننا لن يصعب
علينا أن نعين الأنماط التى يجب ألا يشملها المجتمع ، حتى إذا تعذر علينا أن
نعين الأنماط التى يجب أن يشملها . فإذا عرفنا مثلاً أن مرضاً من الأمراض
عقلياً كان أو جسمياً مرض وراثي ، فإن أقل ما يجب أن نفعله هو أن نحرم
الجل والولادة على المصابين به ، وتكون هذه البداية الصغيرة نفسها من
الأمر التى نحمد عليها ، لأنها بداية قد يعقبها الشيء الكثير كلما زادت
التجارب واتضحت المثل .

استيورت : فلنسلم بهذا إذا أحببت ؛ ولكن تبقى بعد ذلك تلك الصعوبة
الأخرى التى أشرنا إليها من قبل ، وهى أننا لا نعرف الوسيلة الموصلة إلى
الغرض الذى ننشئ الأطفال من أجله ، حتى إذا عرفنا هذا الغرض نفسه .
لقد فهمت من قولك أن القدماء قد عنوا أشد العناية بتنظيم الزواج على أساس
صلاح النسل ، فهل كانت لديهم فكرة واضحة موفقة عن الوسائل التى
يستطيعون بها أن يصلوا إلى غرضهم ؟

مارتن : لقد كان لديهم نوع من الخبرة الساذجة ، وكانوا من غير شك
مُسرفين فى الرضاء بها ؛ على أن موقفهم هذا كان يرجي منه خيراً أكثر مما
يرجي من موقفنا نحن ، لأنهم كانوا يعترفون على الأقل بأن الغاية التى

(٣) هل هذا التحديد مستطاع ؟ يعملون لها غاية يجب على المجتمع أن يضعها نصب عينيه ، وإن كانوا يجهلون الوسيلة الموصلة إليها . أما نحن فلم نعتزف بالغاية نفسها ، ولم تتغير هذه العقلية إلا في السنين الأخيرة حين أقدم عدد قليل من الرجال ذوي الشجاعة والجرأة أمثال فرنسيس جولتن Francis Galton^(١) فجهروا بوجوب تنشئة نسل صالح ، وبدأوا تلك الأبحاث التي قد تؤدي إلى الإحاطة بهذا الموضوع كله . أما أنا فإن في قلبي من الإيمان بالعلم ما يحملني على الاعتقاد بأن الناس إذا ما رغبوا في عمل شيء عرفوا من فورهم كيف يعملونه ؛ وإن رقى العلم ليرجع إلى البيئة الاجتماعية الصالحة بقدر ما يرجع إلى عبقرية الأفراد وصبرهم . و يقيني أنه متى قضى على تلك الفكرة الخاطئة الضارة القائمة على التحزب والهوى ، والقائلة بأن إنتاج الأطفال عمل خاص يسأل الآباء وحدهم عنه ، كان لنا أن نأمل أن يزداد العلم بالوسائل اللازمة لتربية الأطفال تربية صحيحة بازدياد الرغبة في هذا العلم .

(٤) الحب والزواج استيورت : وحتى هذا أسلم بإمكان حدوثه ، وإن كان ذلك الإمكان بعيداً جداً . وتبقى لدى بعد ذلك مسألة أخرى أخشى بعض الخشية أن أحشرها في هذه المناقشة الرصينة ، لكنني رجل اسكتلندي وكل الاسكتلنديين في حقيقة أمرهم رجال عواطف . وما أريد أن أتأكد منه هو هذا : أظن أن عادة الزواج للحب سيضعف شأنها من غير شك كلما تدخل العرف أو القانون في أمر الزواج فنظمه على ذلك الأساس الوحيد أساس إيجاد النسل الصالح .

(١) فرنسيس جولتن : من الكتاب العليين ورجال الرحلات الإنجليز ، ولد في عام ١٨٢٢ في بلدة قريبة من برمنجهام ، وتخرج في جامعة كمبردج في عام ١٨٤٤ ، ثم رحل إلى بلاد النيل الأبيض وإلى جنوب إفريقيا . ونشر كتاباً عن رحلاته في هذه القارة باسم « جنوب إفريقيا الاستوائية Tropical South Africa » . لم يكن أعظم ما يشتهر به دراسته للوراثة ؛ وله فيها عدة كتب أهمها « أبحاث في المواهب البشرية » ١٨٨٣ ، « سجل مواهب الأسر » ١٨٨٣ و « الوراثة الطبيعية » ١٨٨٩ .

ترى ماذا يكون شأن الحب بعد ذلك ؟ لقد تظن أن هذه مسألة تافهة ولكنى (٤) الحب والزواج أريد لها جواباً .

مارتن : أظن أنى أعدها من المسائل التافهة ؟ كأنى بك تظن أن أى شىء ذى صلة بالحب يصح أن يكون تافهاً ! هذا إذا كنت تعنى بالحب تلك العاطفة التى لا تُدرك أسبابها ، والتى هى أكثر الأشياء غموضاً وأشدّها رهبة وأعظمها قدسية ، والتى تجذب الأجسام والأرواح بعضها إلى بعض رغم كل الروابط الأخرى ، روابط المصالح أو المهن أو العقائد ، مدفوعة إلى ذلك بدافع قوى بعيد يلوح أن مصدره مستخف وراء الأبواب التى تدخل منها الحياة إلى عالم الأجسام ، وهى عاطفة قوية نافذة أوامرها ، تقسم كل ما عداها من الروابط ، متأصلة فى غرائزنا ، وإذا اندفعت جرف تيارها العقل كأنه هباء . أظنك تعنى به إيروس (١) الإغريق الجبار لا كيوبد Cupid (٢) ولا الزهرة (٣) ، ولا غيرها من رموز الحب التافه الذى يستطيع الرجل أن يلهو به ، ولكنه إذا ما كان عاقلاً حكيماً لا يستسلم له .

استيورت : إننى أعنى بالحب كل جاذبية شخصية كالتى تسبق الزواج عادة وتنتهى به .

(١) Eros إله الحب فى الأساطير اليونانية ، ولم يكن إله العاطفة خصب ، بل كان إله الإخصاب أيضاً ، وقد جعلته الأساطير المتأخرة ابناً للإلهة أفروديت من زيوس .
(٢) Cupid هو الاسم اللاتينى لإله الحب ، ويرسم عادة فى صورة طفل أعمى يحمل قوساً .

(٣) Venus (الزهرة) إلهة الحب فى الأساطير الرومانية وهى فى الأصل إلهة الربيع وربة حدائق الزهر ، وهى بعينها أفروديت اليونانية إلهة الحب والجمال .
والزهرة فى علم الفلك أكثر الكواكب السيارة لمعاناً ، وفلكها ثانى الأفلاك حول الشمس .

(٤) الحب والزواج

مارتن : ولكن هذه الجاذبية كما يشعر بها الناس عادة لا تعلق بشخص واحد ولا تثبت عليه ثباتاً لا يسعها أن تتحول عنه إذا تبين أنها عاجزة عن بلوغ هدفها الأول لسبب من الأسباب ، دون أن يؤدي هذا التحول إلى متاعب خطيرة وخسارة فادحة . إن في مقدور معظم النساء ومعظم الرجال أن يفعلوا « أسرى في حب » عدد كبير من الناس على حد تعبيرنا ، أليس كذلك ؟ وإذا كان هذا صحيحاً فإني ليصعب على أن أتصور ألا يكون مستطاعاً في مجتمع حسن التنظيم أن يجتمع هذا النوع من الحب مع الزواج كما هو مستطاع في مجتمعنا الحاضر . ذلك أننا حتى في هذه الأيام — وقد وافقتني أنت على ذلك — نرى معظم عقود الزواج ، أو عدداً كبيراً منها على الأقل ، تبعث عليها في أول أمرها اعتبارات لا تمت بصلة إلى عاطفة الحب ؛ وتدل التجارب على أن هذا الزواج ليس أقل من غيره سعادة . أما الحب الذي يعد عنصراً هاماً في الزواج فهو الذي يعقبه لا الذي يسبقه ، هو ذلك العطف الخالص الرزين الذي تؤدي إليه الحياة المشتركة والتبعات المشتركة .

استيورت : قد يكون هذا كله صحيحاً ولكن لا يحل مشكلتي . إن ثمة نوعاً من الحب عظيم الشأن في ذاته ، ويجب ألا نخضعه لأي غرض سواه . وإذا ما شعر الناس بعاطفته فإنهم يريدون أن يتحدوا للاتحاد نفسه ، وإذا ما اتجّب هذا الاتحاد أطفالاً فإنما يكون ذلك من ناحية غرضهم مجرد مصادفة ، وسواء أنجبوا أطفالاً أو لم ينجبوهم ، ومهما يكن نوع أولئك الأطفال ، فإن اقترانهم أمر تتطلبه شخصيتهم ، وفي منع هذا الاقتران استبداد بهم ، وهو أشد أنواع الاستبداد وأثقلها وطأة عليهم .

مارتن : إنك تشير إلى مسألة صعبة حقاً لا تقتصر صعوبتها على المجتمع الخيالي بل يشعر بها كل مجتمع قائم بالفعل ، لأنني وإن كنت أعتقد أن

الحب الذى يستطيع الناس أن يشعروا به يتسرب بسرعة فى معظم الأحوال (٤) الحب والرواج إلى مسالك تقرر فيها أعين المحبين بالزواج ، أعترف مع ذلك بأن لهذه القاعدة شواذاً ، وقد تكون الشواذ من نوع يُفَضِّى حتماً إلى مأس خطيرة مهما يكن نظام المجتمع . إنى أومن بوجود ما يسمى بالعاطفة الكبرى ، عاطفة الشعراء وعاطفه أفلاطون ، وإن كنت أظن أن هذه العاطفة أندر مما يظن الناس عادة ؛ وكثيراً ما يخلط الرجال المرفهون الحس والنساء المرفهات الحس بينها وبين الحنين الناشئ من الرغبات التى لا تُشبع ؛ ولكنها متى وجدت كانت ، ويجب أن تكون ، السيد المسيطر على من تنبعث منهم ، ولا يكون لغيرها سلطان عليهم ؛ غير أنها وهى أكثر قوى العالم اتباعاً للهوى وأبعدها عن العقل قد تطلب ما هو معجز الدرك كؤود المطلب ، وما هو غير مرغوب فيه من وجوه أخرى . وقد لا يستجيب لعاطفة الحب من علفت به رغباته ، وقد تقوم آلاف من العقبات التى يرتضيها العقل فتحول دون الاقتران الذى تعمل له ؛ هذا ما يحدث الآن فى المجتمعات القائمة فعلاً ، وهذا ما حدث فى كل المجتمعات التى قامت من قبل ، كما تشهد بذلك مآسى الحب جميعها . وليس من الضروري المحتوم أن تزيد الصعاب على ذلك ، وإن كنت لا أقول إنها سوف تنقص عنه ، فى المجتمع الحسن النظام الذى نتصور وجوده ، لأن الاختبار الذى سوف يفرضه هذا المجتمع لن يعدو التحقق من صلاحية الزوجين لإنتاج النسل ؛ فإذا ما اجتازا هذا الاختبار بنجاح فقد يؤدي نجاحهما إلى تلك الصلة التى هى أندر الصلات وأحلاها ، والتى تدوم بها العاطفة الشخصية وتزيد بها قوة على قوتها ، بفضل اشتراك الزوجين فى فرص الحياة ورعاية الأبناء . وحتى إذا حرم الزوجان هذه النعمة الأخيرة ، فإنهما قد يحييان حياتهما معاً ، وتسكون الصلة بينهما جميلة بعيدة القرار ،

(٤) الحب والزواج يسرى فيها الإخلاص والوفاء ، وإن لم تكن أتم الصلات وأكملها . ولن يكون المجتمع الذي أتصوره أقل حرية من مجتمعنا الحاضر ، بل سيكون أوسع منه حرية ؛ وذلك لأن رأيه العام سيكون أعظم تسامحاً وأكثر انزاناً ، وسيكون ما يقيدده ويحدده هو الأبوة والحب ، ولن يكون هذا التحديد إلا لخير المجتمع ، ذلك الخير الذي يرتضيه ويفهمه خير فهم . وهل يصح أن يعد هذا التحديد طغياناً حقاً ؟

استيورت : قد يكون من الواجب ألا يعد طغياناً ، ولسكني أظن أنه سيعد كذلك .

مارتن : حسن إنى قانع بهذا . والآن يصح لنا أن نعود إلى النقطة التي أثرتها قبل ، والتي أرجأت الكلام عليها ، وأقصد بها ما هي الأنماط التي يجب أن يربي من أجلها الأطفال ؟ وقد أرجأت الكلام على هذه المسألة إلى الآن لأنها من المسائل التي لا بد أن تختلف فيها مع هرنجتين . وقد كنت أحرص أولاً على أن أصل إلى نتائج أظنه يتفق معى عليها ، ولست أدري هل وفقت إلى ذلك أو لم أوفق فقد ظل هرنجتين طول الوقت صامتاً ؟

(٥) تنشئة الأجيال في ظل الأرستقراطية

هرنجتين : لست أظن أنى قد اختلفت معك في أية نقطة من النقاط الهامة ، ولسكني أقر أن تفكيري قد تحول إلى البحث في الطريقة التي أنظم بها هذه المسألة في ظل الأرستقراطية ،

مارتن : سنصل إلى هذا تَوَّلاً ، والسكى يقيس لنا تحديد المسألة التي ستكون مدار بحثنا ، أرجو أن يسمح لى استيورت بذلك الفرض الخائف للعقل ، وهو أننا نعرف الوسيلة التي نستطيع بها أن نربي أبناءنا ليكونوا من نمط نختاره ، وأننا نريد أن نربيهم ليكونوا من هذا النمط ، وأن المشكلة الحقيقية هي اختيار هذه الأنماط .

استيورت : إذا كنت تقر بأن هذا الفرض لا ينطبق على العقل فلا مانع (هـ) تنشئة الأجيال في ظل الأرستقراطية لدى من أن تفترضه .

مارتن . حسن ولنبدأ إذن ، وسأسال هرنجتين الذى كان طوال الوقت يفكر فى هذا الموضوع ، أى نمط من الناس يُربى له الأطفال فى النظام الأرستقراطى ؟

هرنجتين : لا أجسد سبيلاً لغير القول بأننا يجب أن نربهم ليختصوا بصفات لهم تميزهم عن غيرهم ، وسيكون المجتمع الذى أريده مؤلفاً من طبقات محدودة يتولى فيها كل منصب من يصلح له ، ويعمل لتمكين كل طبقة من أن تخرج العدد المطلوب من أفرادها ، فيخرج الصانع صناعات والتجار تجاراً والحكام حكاماً وهلم جرا .

مارتن : إذن أنت تتبع أفلاطون فى هذه النقطة أيضاً .

هرنجتين : إن المنطق السليم هو الذى يضطرني إلى اتباعه ؛ ولكن الذى يحيرنى هو أنى لا أستطيع أن أنفض يدي من طبقة العمال على بكرة أبيها ، بحجة أنها لا تسكاد تستحق عناية الفلاسفة . إنى أتصور نفسى كأتى أبحث فى أمر مجتمع صناعى معقد التركيب من طراز المجتمع الحاضر ، وهذا يضطرني أن أسأل نفسى هذا السؤال وهو : إذا كان مثل هذا المجتمع مما تشرف عليه الأرستقراطية ألا يجب أن يكون التخصص فى تنشئة الأطفال دقيقاً كالتخصص فى الصناعة ؟

مارتن : تريد إذن أن تنشئ طبقة لثنى الورق مثلاً وأخرى لخرمه وثالثة للصقه وهلم جرا ، وتريد فى صناعة الدبايس أن تنشئ طبقة لكل عملية فى هذه الصناعة وهكذا إلى آخر ما هنالك من الصناعات ؟

هرنجتين : أريد شيئاً من هذا القبيل ، وإن كنت لا أعتقد بطبيعة الحال

(٥) تنشئة الأجيال في ظل الأرستقراطية
 أن التخصص يجب أن يبلغ هذه الدقة حتى في الأرستقراطية. على أنى أرى أنه إذا كان لا بد من تنفيذ شرطى الأساسى وهو أن يقوم بكل عمل أصالح الناس له ، فلا أقل من أن يكون التخصص فى أنماط الناس معقداً بعض التعقيد .

مارتن : أظن أنه سوف يكون كذلك . ومن أجل هذا السبب وغيره من الأسباب قد يكون النظام الأرستقراطى أقل ملائمة لمجتمع من النمط الحديث منه لدولة المدينة^(١) الأفلطونية . على أنى مع ذلك أرى أن من التنطع أن أطلب إليك الإدلاء بالتفاصيل ، وحسبى أن أفهم أن المثل الأعلى للأرستقراطية هو التخصص ، وأنها لا ترمى إلى إيجاد الرجل المتعدد الكفايات فى أى مكان على الإطلاق ؛ ولكنها تبغى خلق رجال لكل منهم كفاية خاصة ، وقد تكون كفاية من نوع جد دقيق .

هرنجتن : إن بعض المواطنين على الأقل فى المجتمع الأرستقراطى سيكونون أكمل ممن نلتقى بهم فى المجتمعات القائمة بالفعل فى هذه الأيام . وكلما علت الطبقة كانت دائرة نشاطها أوسع وأكثر إنسانية . وستكون طبقة الحكام ، كما كان فلاسفة أفلاطون ، ملعة بجميع فنون العلم والأدب ، ولا أقل من أن يكون أفرادها ذوى خبرة فى السياسة والفكر والفن إن لم يكونوا ساسة ومفكرين وفنانين .

مارتن : إنى أفهم ما تريد . تريد أن يكون على رأس المجتمع رجال كملت أخلاقهم وعقولهم ، يتحقق فيهم المثل الإنسانى الأعلى بكامل معانيه ،

(١) الدولة المسكونة من مدينة واحدة . ودول المدن ظاهرة عامة فى التاريخ القديم كانت فى مصر وكانت فى بابل وكانت فى اليونان . لكن أشهر دول المدن هى الدول اليونانية القديمة التى يشير إليها المؤلف .

وأن يكون في الدرك الأسفل منه رجال تخصصت كفاياتهم ونظرتهم إلى (٥) تنشئة الأجيال في الحياة أدق التخصص ، فتكون طبقاته العليا أعظم وأنبل منها في هذه الأيام ، وتكون طبقاته السفلى أقل عدداً وأصغر شأنًا .

هرنجتن : هذا إذا كان الشطر الثاني من قولك مستطاعا .

مارتن : قد لا يكون مستطاعا فحسب بل ضروريا أيضاً لتحقيق المثل الأرستقراطي الأعلى . والآن فلنر ما بين هذا وبين مثل الديمقراطية الأعلى من فروق . إن الديمقراطية كما أفهمها أنا لا تنشئ الأطفال ليتخصصوا بل تنشئهم ليلعبوا مستوى عاما راقيا من السكافية .

هرنجتن : ولكنني لأشك في أن التخصص في المهن واجب في ظل (٦) تنشئة الأجيال في الديمقراطية وجوبه في كنف الأرستقراطية .

مارتن : لست أظنه واجبا إلى الحد الذي ذكرت أو جامداً بالقدر الذي وصفت . لست أنسكرك أنه قد يكون من أغراض المجتمع أن نشجع على وجود أنواع مختلفة من المهن بالقدر الذي يتفق مع السكافية والإتقان في العمل ، ولكن مهما يكن هذا الاختلاف فإن الديمقراطية التي أفهمها لا تعمل للتخصص في المواهب العقلية ، بل تعمل لوجود الرجل الكامل ذي المواهب المتعددة ؛ ذلك أنها تعتقد أن العمل قد وجد من أجل الحياة ، ولا ترى أن الحياة قد وجدت من أجل العمل ، وأن خير أوقات الحياة ليست هي التي تنفق في العمل الضروري لها والذي يكون في أغلب الأحيان عملا شاقا يضيق أفتها ، بل ترى أن خير هذه الأوقات هو وقت الفراغ الذي ينفقه الإنسان كما يهوى . إن ديمقراطيي إذن تعمل لكي يبلغ الناس مستوى عاما من الكفايات في وسع أصحابها أن ينتقلوا إلى أي عمل من الأعمال ، بل في وسعهم أن يجيدوا هذا العمل ويتقنوه ؛ فغرضها الذي ترمى إليه هو الرجل

(٦) تنشئة الأجيال في السكامل لا الرجل المتخصص ؛ وأظن أن واجبها سيكون لهذا السبب أسهل الديمقراطية

من واجب الأرستقراطية ، لأن أهم جزء من هذا الواجب هو أن تتخلص من غير الصالحين ، وهي مشكلة أسهل كثيراً من مشكلة العمل الإيجابي لخلاق عدد لا حصر له من الأنماط الشديدة التخصص .

هرنجتن : إنني أعترف بأن الإنسان إذا ما شرع في التنفيذ بداله أن تربية الأطفال للغرض الذي ترمى إليه الأرستقراطية هو أكثر ما فيها تناقضاً .

مارتن : الذي أراه أنا أن هذا العمل هو الصخرة التي تتحطم عليها الأرستقراطية بوصفها مثلاً أعلى للمجتمع ، مهما تكن الصعاب العملية التي تعترض تنفيذه ؛ لكنني سأترك هذه المسألة حتى يحين وقت الموازنة بين مركزينا . وإلى أن يحين ذلك الوقت يبدو لي أنه إذا كان مجتمع حسن التنظيم سيقوم يوماً ما ، فإن الواجب يقضى على هذا المجتمع أن يعرف كيف يشرف على عدد أفراده سواء كان هذا الإشراف بطريق القانون أو الرأي العام أو بغيرها من الوسائل التي يراها أوفى بغرضه ، ويدرك أن نظم هذه الأيام القائمة على غير أساس والمتروك أمرها للمصادفات نظم عقيمة وإن رأيناها الآن ضرورية محتمة لجهلنا وأهوائنا . وفوق هذا فإني أرى أن من الأمور الواضحة أن النمط الذي يجب أن ينشئه المجتمع الذي أوتى القدر الكافي من المعرفة والإرادة سيعينه مثله الأعلى العام . ومن ثم فإن بحث المثل العليا ونقدها من الأمور العملية ذات الشأن العظيم ، فهل يسير معنا استيورت نفسه إلى هذا الحد ؟

استيورت : نعم ، لست أجد شيئاً من الصعوبة في أن أسير وراءك إلى هذا الحد مادمت تبحث أموراً خيالية .

مارتن : يحسن بنا إذن أن نظل نرقى في سماء الخيال ؟ ولكنني أخشى

أن يصعب عليك أن تتبعنا في بحث ذلك الموضوع الأرضي غير الخيالي الذي (٦) تنشئة الأجيال في الديمقراطية
آن أن نبجثه الآن .

استيورت : أظنك تعنى موضوع الملكية ؟

مارتن : نعم ، هو الملكية ، ذلك النظام المعظم للمبجل الذى لا تكاد § ٤ نظام الملكية
تطاوعنى نفسى على أن أدنسه بيدي ، لأنه نظام مقدس رهيب جليل . أليس
هو معبوداً مخلداً ؟ بل أليس هو المعبود المخلد الوحيد الباقي على ظهر الأرض ؟
أليس القانون هو هيكله الذى يُعبد فيه والذى يُعدُّ مسه تدنيساً له
وانتها كالحرمته .

استيورت : إن تهكمك بى لن يعود عليك بنفع ، فليس فى وسعك أن
تشير غضبي .

مارتن : لسكنى ألمح فى عينيك نذيراً لى بأن أكون حذراً ، على أنى مع
ذلك لا أستطيع النكوص ، وسأبدأ الحديث فى هذا الموضوع بأن أذكرك
وأذكر نفسى بما لهذا النظام من خطر عظيم ، وبما يحتمه ذلك علينا من أن
نستعين بكل ما أوتينا من شجاعة عند البحث فيه ، سأفعل هذا لأسترضيك
به وأستعينه على بحثى .

استيورت : لست فى حاجة إلى من يقنعنى بما للملكية من خطر .
مارتن : لسكنى أرجو مع ذلك أن تسمح لى بأن أضع هذه الحقيقة فى
صورة واضحة .

استيورت : قل إذن .

مارتن : لقد رأينا أن الزواج يحدد صفات الناس ومواهبهم ، أما الملكية
فتمحدد ما يتاح لهم من الفرص . والزواج والملكية مجتمعين هما العاملان
الاجتماعيان اللذان يعيّنان مجرى حياة الشخص كله . فهل يجب على الرجل

§ ٤ نظام الملكية أن يعمل ؟ وهل يسمح له أن يعمل ؟ أو هل يعفى من واجب العمل ؟ وإذا كان لابد أن يعمل ففي أى شيء يعمل ؟ أنى الأعمال اليدوية أم فى الوظائف أم فى المهن التى تحتاج أو لا تحتاج إلى مهارة ؟ أنى الفنون الجميلة أم فى الصناعات أم الأعمال الآلية الرتيبة ؟ كل هذا يعينه ما يملك أبواه أو ما يملكه هو من المال . وهذا الملك نفسه يحدد مقدار الأجر الذى يتقاضاه عن عمله . فهل فى وسعه أن يصل إلى عمل يؤجر عليه قليلاً أو كثيراً ؟ ووصوله إلى هذا العمل أو ذاك موقوف فى بعض الأحيان على مواهبه الطبيعية ، ولكنه فى معظم الأحيان يعتمد من الوجهة العملية على المصادفة . وفى وسعى أن أقول بوجه عام إن أبناء الموسرين يبقون موسرين ، وإن أبناء الفقراء يظلون فقراء ، وإن كان الذين يشذون عن هذه القاعدة كثيرين ذوى شأن خطير . فأنت ترى من ذلك أن نظام الطبقات كله فى أى مجتمع من المجتمعات يحدده نظام الملكية بتفاعله مع نظام الزواج . فهل فى المجتمع طبقات لا تعمل ؟ وهل فيه طبقات مجرمة ؟ وهل فيه طبقات متعطلة وطبقات غير صالحة للعمل ؟ وهل فيه طبقات لا تكاد تجد الكفاف من العيش معرضة لأن تتردى عند أقل اضطراب إلى طبقة المتسولين أو المجرمين ؟ وهل فيه طبقات أخرى موفورة الثراء لا عمل لها طول حياتها إلا إفساد نفسها وإفساد من يتصلون بها من أبناء الطبقات الأخرى ؟ إن تبعة هذا كله واقعة على نظام الملكية . وعلى هذه العوامل نفسها يعتمد نظام المجتمع كله ، واستقراره أو اضطرابه ، ورفقه أو ركوده ، وتآلفه أو تفرقه . ولهذا فى وسع الإنسان أن يقول وهو آمن من الزلل إن الصفات الجوهرية لكل مجتمع يحددها تفاعل سنتى الزواج والملكية .

استيورت : يلوح أنك تعزو إلى نظام الملكية كثيراً مما أعزوه أنا إلى نشاط الأفراد .

مارتن : سبب ذلك أن نظام الملكية هو الذى يحدد نوع هذا النشاط § ٤ نظام الملكية ومقداره ، ويعين نطاقه وآثاره . فإذا ورث الرجل ثروة فذلك منشؤه قانون الملكية ، وإذا لم يرث تغير من جراء ذلك مجرى حياته كله . وإذا كان يعيش من ريع أرضه فهذا أيضاً ناشئ من قانون الملكية ، وإذا أصبح كل الريع ملكاً للمجتمع تغيرت بسبب ذلك حياته كلها . وقانون الملكية هو الذى يعين الأشياء التى يصح أن تملك ويضع شروط امتلاكها ، وهل تنتقل الملكية أو لا تنتقل ؟ وعلى أية صورة يكون انتقالها ؟ وعلى المجتمع أن يكيف نشاطه كله حسب هذه القواعد .

استيورت : ولكن هذه القواعد كلها ضرورية له .

مارتن : ماذا تعنى بهذا ؟ لقد أصبحت تبدو لنا ضرورية ، لأننا ألفناها ، ولكن هل هى حقاً ضرورية فى ذاتها ؟

استيورت : إذا قلت إنها ضرورية فإن الذى أقصده بهذا القول أنها فى اعتقادى القواعد العملية دون سواها .

مارتن : لست مستعداً لقبول هذا رأى ، بيد أنى أوافق بطبيعة الحال على أن هذه القواعد تؤدى عملها ، ولكن يبدو لى أنها تؤديه أداءً جيداً عجيباً .

استيورت : كيف ذلك ؟

مارتن : سأشرحه لك الآن . إن ثمة على العموم شيئين يسيطر عليهما قانون الملكية ، وهما يتفاعلا على الدوام مع قانون الزواج ، وأولهما توزيع العمل بين أفراد الجماعة البشرية ، وثانيهما توزيع ثمرات العمل . وهذان الأمران وثيقا الاتصال بطبيعة الحال ؛ ذلك أنه إذا كان حق اختيار العمل

§ ٤ نظام الملكية

مباحا للفرد مال بطبيعة الحال إلى اختيار العمل الذي يعود عليه بأكبر جزاء .
لكننا مع هذا سنتكلم على كل منهما على انفراد تيسيراً للبحث .

(١) توزيع العمل في
المجتمع الحاضر

استيورت : ماذا تعنى بقولك إن توزيع العمل يعينه قانون الملكية ؟
مارتن : لست أعنى أكثر من تلك الحقيقة الواضحة وهى أن العمل الذى
ينال أعظم الأجور والذى يطمع فيه أكثر الناس وهو التوظيف والمناصب
العليا فى الأعمال التجارية والصناعية أسهل منالاً لأبناء الأغنياء والموسرين
من الطبقة الوسطى منه لأبناء الفقراء ، هذا إذا لم نقل إنه وقف على أولئك
دون هؤلاء . ذلك أنه يحتاج أولاً إلى تعليم واسع كثير النفقات ، وإذا
أمكن الاستغناء عن هذا التعليم فإن القرابة والصلات الاجتماعية لها فى
ذلك أثر كبير . وإنك لترى أصحاب المال منفصلين انفصالاً متفاوت
الدرجات عن لا مال لهم ، فهم يؤلفون فيما بينهم رابطة شبيهة برابطة البنائين
الأحرار ، وهم يميلون بطبيعتهم إلى أن يهبوا المناصب الحسنة العالية الأجر
إلى أبناء طبقتهم ، إذا لم يهبوها لأقاربهم الأدينين وأصدقائهم كلما وجدوا
إلى ذلك سبيلاً .

استيورت : أظنك تبالغ فى هذا الميل . إن الناس فى الأعمال التجارية
والصناعية على الأقل يرقون على الدوام من أخط الدرجات إلى أرفعها .

مارتن : إنهم يرقون دون شك ، ولكن كم عدد من يرقى منهم ؟ وما هى
نسبتهم إلى من لا يرقى ؟ إنى أعترف بصراحة أن الكفاية الشاذة للمقارنة
حتى مع قلة الفرص المتاحة لها تسمى بصاحبها حتى فى أوربة نفسها ، وتسمو به
أكثر من ذلك فى الأقطار الجديدة ؛ ولكن الفرص وحدها هى التى تعين
مصير الرجل العادى ذى الكفايات المتوسطة ، والطبقات الغنية تحتكر هذه
الفرص احتكاراً . ولما كان الأغنياء هم الأقلية الضئيلة ، فإن السكثرة الغالبة

من أبناء الشعب محكوم عليها أن تقوم بالأعمال الكثيرة المشقة الضئيلة الأجر؛ (١) توزيع العمل في
المجتمع الحاضر
فأبناء الطبقة التي تعمل بأيديها يصبحون عمالا يدويين أو كتبة في أحسن
الحالات أو أسوأها إذا شئت، وأبناء الكتبة يصبحون كتبة مثلهم، وأبناء
أصحاب المتاجر ينشئون أصحاب متاجر، وهكذا حتى تصل إلى أعلى الدرجات.
فإذا لم يحترف الابن حرفة أبيه نفسها احترف حرفة أخرى مساوية لها في المنزلة
وربما زادت عليها أو نقصت عنها درجة واحدة. فإذا أصبح ابن الخادم
محميا أو ابن البستاني طبيبا كان ذلك مدعاة للدهشة وكثرة القيل والقال.
إن مجتمعنا في الواقع مجتمع طبقات وراثية، وإن كنت لا أنكر أن لهذه
القاعدة العامة شواذ كثيرة، ونظام الملكية هو الذي صبغه هذه الصبغة.

استيورت: هذه العبارة مبهمة غامضة فأى نقطة بعينها في نظامنا الحاضر
هي التي تهاجها؟

مارتن: لا جدال في أن النقطة التي أبحث فيها هنا هي قانون الوراثة والوصية،
وسبب ذلك أنه إذا كان الابن في الأحوال العادية لا يرث مال الأب قل
هذا المال أو أكثر، فإن المجتمع وإن بقي مقسما إلى طبقات لا تكون طبقاته
وراثية، وفي هذه الحال يكون في وسع كل إنسان أن يبدأ حياته وأمامه من
الفرص قدر ما أمام غيره، أو ما يقرب من هذا القدر، وتكون الكفايات
والمواهب الطبيعية هي التي تحدد حقا المستوى الذي يبلغه كل فرد.

استيورت: لست أدري كيف يستطاع وضع هذا النظام.

مارتن: لست أبغى هنا أن أوضح كيف يوضع هذا النظام، بل كل
الذي أبغيه أن أدلك على نتائج النظام القائم في هذه الأيام، فهو نظام
يؤدي بوجه عام إلى وجود مجتمع من طبقات وراثية، شبيه من هذه الناحية
بمجتمع هرنجتن الأرستقراطي.

(١) توزيع العمل في
المجتمع الحاضر

هرنجتن : إنى أحتج على هذا القول ، وأقول إن ما بين المجتمعين من
فروق لأهم كثيراً مما بينهما من تشابه ؛ ذلك أن الطبقات في المجتمع
الأرستقراطي كما عرفت أنا تقابل ما فيه من كفايات ، فيكون للنجار
مواهب النجار ، وللبناء مواهب البناء ، وللكاتب مواهب الكاتب ،
وللطبيب مواهب الطبيب وهكذا حتى نصل إلى طبقة الحكام ، بحيث يكون
كل مواطن في هذا المجتمع صالحاً لكل الصلاح للعمل الذي ينبغي له أن
يؤديه ، وشاعراً بأنه صالح لكل الصلاح له ، وفيه تستخدم كل المواهب إلى
أقصى حد مستطاع خير الفرد وخير المجموع على السواء ؛ وبهذا يبلغ المجتمع
من الكفاية ، ويبلغ أفراد من الرضا ، أبعد ما يتصوره العقل . أما هذا المجتمع
الذي نعيش فيه فأمره مختلف عن هذا كله ؛ ذلك أن مركز الرجل لا تحدده
كفايته وحدها ، بل يحدده مع هذه الكفاية ثروته ، أو على الأصح إن
أكثر ما يحدده هو ثروته ؛ فقد يكون الرجل ذا موهبة رياضية أو طبية أو فنية
ولكنه يضطر إلى أن يعمل بيديه في الأعمال التي لا تحتاج إلى مهارة ؛ وقد
لا يكون له من المواهب أكثر من قوته الجسمية ، ولكنه يصبح مشرعاً في
مجلس الأعيان ، وذلك كله لأن مجرى حياته يحدده له مركز أبيه ، ولأنه
لا توجد أداة توفق بين مجرى حياته وبين مواهبه .

استيورت : لا شك أنك تبالغ في هذا كثيراً ، ولست أعرف أن المواهب
الطبيعية تبلغ حداً كبيراً من التخصص ، بل إن تجاري لتوحى إلى بأن في
وسع رجل متوسط الكفاية أن يؤدي أى عمل من الأعمال تقريباً ، وأن
يؤديه أداءً حسناً ، أما العباقرة الذين خلقوا لمتخصصوا في هذا العمل أو ذاك
فهم في رأيي قلة نادرة .

مارتن : وحتى لو كان هذا صحيحاً ، وليس في وسعي الآن أن أعرف مبلغ

صحته ، فإنه لا يغير من حجة هرنجتين . ذلك أننا إذا فرضنا أن معظم الناس (١) توزيع العمل في المجتمع الحاضر قد وهبوا قدرا وسطا من الكفاية ، وأنهم متساوون إلى حد ما ، فإن اختيار عدد معين منهم لأداء الأعمال الراقية ، وترك السكثرة الغالبة للقيام بالأعمال الدنيا ، لا يقوم على أساس معقول من النصفة والكفاية ، بل يقوم من غير شك على ظروف عارضة غير مستقرة هي ظروف الثروة أى مركز الآباء . والواقع أنه حتى إذا لم تبلغ الكفاية الطبيعية درجة كبيرة من التخصص ، فإن التجارب تدل بلا ريب على أن مقدارها يختلف باختلاف الأفراد . وإنا لنشاهد كل يوم في نظامنا الحاضر أفراداً قليلى الكفاية إلى حد يجعلهم موضع السخرية يشغلون مراكز عالية في المجتمع ، كما نرى رجالا من ذوى الكفايات العظيمة في ظروف لا تترك لهم مجالاً لتنمية كفاياتهم . استيورت : لكن أرباب الكفايات يرقون على الدوام إلى أعلى الدرجات ، والقليلى الكفاية يهبطون إلى أدناها .

مارتن : أسلم لك بهذا إذا شئت ، لكننى أضيف إليه أن هذا الرقى والهبوط يعوقه نظام الملكية إلى حد يجعل انطباق المنصب على الكفاية فى أية لحظة من اللحظات وفى أى جيل من الأجيال أمراً نادراً أو فى حكم المعدم . ولهذا فإنى بعد أن وافقت على ما وافقت عليه لا أزال متمسكاً برأى الأول فى هذه المسألة ، وهو أن المجتمع الذى نعيش فيه بوجه عام مجتمع مؤلف من طبقات وراثية ، لا تحددها القدرة والكفاية كما هو الشأن فى المجتمع الأرستقراطى ، بل يحددها المال .

هرنجتن : فهو إذن فى جملته صورة من صور الأجرىكية كما اتفقنا على ذلك من قبل ؟

مارتن : نعم . وفى وسعنا الآن أن نحدد هذه الصورة تحديداً أوفى وأنتم ،

(١) توزيع العمل في
المجتمع الحاضر

فنقول إن مركز الأفراد في هذا المجتمع تكاد تحددّه الثروة وحدّها ولا يحدّه أصلهم ، أشرفا كانوا أو رعا ، كما هي الحال في بعض أنواع الأجركية ، ومعنى هذا أن مجتمعنا مجتمع بلوتقراطي يسوده الأثرياء .

استيورت : إنه ليبلغ من الأرستقراطية ، أو على الأقل من البعد عن البلوتقراطية ، حدا يسمح بوجود نبلاء وراثيين .

مارتن : إن لدينا هذه الطبقة في إنجلترا ، ولكن شأنها آخذ في الاضمحلال ، وهي تقدر بثروتها أكثر مما تقدر بجاهها . نعم إن من حق الشريف في إنجلترا أن يجلس في مجلس الأعيان ، ولكنه لا مطعم له في النفوذ والجاه إلا إذا جمع بين لقبه وماله . ذلك أن إنجلترا بلد يسوده المال كما يسود المال أمريكا ، وكما يسود معظم البلاد الأوربية إلى حد ما .

هرنجتن : ذلك حق لا مرأ فيه ، وهو الذي من أجله أرى هذا العالم الحاضر عالما دينيا .

مارتن : إنى متفق معك على أن البلوتقراطية في أحسن أشكالها ليست صورة نبيلة من صور المجتمع ، ومع ذلك فإنها لا توجد بيننا في أحسن أشكالها .

استيورت : كيف هذا ؟

مارتن : أظن أن خير صورة من صور البلوتقراطية هي التي لا يوزع فيها الجاه والسلطان بين الناس على أساس ما يملكون من الثروة ، بل على أساس ما لهم من القدرة على كسبها وحسن القيام عليها .

هرنجتن : إنى أعتقد أن البلوتقراطية حتى بهذا الوصف الأخير نظام فاسد ؛ ذلك أن القدرة على جمع المال في رأبي موهبة خاصة لا تمت بصلة ما إلى العدالة والإنسانية وحب الخير ، بل إنها لا تمت بصلة إلى الذكاء بمعناه

الأوسع والأسمى ، وهي في حقيقة أمرها نوع من المسكر الدنيء المضاف إلى (١) توزيع العمل في موت الضمير . وإذا اتخذت هذه الغريزة المنحطة أهم سبيل إلى السلطة ، أو السبيل الوحيدة إليها ، فإن ذلك لا يمكن أن يؤدي إلى خلق مجتمع عادل أو متناسق أو صالح .

مارتن : ومع ذلك فليس ثمت مفر من الاعتراف بأن المجتمع القائم على هذا الأساس سيكون على الأقل مجتمعاً ينطبق فيه مركز المرء على كفايته ، حتى ولو كانت هذه الكفاية من النوع الدنيء . أما في مجتمعنا الحاضر فإن الذي يوصل الإنسان إلى الدرجات الرفيعة هو مجرد امتلاك الثروة لا القدرة على خلقها وحسن اقيام عليها ؛ والناس يجمعون الثروة بأكثر الوسائل بعداً عن العقل وأشدّها خضوعاً للمصادفات ، كالوراثة والهبة والمضاربات الموقفة ونحوها . ولذلك نرى الثروات الضخمة ينفالها ويبدها رجال لم يؤتوا من الكفايات ما يستطيعون به أن يكسبوا درهما واحداً ، على حين أن الكثيرين غيرهم ممن وهبهم الله القدرة على حسن تدبير المال لا تتاح لهم الفرص لإظهار قدرتهم . ولهذا نرى رجالاً من طراز ماركيز أنجليسي Marquis of Anglesea ^(١) يبددون الملايين ، وترى في القرى رجالاً لا يقلون كفاية عن كرنيجي Carnegie ^(٢)

(١) Marquis of Anglesea من النبلاء الإنجليز ، وكان مركز أنجليسي الأول Henry William Pagent ١٧٦٨ — ١٨٥٤ قائداً من كبار القواد البريطانيين اشترك مع ولنجت في الحرب ضد نابليون وأظهر براعة فائقة في واقعة ووترلو ، وأصيب فيها بجرح خطير استلزم بتر ساقه ، وعين في عام ١٨٢٩ حاكماً لأيرلندة ، وكانت له أسرة كبيرة مؤلفة من ثمانية أولاد وعشر بنات ، ولعله هو الذي يضرب به المؤلف المثل فيقول إنه يبدد ثروته وله هذا العدد الكبير من الأبناء .

(٢) أندرو كرنيجي Andrew Carnegie من أكبر رجال الصناعة وأعظم المحسنين الأمريكيين ، ولد في اسكتلندة من أبوين فقيرين في عام ١٨٣٧ وهاجر إلى

(١) توزيع العمل في روكفلر Rockefeller^(١) يكدحون وراء الحراث أو في جوف المنجم ولا من يراهم أو يعبأ بهم .

استيورت : إني لا أعتقد بوجود رجال من طراز كرنيجي وركفلر في الريف ، لأن هذا الصنف من الناس لا يستطيع أحد أن يمنعه من الظهور .

= أمريكا واشتغل بصناعة الصلب مع المستر بيرينت مورجن John Pierpont Morgan وجمع ثروة ضخمة لا تقل عن مائة مليون جنيه وهب الكثير منها للمنشآت العلمية وبخاصة دور الكتب في أمريكا وإنجلترا .

(١) John Davison Rockefeller الأب الأكبر وابنه John Davison Rockefeller الأصغر . صاحبا الملايين وملسا البترول في أمريكا ، ولد الأب في عام ١٨٣٩ في مدينة رتشمند ، وانتقل في سن الرابعة عشرة إلى مدينة كايقلند في أوهايو وتعلم فيها ، ثم اشتغل كاتباً في أحد البيوت التجارية وحصل في الثلاثة الشهور الأولى على خمسين ريالاً ، ثم زيد مرتبه إلى ٢٥ ريالاً في الشهر . وفي عام ١٨٥٨ ادخر من هذا المراتب ما يكفي للاشتراك مع زميل له في تأسيس بيت للسمرة . وفي عام ١٨٦٢ استطاع هو وشريكه أن يستمرا أربعة آلاف ريال في عمل جديد بالاشتراك مع صمويل أندروز الذي ابتكر طريقة اقتصادية جديدة لتنظيف الزيت .

ثم أخذ نجمه يتألق والحظ يبسم له واتسعت دائرة عمله ، ولم تمض عشر سنين حتى أصبح روكفلر صاحب السلطان الأكبر في صناعة البترول الأمريكية . وكانت صناعة البترول قبل روكفلر في حال سيئة من الفوضى والاضطراب ، تنقسمها شركات صغيرة ذات موارد ضئيلة ، تلتهم النار آبارها وتشند المنافسة بينها ، فنجح في توحيدها وتحسين الإشراف عليها وإدخال كثير من ضروب الإصلاح على عملها وتثبيت أركان منتجاتها .

وبفضل جده ونشاطه أصبح يشرف على ٩٠٪ من أعمال تكرير الزيت في الولايات المتحدة فضلاً عن اشتراكه في الأعمال الصناعية الأخرى كصناعة الصلب وغيره حتى صار أغنى أغنياء أمريكا ، بل ربما كان أغنى أغنياء العالم في التاريخ الحديث . وبعد أن جمع ثروته الطائلة أخذ يفكر في كيفية استخدامها لخير المجتمع ، فأنشأ في عام ١٩١٣ مؤسسة عظيمة للأعمال الخيرية في العالم كله ، ومن أكبر أغراضها مساعدة الحكومات على مكافحة الأمراض والتعليم الصحي .

واعتزل الأب العمل في عام ١٩١١ وترك لإدارته لابنه الذي سار فيه على سيرة أبيه . ويقال إن ما أنفق على الأعمال الخيرية حتى عام ١٩٢٧ يربى على مائة مليون ريال ، وهي أكثر مما أنفق عليها أي إنسان آخر في العالم . وفي عام ١٩٢٨ عرض روكفلر على مصر هبة قدرها عشرة ملايين ريال لإنشاء متحف للآثار بشرط لم تقبلها الحكومة وقتئذ . ولعل السكائب وهو يكتب هذا كان يفكر في مرثية جبراي Grey's Elegy الشهيرة .

مارتن : إن في هذا بعض الصدق من غير شك ، وإن في مجتمعنا الحاضر (١) توزيع العمل في المجتمع الحاضر من الشبه بخير أنواع البلوتقراطية بقدر ما في قولك هذا من صدق .

هرنجتن : أتقول خير أنواع البلوتقراطية ؟ إن شر ما يمكن أن يتهم به مجتمع ما أن يقال إن رجاله الذين لا يستطيع أحد أن يمنعهم من الظهور هم أمثال هذا وذاك ، وأنهم رجال لو أنهم كانوا في مجتمع حسن النظام لما قاموا فيه إلا بأحق الأعمال .

استيورت : لا تقس عليهم كل هذه القسوة ، فقد يكون حتى لصاحب الملايين فضائله ، وأرجو أن تسمح لي أن أقول إنني أعرف رجالا واسعي الثراء ولسكنهم مع ذلك لم يسلبوا كل نعمة الذكاء والاستقامة .

هرنجتن : عفواً . إنني لأعرف أنني قد عدت طوري في هذه النقطة ، فإن من المصادفات الحضة أن رذائل البلوتقراطية هي التي تثير غضبي وسخطي ، ولسكن إذا كان خليقاً بالإنسان أن يخضع إلى حكم العقل فإني أقر بأن من الأغنياء من يصلحون للحكم حتى في المجتمع الأرستقراطي .

استيورت : إنني أقبل هذا الاعتذار اللطيف ، ولسكني لا أقبل أن يوصف مجتمعنا بأنه مجتمع بلوتقراطي دون أن أعلق على ذلك بعض التعليق . إن الذي يلفت النظر فيه هو قوة الدهاء لا قوة الأغنياء ، ولست ترى هذه القوة في الحكومة وحدها بل تراها كذلك في كل الشؤون الاقتصادية . فمذا تقول مثلاً في أعمال نقابات الصناع ومطالبها ؟

مارتن : إن من الأمور التي أتمسك بها أن وجود الأجر كية يقبعه حتماً وجود الأقلقراطية ، ولهذا أعترف لك بأنه إذا حكم على مجموع الشعب بأن يقوم بأشق الأعمال وأبغضها إليه ، لا لنقص في كفايته بل بفعل المصادفات وحدها ، ولا ينال على هذا العمل إلا أقل الأجور ، فإن هذا الشعب يلجئاً حتماً ، ولا بد

(١) توزيع العمل في المجتمع الحاضر

له أن يلجأ ، وهو في الواقع يلجأ ، إلى القوة العددية يتخذها سلاح المقاومة الوحيد . ولست أكتفي بالاعتراف بهذا ، بل إنى أصر عليه وأدعوه . ذلك أنه لما كان الأساس الذي يقوم عليه نظام الطبقات أساساً خاطئاً معيباً من أوله إلى آخره ، فإنه يؤدي حتماً إلى الاحتسك والنزاع . وقد اعترف الاشتراكيون في أرض القارة الأوروبية بوجود هذا النزاع اعترافاً صريحاً ، ووضعوا قواعد وسموه حرب الطبقات . وإذا ما بدت هذه القواعد للإنجليز كأنها متطرفة متكلفة ، فإن كل بلد من البلاد سيجد فيها من الصدق ما يكفي لزعة كيانه المجتمع واضطراب توازنه في كل مكان . فلست بواجد قط في مكان ما شيئاً من التناقض والانسجام أو الاعتراف بضرورة الإنصاف ، بل إن الذي تجده جهود يبذلها الفقراء على الدوام للاعتداء على الأغنياء ، وجهود يبذلها الأغنياء ليدفعوا عن أنفسهم اعتداء الفقراء . وإذا لم يكن كل مجتمع في هذه الأيام مقسماً إلى معسكرين متعادين كما كان المجتمع مقسماً في عصر أفلاطون ، فهو مقسم إلى عدد كبير من المعسكرات المتعادية ، ونظام الملكية هو الذي تقع عليه تبعه هذا الانقسام .

استيورت : إن الذي أخشاه هو ما في المجتمع من عنصر الأقلراطية لا ما فيه من عنصر الأجركية .

مارتن : إنني أخشى الاثنين جميعاً ، ولكنني أرى أنه إذا وجدت الأجركية فإن السبيل الوحيدة إلى النجاة منها أن تقوم أمامها الأقلراطية ، وقد ينشأ من اصطدامهما نظام خير منهما معا ، إذا صحت عزيمتنا على الاستفادة من الموقف .

استيورت : ولم لا يؤدي هذا الاصطدام إلى نظام شر من النظامين ؟
مارتن : قد يحدث هذا إذا لم نحسن التفكير والعمل . والمرحلة الأولى

من مراحل هذا التمكيز وهذا العمل هي أن نرى بصورة واضحة حال المجتمع (١) توزيع العمل في الحاضر . لقد سميت أنا مجتمعاً بلوتقراطياً يسوده الأغنياء وسميته أنت مجتمعاً ألقراطياً يسوده الرعاى ، ولكن الحقيقة فى رأى أنه مزيج من النوعين كما قلنا من قبل ، وأن كلا العنصرين فيه يولد العنصر الآخر . أتقبل هذا الرأى الوسط ؟

استيورت : أقبله مؤقتاً
مارتن : ولنسأل بعد ذلك أنفسنا عن نوع النظام الذى نظنه خيراً من نظام مجتمعنا الحاضر مراعين فى ذلك هذه المسألة ، مسألة توزيع العمل . ولنبحث أولاً ، كما بحثنا من قبل ، أمر المجتمع الأرسقراطى المثالى ، فنطلب إلى هرنجت أن يدلنا على الطريقة التى يرغب أن ينظم بها الأمور إذا كان له أن ينظمها كما يريد .

هرنجتن : لقد شرحت ذلك من قبل حين قلت إن الأرسقراطية ستكون نظاماً مكوناً من طبقات وراثية ، وستكون من هذه الناحية شبيهة بمجتمعنا الحاضر ، ولكن هذه الطبقات ستعينها المواهب لا الثروة ، وسيطلب وجود المواهب المطلوبة فى كل طبقة من الطبقات وضع خطة علمية مقررلة لتربية الأطفال . ومعنى هذا أن توزيع العمل بين أفراد المجتمع سيكون مستقلاً عن توزيع الثروة فيه ، وسيقوم على أساس الصالح العام للمجتمع دون أى أساس آخر ، فالسلطات فيه هى التى تقرر أن المجتمع فى حاجة إلى هذه الطبقات من العمال أو إلى تلك ، وإلى هذا العدد أو ذاك من كل طبقة ، وسيدبر هذه الأمور كلها من يقومون بتنظيم شأن الزواج ، وإن يكون لنظام الملكية أى شأن فى هذه المسألة ، بل يكون العمل الوحيد لهذا النظام هو توزيع ثمار العمل

(٢) توزيع العمل فى المجتمع الأرسقراطى

(٢) توزيع العمل في المجتمع الأرستقراطي
مارتن : ذلك ما تصورت أنك ستقوله ، ولن أزيد عليه إلا بضع كلمات قليلة لأزيد به وضوحاً . ستكون طبقاتك بطبيعة الحال أكثر تحديداً وثباتاً مما هي في مجتمعنا الحاضر ، أليس كذلك ؟

هرنجتن : بلى ، ما في ذلك من شك . إن الأرستقراطية تعد ما يحدث في المجتمع أحياناً وبطريق المصادفة المحضة من انتقال بعض الناس من طبقة إلى أخرى أرق منها أو أدنى ، تعد هذا عيباً فيها لا ميزة لها ، وترى هذا الانتقال ثغرة تنفذ منها الفوضى إليها

مارتن : وأظنك تقول القول نفسه في تبدل الطبقات نفسها ، وفي تسكين طبقات جديدة كطبقة سائق السيارات التي نشأت حديثاً ، وفيما يحدث على الدوام من ظهور من جديدة لا حصر لها ، واختفاء من قديمة ، وما يقابل هذا من طبقات اجتماعية ، وكل هذا من المظاهر التي تلفت الأنظار في المجتمعات الصناعية ؟

هرنجتن : ليس الذي لا تطبيقه الأرستقراطية هو ما يطرأ على الطبقات من تغيير ، بل هو حدوث هذا التغيير بصورة عارضة مفاجئة ؛ وذلك أني لا أفترض كما افترض أفلاطون من قبل أن المجتمع الذي أريده سيكون حتماً مجتمعاً راقداً ، بل أتصوره مجتمعاً دائماً الرقي ، وكل ما في الأمر أن هذا الرقي تنظمه الحكومة وتشرف عليه . فإذا أدت مخترعات جديدة مثلاً إلى طرائق في العمل جديدة ، وتطلبت هذه الطرائق طبقات جديدة ، استحدثت هذه الطرائق الجديدة ، وأمدتها الساطات بما يلزمها من العمال . وبذلك يظل تطور المجتمع من أوله إلى آخره خاضعاً للإشراف الكامل الذي يمنع حدوث كل اضطراب وشقاء وكوارث ، وكلها من المظاهر العادية في مجتمعاتنا الحاضرة

مارتن : إن قولك إن الأرستقراطية في رقي مستمر رأى جديد لم يكن لي علم به ، وهو يفرق بين رأيك فيها ورأى أفلاطون ، ولكنه مع ذلك لا يؤثر في النقطة التي نغني بها الآن ، وهي أن الأعمال الرئيسية جميعها في المجتمع الأرستقراطي ، وبخاصة مناصب الحكم ، يعهد بها إلى أقلية ضئيلة وراثية . أليس كذلك ؟
هرنجتن : بلى هو كذلك .

مارتن : وإذن يكون كل ما نسميه ثقافة وتقديراً للفن ، إن لم نقل ممارسته ، وفلسفة وأدباً وعلماً ، وما تستلزمه هذه الأعمال من فراغ ونظرة إلى الأشياء ، يكون هذا كله وفقاً على الأقلية ؟
هرنجتن : نعم يكون الأمر في هذا كما هو الآن ، أو على الأصح كما يكون لو أن هذه قد غرست فيما يجد ونبل ، وكما هو على الدوام حينما غنى بغيرها وتعهدها .

مارتن : وبالعكس هذا تكون الكثرة الغالبة من الناس الذين تخصصوا في الأعمال الآلية الرتيبة غير راغبة في ممارسة الأعمال الراقية ، ولا قدرة لها على ممارسة هذه الأعمال ؟

هرنجتن : وهي لعدم رغبتها وعدم قدرتها عليها لا يسوءها قط أن تمنع عنها .

مارتن : إذن فأنت ترى أن المجتمع الأرستقراطي سيكون أكثر عدالة من مجتمعاتنا الحاضر ، وإن تسكن الفروق في الأول أكثر مما هي في الثاني ، وأن عدالته ستجعله أكثر انسجاماً ، وأن انسجامه سيجعله أكثر ثباتاً واستقراراً ؟

هرنجتن : نعم هذا ما أعتقد .

(٢) توزيع العمل في المجتمع الأرستقراطي
مارتن : إنني أقبل هذا الوصف الذي وصفت به المجتمع الأرستقراطي ، فهل تسمح لي بعد ذلك أن أصف مثلي الأعلى للديمقراطية من حيث علاقته بهذه المسألة بالذات ، مسألة توزيع العمل ؟
هرنجتن : أرجو أن تفعل ذلك .

(٣) توزيع العمل في المجتمع الديمقراطي
مارتن : أقول أولاً إن توزيع العمل في المجتمع الديمقراطي لن يكون على أساس توزيع الثروة ، بل على أساس آخر ، مثله في ذلك كمثل الأرستقراطية سواء بسواء وليس في وسعي أن أقول إن هذا الأساس هو المواهب العقلية ، لأن الديمقراطية كما قلنا من قبل لا تفعل ما تفعله الأرستقراطية فتنشئ الناس ليكونوا متخصصين في المواهب ، بل تنمّي كفاياتهم بوجه عام ؛ وإذا أقلحت في هذا فإن كل مواطن يصلح في الجملة ، ومن ناحية للمواهب ، لأي منصب من المناصب ، وبهذا يكون ما يعين له منصبه الذي يشغله والذي يُدرّب له شيئاً آخر غير مواهبه .

هرنجتن : وما هو هذا الشيء إذن ؟
مارتن : هو ملائمة العمل . إذ يجب أن يغرى المواطن على أداء العمل أيا كان نوعه ، وأن يهيباً له بطريقة ما .

استيورت : لست أرى كيف يختلف المجتمع الديمقراطي من هذه الناحية عن مجتمعتنا الحاضر ، لأنني أظن أن كل عمل يقوم به الناس في هذا المجتمع إنما يقومون به لأن الناس الذين يصلحون لأدائه في حاجة إليه .

مارتن : يكون الفرق في نوع المغريات التي يغرى بها العامل . إن العمل السكريه كله يؤدي في وقتنا الحاضر لأن كثرة الناس لا تسنح لهم الفرصة لأن يعملوا غيره ، فهم إما أن يعملوه وإما أن يموتوا جوعاً . أما في الديمقراطية ، حيث يجب أن تتساوى الفرص وتكاد تتساوى الكفايات ، فإما أن يكون

ثمة شيء من الإكراه المباشر يرغب به كل فرد على أداء قسطه من العمل (٣) توزيع العمل في المجتمع الديمقراطي الشاق الواجب أدائه، وإما أن يكون ثمة إغراء خاص كالأجر المرتفع أو الفراغ والشرف، يغري به الناس على القيام بالعمل غير الجذاب في ذاته . ومهما يكن من شيء فإنني أرى أن لا مفر في المجتمع الديمقراطي من أن ينظر إلى هذا النوع من العمل على أنه مساوٍ في المنزلة لغيره من الأعمال ، إن لم يعد أرفع من غيره منزلة ، وألا يحقر من شأنه كما هي الحال في مجتمعنا الحاضر . هرنجتن : إنني أرى بوضوح أن هذا نتيجة لازمة للمبدأ الذي وضعته ، وهو بوضوح النقطة بعينها التي اختلف معك فيها .

مارتن : أية نقطة ؟

هرنجتن : إن الذي أعنيه هو أن أعظم شيء في نظري هو « الفضيلة » بمعناها الذي كان يفهمه منها الوثنيون والمسيحيون ، أي العظمة ونبالة الخلق والعقل والجسم . ولست أدري كيف تستطيع طبقة أن تحصل على هذه الصفة وتحفظ بها في عالم كعالمنا هذا إلا طبقة تعيش من كد غيرها من الطبقات ؛ ذلك أن الأعمال اليدوية والحرف والتجارة ، مهما كانت جديرة بالاحترام ، تعمل على انحطاط الجسم أو الروح أو كليهما بدل أن تنميها وترفع من شأنهما . وليس هذا الحكم أقل انطباقاً على العالم الحديث منه على العالم القديم ، بل إنه قد يكون أكثر انطباقاً على الأول منه على الثاني . نعم إن الرق لم يعد له قيمته وجود ، ولكن لدينا بدلاً منه توزيع العمل ، ولدينا الآلات . وأنى رقى أو نماء في الجسم أو العقل يتاح للإنسان يعمل ستة أيام في كل أسبوع ، وثمانى ساعات في كل يوم ، يجذب رافعة ، أو يدير عجلة ، أو يضع ورقة فوق ورقة ، أو يرتب أحرف الطباعة في عيون ، أو يقوم بعمل من مئات الآلاف من الأعمال الهينة المعلة التي قضى على

(٣) توزيع العمل في
المجتمع الديمقراطي

السكرة الغالبة من الناس في هذه الأيام أن توجه إليها كل نشاطها ، فيقضى الفرد حياته في القيام بعملية واحدة متكررة لا نفع فيها ولا قيمة لها في ذاتها ، وإنما تكسب قيمتها باتصالها بغيرها من العمليات الأخرى التي لا حصر لها ، والتي تقوم بها جماعات متفرقة من العمال الإخصائيين ، لا يدرك أحدهم شيئاً من العمل النهائي الذي يساعد على إنتاجه ، ولا لذة له فيه ، بل يكدر وهو جاهل بأئس منقبض الصدر لإنجاز العمل المفروض عليه ، ولا يخفف من انقباضه نشوة النفس حين تدرك حقيقة ما تعمل ، ولا شغفها بالابتكار والإبداع ، ولا اغتباطها حين تظفر بإنجاز واجبها ؟ وليس هؤلاء من الفنانين أو مهرة الصناعات ، ولكمهم في حقيقة أمرهم أرقاء بحكم القانون ، مستعبدون بأجسامهم ونفوسهم . نعم إنهم لا يسيطرون عليهم سادة من بني الإنسان ، ولكن الذي يسيطر عليهم هو ذلك الوحش الضار الذي لا يرحم ولا يلين ، أشد الأسبياد قسوة وأكثرهم طغياناً وظلماً ، ألا وهو الآلة الصماء . ألا هل تتفق هذه الأعمال مع الحياة النبيلة السامية ؟ وهل خير منها أن يتركها أصحابها إلى التجارة ؟ وإذا لم نذكر إلى جانب هؤلاء جيوش الكتبة والعمال على الآلات السكتية ، الذين لا يقلون انحطاطاً في عملهم عن القائمين على الآلات ، فما هو العمل الحقيقي الذي يؤديه الرؤساء أنفسهم ؟ أليس عملهم الدائم هو التوسل بكل حيلة دينية لكي ينتزع كل منهم أقصى ما يمكن أن ينتزعه من زميله ومن الجمهور ؟ أليس سلاحهم المقرر في حربهم الدينية هو الكذب والغش ، يسمونهما باسم الإعلان والمنافسة ؟ أليست قاعدتهم الأساسية أن « العمل عمل » ؟ وهل لهذه القاعدة معنى غير أن العمل لا يعرف الإخلاص ولا الشرف ولا الوفاء ؟ وهل تجد الفضيلة سبيلاً إلى نفوس هؤلاء الناس الذين يعملون في مثل هذه الأعمال ؟ وهل هي مستطاعة

حقاً حتى لأصحاب المهن الفنية ، التي سميت منها بحق لأن أصحابها قد اهتمنوها ؟ (٣) توزيع العمل في المجتمع الديمقراطي إن الدفاع عن قضية العدالة عمل نبيل ، ولكن عرض العلم بالقانون في سوق التجارة وبيعه لمن يشتريه بأعلى ثمن دون مراعاة لقواعد الإنصاف هو أدنى صورة من صور الاتجار ؛ وإن مداواة المرضى لمن أعمال الرحمة والبر بالإنسانية ، ولكن تدليل المرضى الأثرياء للحصول على الأجور منهم ، واللجاج والمساومة مع الفقراء لابتزاز دريهماتهم ، تحقير فن الطب وإنزاله منزلة أدنى أنواع التجارة . وكلما كان الناس مرغمين على كسب قوتهم ، وإنما كانوا مرغمين على كسبه ، عملوا بطبيعة الحال لكسبه ، بعضهم وهم القلة بالغش والاحتيال ، والكثيرون منهم بالسكدح الشاق المذل ، وليست الفضيلة بالتي نتاح لمثل هؤلاء الناس . واسمحوا لي أن أقول بصراحة إن الفضيلة غير ميسرة إلا للذين يأخذون قوتهم أخذاً ، ولا يعملون للحصول عليه ، أعني لطبقة ممتازة تعيش من كد غيرها ، وتجازيهم على ذلك جزاء حقاً منصفاً في نظري وهو أن تحكمهم حكماً عادلاً ، وترقى العلوم والفنون ، وهما المظهر الطبيعي لعظمة الشخصية . وهذه الطبقة وحدها هي التي تجعل لأعمال البشر الشاقة السيسفية^(١) المعلة معنى وغاية . ومع أن كثرة الخلق لا يشتركون بأنفسهم في هذه الأعمال الجليلة النبيلة ، فإنهم في حقيقة أمرهم أسعد وأحسن حالاً ، أو أنهم يسرى فيهم شعور غامض بالسعادة ، لأن هذه الزهرة اليانعة النادرة التي تزدهى بها شجرة حياتهم تمنع هذه الحياة الشاقة المنحطة أن تكون كلها عبثاً وسخفاً . أما أنت فإنك إذ ترغم الناس جميعاً على أن

(١) Sisyphæwn العمل السيسفي العمل المل الشاق الذي لا آخر له . والكلمة مشتقة من سيسفس وهو ملك من ملوك كورنثة في اليونان ، تقول الأساطير اليونانية إنه حكم عليه أن يدحرج حجراً ضخماً إلى أعلى الجبل ، فكان كلما دحرجه قليلاً إلى أعلى عاد فتدحرج إلى أسفل .

(٣) توزيع العمل في
المجتمع الديمقراطي

يتركوا في أعمال الحياة الشاقة المملة ، تحول إلى الأبد بين هذه الشجرة وبين الازدهار ، أى أنك تضحي بالتفوق في سبيل العدالة ، وتسوى بين الناس في كدحهم الخسيس الدنيء ، ولا يكون لهذا السكدح ثمرة يتأملها الإنسان جميله طيبة في ذاتها ، ولا نتيجة غير الخبز اليومي الذي لا يربحي منه نفع ، إلا أنه يمكن العاملين المسكدودين من أن يحتفظوا بقواهم ليمدأوا كدحهم في اليوم التالي . وما من سبب يدعوني لنبذ الديمقراطية إلا أن هذه نتيجتها المنطقية . وكل مجتمع له في نظري قيمة ما لا بد أن يشتمل على الرونق والبهاء ، والفخامة والجمال والنبيل ، مهما يكن الثمن الذي تشتري به هذه الصفات التي أحتم وجودها فيه ولو ضحيت في سبيلها بالعدالة نفسها ؛ وإذا لم يكن في وسعك أن تداني على مجتمع ديمقراطي تستطيع أن تضمن وجود هذه الخلال الطيبة فيه ، فإني أختار الإنسانية النظام الأرستقراطي ، أختاره عن قصد وأنا في هذا الاختيار مطمئن مرتاح الضمير .

استيورت : من لنا بالرجل الساذج ليقف في وجه سوورة الفيلسوف ؟ إن في الصورة التي صورت بها الخال النفسية لطبقات العمال وأصحاب المهن شيئاً قليلاً من عدم الإتقان والدقة ، ولست أقول إننا قديسون وأبطال أو فلاسفة أو شعراء ، ولسكني أقول إن لنا مع ذلك فضائلنا المتواضعة ومقاييسنا الخلقية ؛ ولسنا جهلاء كل الجهل ، ولسنا دون غيرنا أنانيين أو سفلة خائنين ، بل أوكد لك أننا في باطن أمرنا خير مما نبدو في ظاهره .

هرنجتن : إن الطبقة التي تنتمي إليها لمن أكثر طبقات رجال الأعمال تنمعاً بالفراغ ، أى من أرفعها مقاماً ، وأعظمها ثقافة ، ومع ذلك فإنك أنت الرجل الذي سمعت منه أغرب ما سمعت من الشواهد على اضمحلال العالم التجاري من الوجهتين العقلية والخلقية .

استيورت : هل بلغ من أمرى أن أفشى على غير علم منى أسرار الطبقة (٣) توزيع العمل في المجتمع الديمقراطى التى أنتمى إليها؟

مارتن : ليس من المستطاع يا عزيزى استيورت أن نضعك أنت ضمن طبقة من الطبقات ، فلسنت متصفاً برذائل أية واحدة منها ، وأنت إذا أخذت هرنجتين على غرة رأيته مستعداً للاعتراف بأن فى الناس كثيرين من أمثالك ؛ غير أن الاتجاه العام الذى يؤدى إليه العمل الآلى والعمل فى المهن وفى الصناعة والتجارة هو الذى وصفه ، وإن كان من الناس من يفلحون فى مقاومة هذا الميل ويتجهون بأنفسهم غير هذا الاتجاه . وإنك وأنت تسير بين الناس وفيك هذه الإحساسات الطبيعية الرحيمة قد يخفى عليك هذا الاتجاه ، ولسكنك لو اتخذت لنفسك موقفاً بعيداً عنهم متمسكاً بمثل من المثل العليا ، لبدا لك أن الصورة التى رسمها هرنجتين ليس فيها كثير من المغالاة .

استيورت : إن هذا النقاش ليدانى على أن وقفة الإنسان عند مثل من المثل العليا تراه كل شىء فى غير نسبه الحقيقية .

مارتن : سواء كان هرنجتين مسرفاً فى التهمة التى يوجهها إلى المجتمع بشكله الحاضر أو غير مسرف ، فإنى أرجو أن أبين لكما أن الأمور فى مجتمعى الديمقراطى تكون خيراً منها فى مجتمعنا الحاضر ، ويبدو أن كل ما أقوله موقوف على الجواب عن هذا السؤال ، وهو : هل العمل المجهد الضرورى للمجتمع مما يحط حتماً من شأن صاحبه ؟

هرنجتين : إنى أعتقد أنه يحط من شأنه من الوجهتين الجسمية والعقلية ، وتلك هى البلية الأولى التى ابتلى بها الإنسان ؛ وكل ما بذله رجال الأخلاق من جهود لتحويل هذه النعمة إلى نعمة ليس إلا سفسطة وانغواء ، وإن الذين

(٣) توزيع العمل في المجتمع الديمقراطي
يتحدثون عن شرف العمل لهم الذين يقفون من بعيد ينظرون إليه ولا يكابدونه بالفعل . ألم تدلنا التجارب كلها على أن الفرض الذي يسعى إليه كل إنسان هو ألا يكون مرغماً على العمل بيديه ؟ وفي وسع الإنسان أن يقول إن النظام الاجتماعي بأكمله هو نتيجة تفاعل هذين العاملين ، وهما الإرغام على العمل والجهود التي تبذل للفرار منه ؛ وليس من الناس من عاش عيشة حرة نبيلة إلا أولئك الذين لم يرغبوا على السكد لكسب قوتهم ، أما من عداهم فقد أتلفهم العمل وشوهمهم

مارتن : ولكن أليس حقاً أيضاً أن كثيرين من الناس يعملون إلى العمل ليتخذوه تسلياً لهم ؟ فمنهم من يعمل في التجارة ، ومنهم من يعمل في الحديقة ، ومنهم من يعمل في تجليد الكتب ، وما إلى ذلك من الأعمال التي يقومون بها للذة والتسليّة .
هرنجتن : ذلك عمل من نوع آخر .

مارتن : هذا صحيح ، ولكن من أين جاء الفرق ؟ . إن العمل واحد ، وكل الفرق في ظروف العمل ، فالرجل في هذا النوع يعمل حين يجب ، وكما يجب ، وهو يعمل للذة هو لا خضوعاً لإرادة سوق مستبد ، وهو يمتنع عن العمل متى تعب ، ويواصل العمل متى رغب في مواصلته . وهل ثمة شك في أن هذا العمل الذي يعمل به الإنسان بمحض حريته لا يحط من شأن صاحبه ؟

هرنجتن : كلا ، ولكنك اخترت أمثلة فيها عنصر من عناصر الفن ، وليست هذه حال معظم العمل الذي لابد من أدائه ، وبخاصة في هذا الوقت الذي تسيطر فيه الآلات على ظروفه . وهل في الناس من يسلي نفسه بتنظيف المجارى أو كنس الشوارع أو بالعمل أمام آلة في مصنع ؟

مارتن : إني أعترف صراحة بأن كثيراً من العمل الضروري لا يستطيع (٣) توزيع العمل في جعله لذيذاً أو مرغوباً فيه لذاته ، ولكنني أعتقد أن من المستطاع تخفيف عبء هذا العمل تخفيفاً كبيراً إذا وجه الناس عنايتهم إلى هذه الغاية .

استيورت : إنهم يوجهون عنايتهم إليها بالفعل ، وهل للاختراعات الآلية غرض غير هذا ؟

هرنجتن : مبلغ علمي أن غرضها الوحيد هو أن تدر المال على بعض الناس . وإني لأرتاب في أن شيئاً قد اخترع ، أو أن اختراعاً قد استخدم ، بقصد تخفيف أعباء العمل عن العاملين . فحينما كان « الربح » — ذلك اللفظ الكريه — في استخدام كتل من العمال غير المهرة بدل الآلات المتقنة الكثيرة النفقة ، استخدم العمال دون تردد ؛ ولم يفكر أحد أو يُعْن أحد عند اختراع الآلات واستخدامها في نوع العمل الذي تتطلبه إدارتها ، وما فيه من قسوة وإرهاق وكآبة وإنهاك الجسم وما إلى ذلك ، بل كل ما يعنى به هو ما تتكلفه إدارتها من نفقات ؛ ومن أجل ذلك قال جُن استيورت مل John Stuart Mill (١) — وهو على حق في قوله — إن كل مخترعاتنا الآلية مجتمعة لم تخفف شيئاً من عبء العمل الذي يتقبل كاهل فرد واحد من بني الإنسان .

استيورت : إني أنكر هذا كله .

مارتن : ولكنك أنت وهرنجتن قد تكونان على استعداد لأن تقرآ إلى

(١) John Stuart Mill (١٨٠٦ — ١٨٧٣) الكاتب والفيلسوف وعالم المنطق والاقتصاد الشهير . كان أكبر أبناء جيمس مل . وكان أول مانشر من كتبه الناجحة كتابه في « المنطق » في عام ١٨٤٣ . ثم نشر بعد ذلك كتابه في الاقتصاد السياسي في عام ١٨٤٨ . وفي عام ١٨٦٥ اختير نائباً عن وستمنستر في مجلس النواب . وفي عام ١٨٧٣ نشر سيرته التي تعد نموذجاً للسيرة الشخصية التي كتبها أصحابها . وله عدا هذه الكتب عدة كتب أخرى سياسية واجتماعية منها « آراء في الحياة النيابية » « آراء في الإصلاح البرلماني » . وربما كان خير ما عني به من كتبه كلها كتابه المسمى « مقال عن الحرية » الذي نشر في عام ١٨٥٩ . وبعد جن استيورت مل حجة في الاقتصاد السياسي .

(٣) توزيع العمل في
المجتمع الديمقراطي

— ولهذا الإقرار أهمية كبرى في بحثي — أنه لو كان ما بذل من الذكاء والصبر في اختراع الآلات « المقتصدة للعمل » قد بذل مثله في معالجة مشكلة الاقتصاد الحقيقي في العمل ، لأمكن تخفيض كمية العمل الشاق تخفيضاً كبيراً ، وإن لم يكن في الاستطاعة القضاء عليه كله ؛ والسبيل إلى هذا التخفيف هي الجمع بين المبتكرات الآلية وتعديل النظم الاجتماعية القائمة في مجتمعنا الحاضر . هرنجتين : ومع ذلك فلا بد أن تترك بقية كبيرة من هذا العمل ، ولا بد أن يُستخدم فيها معظم الناس استخداماً آلياً كالرقيق .

مارتن : فليكن هذا إذا أصررت على استخدام هذه العبارات الشديدة ، لكن الأشخاص الذين يستخدمون في هذا العمل في ظل النظام الديمقراطي قد لا يكونون حتماً ذوى طبائع كطباع الرقيق ، فقد يكونون ذوى كفايات طبيعية صالحة ، متعلمين متعودين أن يصرفوا جزءاً كبيراً من وقتهم في الأعمال الحرة الطليقة ، وليس من الحتم في هذه الحال أن تنحط أجسامهم وأرواحهم وأخلاقهم من جراء قيامهم بهذا العمل المجهد ، وأقصى ما يمكن أن يخسروه هو الساعات التي يقطعونها من أعمال أخرى ، أعظم لذة وأكثر نبلا من هذا العمل .

هرنجتين : لا أنكر أن هذه ستكون ظروفًا مخففة .

مارتن : ولننتقل بعدئذ إلى النقطة الأخرى التي ذكرتها وهي ما في الأعمال التجارية وما في المهن من احتمال ونقص في الأمانة . لقد كنت في رأيي قاسياً بعض الشيء على تلك الأعمال حتى في نظامها الحاضر ، ولكنني لن أشكو من هذا ، وكل ما أقوله رداً عليه إن العمل في هذه الحال ليس منحطاً في ذاته ، بل إن الانحطاط ناشئ من الأحوال التي يؤدي فيها . ولنفرض مثلاً أن جميع هذه الخدمات ، أو ما قد يبقى ضرورياً منها ، لا يؤديها ، كما

تؤدي الآن ، أفراد يعملون متنافسين ، يكافحون في سبيل الحياة أو الموت (٣) توزيع العمل في المجتمع الديمقراطي في هذا المستوى المنحدر الذي قد يهوى بهم إلى الهلاك والدمار ، وهم يقتتلون على الدوام لينالوا أكثر مما يحتاجونه ، لسكيلا يضطروا إلى أن يقبلوا أقل مما يحتاجونه ، ويتزاحم على كل عمل من الأعمال أكثر ممن يتسع لهم هذا العمل ، وليست شروط النجاح هي القدرة والجدارة دون غيرها ، ولعلها تكون هذه الشروط هي الأمانة والاستقامة اللتين قد تكونان من عوامل الخيبة ، بل كل ما يحتاجه النجاح هو ذلك الفن الغريب الخفي في ذاته الذي نسميه « الجرأة » : لنفرض أن هذه الخدمات لا تؤدي بهذه الطريقة بل أصبحت كلها يقوم بها أشخاص يتقاضون مرتبات ثابتة ما داموا يؤدون عملهم على الوجه الأكمل ، ألا تسقط في هذه الحال جميع التهم التي اتهمتها بها من نفسها وتتهار من أساسها ؟ ألا يصبح مسلك من يعملون فيها جديراً بالإعجاب ؟ ألا تبلغ حالتهم العقلية من الاستقامة ما تبلغه الآن حالة موظفينا العموميين في الهند ومصر ؟

هرنجتن : أقر لك أن ذلك قد يكون .

مارتن : إذن فأنت توافق على أن التضاد الذي ذكرته بين الفضيلة والعدالة ليس نهائياً ولا مستعصياً على العلاج ، وأن من المستطاع أن نتصور المجتمع وقد نظم بحيث يقوى على تحمل جميع أعباء العمل المجهد ، ويترك لأفراده في الوقت نفسه من الفراغ ومن القدرة ما يمكنهم من أن يحيوا حياة شريفة نبيلة .

هرنجتن : أظن أن ذلك مما يستطاع تصوره .

مارتن : إن قدرتنا على تصوره لا تقل عن قدرتنا على تصور مجتمعتك الأرستقراطية على الأقل . إن في وسعك على كل حال أن ترى ذلك الطراز

(٣) توزيع العمل في المجتمع الديمقراطي

من المجتمع الذي أفسر فيه والذي أسميه مجتمعاً ديمقراطياً . إنه سيكون مجتمعاً لا يهدف فيه إلى الناس بأعمالهم المختلفة ، كما يهدف بها إليهم في أغلب الأحيان ، بتلك الطريقة التي تقضى عليهم ، طريقة توارث الامتيازات أو طريقة الإرغام من قبل السلطات العامة كما هي الحال في مجتمعك الأرستقراطي ؛ بل إن هذه الأعمال سيختارها العاملون فيها اختياراً حراً قدر المستطاع ، لما تعرضه عليهم من عوامل الإغراء ؛ وستكون كل الأعمال في الواقع ، لا من حيث المبدأ فحسب ، مباحة لجميع الناس على السواء . وسيكون من نتائج هذه الحرية في الاختيار ، بصرف النظر عن كل ما عداها ، ألا تكون ثمة طبقات اجتماعية وإن وجدت أعمال ومهن مختلفة ، وسيكون من نتائجها أيضاً على الأرجح شيء كثير من التنقل في العمل ، لأن معظم الناس سيصلحون لأن يرقوا إلى معظم المناصب ويتنقلوا في أثناء حياتهم في عدد كبير من الأعمال . استيورت : وكيف تريد أن نشيء مجتمعاً من هذا الطراز ؟

(٤) توزيع ثمار العمل في المجتمع الحاضر

مارتن : إن هذا السؤال يؤدي بي إلى الكلام على النقطة التالية في هذا البحث ، ولعلها أصعب النقطة وأهمها وهي توزيع ثمار العمل . استيورت : إن هذه النقطة تتضمن مشكلة الاشتراكية والفردية من جميع نواحيها .

مارتن : نعم ، وعليها من بادئ الأمر أن نطرح جانباً كل ما لدينا من آراء سابقة ، ومبادئ مقررة ، وقواعد وألفاظ فنية محفوظة ، وأن ننظر إلى المسألة نظرة جديدة قدر المستطاع ، ونعالجها في الصورة التي تعرض لنا في أثناء جدلنا عرضاً طبيعياً غير متعمد .

استيورت : فليكن هذا إذا استطعنا إليه سبيلاً .

مارتن : وهل لنا أن نبدأ كما بدأنا من قبل بالفكر في مجتمعنا الحاضر

(٤) توزيع ثمار العمل
في المجتمع الحاضر

قبل أن ننتقل إلى وضع ما نريد من النظم الجديدة ؟
استيورت : ليكن هذا إذا شئت .

مارتن : إذن ما هو المبدأ الذي يحدد بالفعل توزيع ثمار العمل في مجتمعنا هذا ؟
استيورت : أعتقد أن هذا هو مبدأ القدرة على العمل ، فالإنسان بوجه عام
ينال ما يستحق أن يناله .

مارتن : ماذا تعنى بقولك « يستحق » ؟ هل تريد أن تقول إنه يكسب
ما يحصل عليه ؟

استيورت : نعم بوجه التقريب .

مارتن : لكن الذى نعرفه كلنا من بادية الأمر أن كثيرين من الناس (١) تورث الثروة
يحصلون على ما لا يكسبون ، فليس أحد من الناس يكسب ما يرث
أو ما يوصى له به .

استيورت : لا شك فى هذا ولكننى لم أكن أفكر فيه .

مارتن : فلنفكر فيه أولاً ، ولننظر إلى هذا القدر الضخم من الثروة الذى
يوزع بين الناس من غير مراعاة لعملهم أو لاستحقاقهم . ولست أدري كم
مليوناً من الجنيهات تنتقل بين الناس بهذه الطريقة ، ولكن هذا القدر
ضخم من غير شك ؛ وإن وجود طبقات وراثية إلى حد كبير أو قليل فى
مجتمعنا الحاضر ، وانقسام المجتمع انقساماً دائماً إلى طبقات غنية وأخرى
فقيرة ، وبالجملة إن الصبغة البلوتقراطية الغالبة على مجتمعنا الحاضر ، إنما تنشأ
من نظام توزيع الثروة بهذه الطريقة . على أننا لسنا الآن بصدد البحث
فيها من ناحية عواقبها ، بل إننا نريد أن نتعرف المبدأ الذى يقوم عليه هذا
النظام ، فماذا نسمى هذا المبدأ ؟ لا شك فى أنه ليس مبدأ الجدارة ، ونعنى
بمبدأ الجدارة أن كل إنسان يكسب بحقوق ما يناله فعلاً .

(١) توريث الثروة : استيورث : وهل نحن في حاجة إلى مبدأ غير مبدأ الملكية العام ؟ إن من حق كل إنسان أن يتصرف فيما يملك ، ومن حق الرجل الذي يعطى شيئاً أن يأخذه .

مارتن : ذلك حقه الشرعي بطبيعة الحال وفق نظامنا القانوني ، ولكن هذا النظام نفسه هو الذي نناقشه ونضعه موضع الاختبار ، فنحن نبحث فيما يبرر وجود هذا النظام .

استيورث : أظنك واجداً ما يبرره فيما على الإنسان من تبعة لأولاده ، فهو يخرجهم إلى هذا العالم ومن حقهم عليه أن يعولهم .

مارتن : تعنى أن يعولهم حتى يكون في مقدورهم أن يعولوا أنفسهم ؛ ففي كل بلد تلقى فيه هذه التبعة على كاهل الآباء ، يكون مما يتفق مع العقل ومع العدالة معاً أن الأطفال إذا تيمموا وكانوا لا يزالون صغاراً لا يستطيعون أن يعولوا أنفسهم ، وإذا كان منهم من هو في حاجة دائمة إلى من يعوله لسبب من الأسباب ، إذا كان هذا أو ذاك فالواجب أن يخص من ثروة الأب ما يفي بحاجة الأبناء في الحالتين . لكن أحداً لا يشك في أن تسليمنا بهذا ليس فيه ما يبرر قانون الوراثة بصورته الحاضرة ، وبخاصة قانون الوراثة الإنجليزي . ذلك أننا في هذه البلاد لا نرغم الأب على أن يترك شيئاً من ثروته حتى لأضعف أبنائه وأكثرهم عجزاً عن الكسب ، بل نسمح له إذا شاء وصادف ذلك هواه أن يترك الملايين للغرباء ، وأن يترك أبنائه تعولهم السلطات الدينية . ومبلغ علمي أنه لا يوجد بلد من البلاد حاول المسيطرون على شؤونها أن يقصروا نظام الوصية فيه على الغرض الذي تقترحه الآن ، فالرجل في البلدان التي يحتم فيها عليه أن يورث أبنائه جزءاً من ثروته ، يرغم على تركه لهم سواء كانوا في حاجة إليه أو لم يكونوا ، وسواء كانوا أطفالاً

أورجالا ونساء ، وسواء كانوا أغنياء أو فقراء . وقانون الوصية القائم الآن (١) توريث الثروة لا يحقق في حالة الأقلية المثرية الغاية التي تقول إنها المبرر الوحيد لوجوده إلا عرضاً وبطريق المصادفة المحضة ، إذا جاز أن نستخدم هذا التعبير . أما في حالة السكثرة الغالبة من الشعب التي لا مال لها توصى به ، فإن هذه الغاية لا تتحقق قط إلا عن طريق المساعدات العامة أو الصدقات الخاصة . وإذا كان حقاً أن نظام الوصية والوراثة لا يبرره ما ذكرت ، فالواجب أن يغير القانون من أساسه ، لنضمن بذلك من جهة تحقيق الغرض الذي نرمى إليه من جرده ، ولنمنع من جهة أخرى تبيد الثروة فيما لا يؤدي إلى هذا الغرض . وما دام من حق ذى الملايين أن يحرم كل أطفاله ثروته ، ويوصى بتلايينه إلى أحد المعتوهين أو المجرمين الذي لا تجمعهم به صلة من صلات القرابة ، مادام ذلك من حقه فليس في وسع أحد أن يدافع عن هذا القانون بصورته الحاضرة دفاعاً يستند إلى ما ذكرته من الأسباب .

استيورت : أظن أن في وسع الإنسان أن يدافع عنه بحجة أننا إذا لم نسمح للشخص بأن يتصرف في ماله كيف شاء امتنع عن العمل لكسبه ، وخسر المجتمع بذلك جهوده .

مارتن : لا شك أن في هذا بعض الحق ، وإن كان يصعب على الإنسان أن يعين مقدار هذا الحق ؛ وسيكون علينا فيما بعد أن نبحث في نظامنا القائم من ناحية أثره في الإنتاج . أما الآن فإنني مع تسليمي لك بهذه النقطة أراني مضطراً إلى القول إن مجتمعتنا الحاضر يسمح في سبيل التشجيع على إنتاج الثروة بأن يكون التصرف في جانب عظيم منها قائماً على غير مبدأ معروف . فهو وإن قام في بعض الحالات على ما يمكن أن يكون حكمة وصواباً ، قد يكون أيضاً ، وكثيراً ما يكون ، في حالات أخرى قائماً على هوى

(١) توربث الثروة الفرد الذي يملك الثروة وعلى زرعاته وهو واجسه . ألت مرعماً على هذا القول إرغاماً ؟

استيورث : أعتقد أن التصرف في الثروة يكون عن حكمة وصواب أكثر مما يكون عن هوى وهو اجس .

مارتن : ألت أربد أن أصدر في هذا حكماً قاطعاً ، ولكنني أقول إنه سواء كان هذا أو ذاك فإن الذي لا شك فيه أن قانون الوراثة والوصية ، بالصورة التي هو ساريها الآن ، أعظم مصدر لما بين الناس من فروق ، بل إنه في الحقيقة المصدر الوحيد لهذه الفروق ، وإننا إذا شئنا حقاً أن نتخلص منها وجب علينا أن نعدل هذا النظام أو نلغيه الغاء .

استيورث : أظن أن ذلك صحيح .

(ب) الربيع

مارتن : حسبنا هذا عن ذلك الجزء من الثروة الذي يوزع بهذه الطريقة . ولننتقل الآن إلى نقطة أخرى . إن جانباً كبيراً من ثروتنا يتخذ شكل الربيع^(١) أليس كذلك ؟ وأنا أستخدم هذا اللفظ بمعناه الاقتصادي الدقيق لا بالمعنى الذي يفهم منه في الأعمال التجارية والصناعية أو في حديث الناس العادي .

استيورث : أفهم هذا .

مارتن : الربيع إذن ، كما يستفاد من تعريفه ، شيء لا يكسبه من يأخذه ، بل هو ما يستطيع أن يفتصبه من غيره من الناس ، لأنه يمتلك شيئاً يحتاجونه ولا يستطيعون أن يحصلوا عليه من أحد غيره . وخير مثل لهذا هو ربيع

(١) الربيع عند الاقتصاديين هو ذلك الجزء من الثروة الناتجة الذي يطلبه صاحب الأرض لنفسه في نظير أرضه ، أو الثمن الذي يؤدي له نظير الارتفاع بأرضه . ويستعمله المؤلف فيما بعد بمعناه الواسع ، وهو حصة الطبيعة في الإنتاج . ويؤثر في ربيع الأرض الزراعية عاملان طبيعيان هما خصب تربتها وحسن موقعها .

أرض المدن ، ولكن هذا العنصر إذا حلل تبين أن له صلة من أعقد الصلات بالأرباح الناتجة من مشروعات لا حصر لها ؛ بل إننا لا نخطئ إذا قلنا إن المهن الفنية نفسها ، والصناعات التي تحتاج إلى مهارة ، قد يشمل جزاؤها عنصراً من عناصر الربح ، وذلك لأن الثمن الذي يتقاضاه العاملون فيها نظير خدماتهم يزيد التحديد الاصطناعي لعدد هم سواء كان هذا التحديد موقوتاً أو دائماً . وأنت تعرف بطبيعة الحال ، كما أعرف أنا أو خيراً مما أعرف أنا ، كيف يحلل الاقتصاديون المحدثون عناصر الربح .

استيورت : ولكن الربح سلعة تتبادل كغيرها من السلع ؛ وإذا ابتاعه إنسان أصبح حقاً له ، فإذا استثمرت مالى فى أرض كان من حقى أن أحصل منها على الثلاثة فى المائة التى أستطيع أن أحصل عليها إذا استثمرت المال فى أى شىء آخر .

مارتن : قد يكون هذا ، ولكنه لا يغير من جوهر الربح ، فهو يبقى كما هو ثروة لا يكسبها الشخص الذى يستولى عليها ؛ والمجتمع الذى يجعل كسب المال شرطاً أساسياً للحصول عليه لا يصح أن يجعل الربح ملكاً فردياً خاصاً ولا يصح فى هذا المجتمع أن يباع الربح أو يشتري .
استيورت : أظن أن هذا قد يكون صحيحاً .

مارتن : أما أنا فأراه من الأمور التى لا جدال فيها . ومهما يكن جزء الثروة الذى يوزع حسب الجدارة ، فإن الربح لن يكون هذا الجزء . ولننتقل الآن إلى جزء آخر منها ، وهو الجزء الذى يطلق عليه اسم الفائدة ؛ فما هو الأساس الذى تقوم عليه الفائدة ؟

استيورت : لقد كتبت فى هذا الموضوع مجلدات ، فهل تريد أن أجيبك عنه فى بضع كلمات ؟ .

مارتن : إن أكلفك أن تتعب نفسك في الإجابة عن هذا السؤال إذا أنت وافقتني على أن الفائدة ليست مما يكسب أو يفال بالجدارة ، شأنها في ذلك كشأن الربيع والمال الموروث ، مهما جاز أن يقال دفاعاً عنها وتبريراً لها . إن الفائدة شيء يستطيع الرجل أن يتقاضاه إذا كان يمتلك رأس مال ، كما يستطيع أن يتقاضى الربيع إذا كان يمتلك أرضاً ، أو كان له شيء آخر يحتكره .

استيورت : إذا كان في وسعه أن يتقاضاها فلا شيء سبب يمنع من تقاضياها ؟ إن أحداً لا يستطيع أن يرغبه على أن يقرض ماله بلا مقابل .

مارتن : لست أقول إنه مرغم على هذا ، وليس هذا هو الذي أتكلم عليه ، بل إنني أتكلم على النظام نفسه ، فأقول إنه لا يصح أن يكون ثمة شيء يسمى فائدة في المجتمع الذي توزع فيه الثروة على أساس الكسب ، وإن الذين يعيشون من فائدة رأس مالهم يعيشون بلا عمل .

استيورت : ولكن الذين يدبرون شؤون الثروة يؤدون عملاً ، ويتعرضون فوق ذلك إلى أخطار عظيمة .

مارتن : هذا يصدق على كثيرين منهم ، ومن حق هؤلاء حسب مبدأ الكسب أن يعوضوا عن عملهم وعما يتعرضون له من الأخطار . ولكن هذا التعويض لا يسمى فائدة ، بل يجب أن يسمى أجوراً أو مرتبات ؛ أما الفائدة الخالصة فغير مثال لها هو أرباح السندات المحددة القيمة التي لا تسكاد تتعرض لخسارة ما ، والتي لا يحتاج مالكوها إلى العمل قط ليحصلوا على الدخل الذي يتقاضونه منها ؛ وليس من المستطاع تبرير الفائدة على أساس الجدارة والاستحقاق ، سواء استطعنا تبريرها على غير هذا الأساس أو لم نستطع .

استيورت : ليس هذا واضحاً لي ، إن الاقتصاديين يقولون إن الفائدة هي

(ج) الفائدة

جزاء « الانتظار » ، وأنا أوافقهم على هذا .

مارتن : لقد كانوا من قبيل يسمونها جزاء « الحرمان » ، ولكنهم قد استجوا الآن من ذكر هذه الفكرة السميحة .

استيورت : مهما يكن من أمرهم ، فإن الادخار ينعدم من الوجود إذا لم يُعط رأس المال فائدة ، والادخار خدمة ضرورية تؤدي للمجتمع ، وتستحق أن يجزى عليها صاحبها ، وهي لا تقل في ذلك عن أية خدمة أخرى .

مارتن : لا شك أن ادخار المال لاستثماره في المشروعات الصناعية من الأعمال الضرورية للمجتمع الحديث ، ومن الواجب أن يدبر بطريقة ما ، وليس من السهل علينا حسب نظام الملكية في مجتمعنا الحاضر أن نرى كيف يدبر أمره بغير أداء فائدة عن المال المدخر ؛ أما إذا كان ثمة نظام آخر فقد يكون من المستطاع الوصول إلى النتيجة عينها من غير هذا الطريق ، لأن في وسع المجتمع نفسه أن يخصص بقوة السلطات الحاكمة مقداراً من دخله لهذا الغرض . ولا يبدو لي أن الخدمة التي تؤدي للمجتمع « بالانتظار » تماثل ما يؤدي له بالعمل ، أو أنها مساوية لها في عدالة ما تطلبه من جزاء .

هرنجتن : يسرني أن أسمع منك هذا القول ؛ ولقد كان الإدراك الفطري العام في المجتمعات نصيراً لك في هذه النقطة على الدوام ؛ وما من شك في أن القول بأن الرجل إذا امتنع عن إنفاق ألف ألف جنيه في متعه الحاضرة أدى للمجتمع خدمة يستحق أن يكافأ عليها بثلاثين ألفاً من الجنيهات في العام أبد الآبدين قول باطل لا يتفق مع العقل ؛ فلو أن هذا الرجل أراد أن ينفق هذه الآلاف من فوره لما عرف كيف ينفقها ، وأكبر الظن أنه يفضل في هذه الحال أن يعطى من ماله مبلغاً كبيراً في نظير عدم إرغامه على إنفاقها .

(ج) الفائدة

والحق أن الوقت قد حان لأن يظهر الاقتصاديون عقولهم من حذلقته هذه .
استيورت : إن الإنسان ليسعه أن يحتاج في هذا إلى ما شاء الله ثم تظل
بعد ذلك تلك الحقيقة باقية ، وهي أن المجتمع يخسر أكثر مما يكسب إذا
حاولت أن تحرم الربا .

مارتن : قد يكون هذا ، ولكن ذلك لا يعنى أكثر من أن الفائدة
جعل لا تستطيع منع الأقوياء من فرضه على الضعفاء ، وليست جعلا يحق لهم
عدلا أن يفرضوه عليهم .

استيورت : أما عدالته فتلك مسألة ستبقى آراء الناس مختلفة فيها ، وحسبى
أن الفائدة ضرورية للمجتمع .

مارتن : هي ضرورية في الأحوال الحاضرة ، وقد تكون ضرورية بصورة
ما في كل الظروف ، ولكنى لا أعتقد أنها ضرورية في صورة جعل يؤدي
للأفراد نظير ذلك النوع الغريب من الخدمات الذى يسمونه « انتظاراً » .
على أنه إذا كان فى الناس من يسوى بين هذه الخدمة وبين العمل الفعلى ،
ويقول إن الرجل يستحق عدلا أن يؤدى له مال ، لأنه لم يمنع عن غيره من
الناس وسائل الإنتاج ، إذا كان فى الناس من يقول هذا القول ويفعل ذلك
الفعل ، فإنى لا أدرى كيف أستطيع إقناعه . لقد بينت موقفى من هذه
المسألة ، مسألة الفائدة ، فإذا كنت لم تقتنع بما قلت فإنى مضطر أن أترك
المسألة عند هذا الحد .

استيورت : أعتقد أنى قد أوتيت من قلة العقل ما يكفى لأن يحول بينى
وبين الاتفاق معك ، ولكن لا بأس من هذا فلن أضع العقبات فى سبيلك ،
ولتستمر فى الإدلاء بحججك .

(د) الأجور

مارتن : بعد أن أخرجنا من دائرة الجدارة الوراثية والهبة والريع والفائدة ،

(د) الأجور (إلا إذا لم توافق أنت على أن تخرج منها هذا العامل الأخير) أنتقل الآن إلى أهم العوامل كلها وهو عامل الأجور. والأجور في رأبي تشمل كل ما يتقاضاه الناس نظير خدمات يؤدونها، سواء كانوا من مديري المشروعات التجارية والصناعية، أو أصحاب المهن، أو ممن يعملون بأيديهم، فأنا أستخدم هذا اللفظ بأوسع معانيه ليشمل كل شيء يستطيع الناس أن يتفقوا على أنه يكتسب، فهو الفاحية التي يجب أن يجد المجتمع فيها الثروة موزعة حسب الكفاية، إذا كان في المجتمع ثروة موزعة حسب الكفايات.

استيورت : نعم وإنك لترى الجزء الأكبر من ثروتنا موزعاً حسب الكفايات.

مارتن : ولكني أسألك عن المعنى الذي تستخدم فيه هذا اللفظ، لفظ الكفاية، فأنا أحسب أننا مختلفان في هذا، وأرى أن كفاية الرجل تزداد بقدر ما يكون عمله النافع كريهاً له ثقيلًا عليه؛ فإذا كان ثمة رجلان ينتجان ثروة فإن الذي يقوم منهما بأشق العملين يكون أكثر من الثاني كفاية، ويجب أن ينال أكثر منه أجراً.

استيورت : هذا رأي جائز بطبيعة الحال.

مارتن : ولكننا إذا أخذنا بهذا الرأي تبين لنا أن الكفاية ليست هي التي تحدد الآن جزاء العمل، بل إنك لترى الأمر عكس هذا تماماً، فأشق الأعمال وأبغضها، وأكثرها إيلاً للعامل وإضراراً بصحته، أقلها أجراً؛ في حين أن أسهلها وأجلها للسرور، وأكثرها موافقة للصحة، أعلاها أجراً؛ فأنت ترى إذن أن العامل الذي ينظم توزيع الأجور هو عكس عامل الكفاية إذا فهمنا الكفاية بهذا المعنى السابق. أليس هذا واضحاً كل الوضوح؟

(د) الأجور

استيورت : بلى ، ولكن فهم الكفاية بهذا المعنى فهم غير مألوف ، وفيه كثير من التكلف ؛ أما إذا فهمت من الكفاية معناها المألوف فإن العامل المنظم للأجور يتفق مع عامل الكفاية . ذلك أننا نشاهد بوجه عام أن الرجل ذا المواهب العالية المتوقد الذكاء ، الكثير المغامرة ، الصالح للعمل أكثر من غيره ، ينال أجوراً أعلى منهم ، تتناسب مع هذه الميزات ؛ وهذا هو العدل ، وهو الذى يجب أن يؤخذ به .

مارتن : أما أن هذا عدل فذلك ما أميل إلى الشك فيه ، إلا إذا كان العدل هو « أن يعطى المال من عنده مال » ، ولكن سواء كان هذا عدلاً أو غير عدل فهل هو الواقع حقاً ؟ هل صحيح أن مجرد حصول المرء على مواهب راقية يضمن له أجوراً أعلى من غيره ، وأن عكس هذا صحيح أيضاً ؟ استيورت : نعم إنه صحيح بوجه عام .

مارتن : لو سألت أنا لقلت إنه غير صحيح بوجه عام . ذلك أن الفرص مضافة إلى المواهب عامل أساسى فى النجاح ، والفرص توزع بين الناس من غير نظر إلى مواهبهم ؛ فابن الرجل الثرى ، وإن كان أبلاً ضعيف العقل ، قد يوضع فى الحياة فى مركز مريح ينال فيه عشرة أضعاف ما يناله رجل عظيم المواهب ، كان من سوء حظّه أن ولد فقيراً ، وقد ينال ألف ضعفه . استيورت : إن مثل هذه الحالة من الحالات الشاذة .

مارتن : أحق هذا ؟ ذلك ما أشك فيه . وإذا كانت هذه من الحالات الشاذة فإنى واثق من أن هذه الشواذ كثيرة لا حصر لها ؛ وحتى فى الحالات التى يوزع فيها الجزاء بين الناس حسب مواهبهم ، فإن هذا ليس هو المبدأ الذى توزع بمقتضاه الأجور ، ولكنه نتيجة عارضة لهذا المبدأ تبنى بطريق المصادفة المحضة .

(د) الأجور

استيورت : ماذا تعنى بهذا ؟

مارتن : لنفرض أن عدد الناس ذوى المواهب الراقية قد ضوَّع مائة ضعف فهل تبقى أجورهم فى هذه الحال كما هى الآن ؟
استيورت : كلا .

مارتن : ولكننا يجب أن تبقى إذا كان مقياس الأجر هو المواهب والكفايات . غير أن الأمر ليس كذلك ، لأن الأجور تقدر بالعرض والطلب ؛ فالعمل فى نظامنا الحاضر سلعة كسكل السلع يحدد بعض ثمنها بنفقات إنتاجها وبعضه الآخر بطلب الناس إياها ؛ فإذا زدت هذا الطلب زاد ثمن العمل ، دون أن يحدث تغير فى نوعه ، وإذا قل طلبه نقص ثمنه ، وإن لم تتغير صفته ؛ فإذا كانت الموهبة العالية تنال أجراً عالياً ، فليس ذلك لأن الموهبة عالية ، بل لأنها نادرة ؛ أما الجدارة بأى معنى من المعانى السابقة فهمناها ، فإما ألا يكون لها أثر فى مستوى الأجور مطلقاً ، وإما أن يكون لها أثر عارض لا أكثر . والعمل مهما يكن فيه من مشقة ، ومهما يتطلب من مهارة ، ومهما يُخرج من ثمرة ، قد لا يؤجر إلا أقل الأجور ، وقد لا يؤجر على الإطلاق ، إذا كان أكثر مما هو مطلوب ؛ كما أن أهون الأعمال وأبسطها وأقلها ثمرة قد يؤجر القائمون به أعظم أجر إذا ظل طلبه على الدوام أكثر مما يعرض منه .

استيورت : لكن العرض والطلب يتجهان إلى التعادل على الدوام ، فالعمال يتجهون حيث تكون الخدمات مرتفعة الأجر والعكس بالعكس .

مارتن : ربما كان هذا فى مجتمع مرن كل المرونة^(١) ، وليس فى المجتمعات ما ينطبق عليه هذا الوصف . فالعمل الذى لا يتطلب مهارة مالا يتسرب إلى سوق العمل الذى يتطلبها ، وهذا النوع الثانى من العمل لا ينتقل إلى

(١) يستطيع الأفراد فيه بسهولة أن ينتقلوا من عمل إلى عمل .

(د) الأجر

سوق المهن أو إلى الأعمال التجارية ؛ ذلك أن مجتمعنا كما قلنا من قبل مجتمع الجركى مكون من طبقات تسكاد تكون وراثية ، وهذه الطبقات قد أنشأتها وخلدتها سنة الملكية ، فركز الأبوين هو الذى يعين للابن طريق سيره ، وهل يزوج به فى سوق العمل المزدحم أو سوق العمل الذى يقل فيه العاملون ؛ وهذا السوق أو ذاك هو الذى يحدد له أجره من حيث قلته وكثرته ، فأبناء الأغنياء يوضعون حيث يتاح لهم أن يستمروا على تحصيل الثروة ، وأبناء الفقراء يوضعون حيث يستمرون على كسب الكفاف من العيش . تلك هى القاعدة العامة مهما يكن عدد الشواذ ، وليس ثمة مبدأ تقوم عليه هذه القاعدة ، إنما هى الحقيقة المرة القاسية لا أكثر ولا أقل

استيورت : أظن أن لفظ « الجدارة » ، هذا اللفظ المبهم ، قد ساقنا فى هذا الطريق المضل . إن لهذه الأمور مبدأً تسير عليه ، سواء أسمىها جدارة أم لم تسمها كذلك ، وإن الجزء الذى يناله شخص ما ليقاس على العموم بما ينتجه من الثروة .

مارتن : أظن أن إثبات ذلك من أصعب الأمور ، فما الذى يضيفه الحامى مثلاً إلى ثروة المجتمع إذا قيس إلى ما يضيفه اعامل فى حوض بناء السفن ؟ فهل يضيف الحامى شيئاً إلى الثروة ، أو هل كل ما يفعله أنه ينقص منها ؟

استيورت : إنه يزيد بها بطبيعة الحال ؛ لأن الأعمال لا تستقيم بدونه ، فهو موجود لأن الناس فى حاجة إليه ، وهو يأخذ من الأجر حسب تقدير الناس لخدماته .

مارتن : والناس يحتاجون إلى خدماته ويقدرّون لها قيمة لأنهم عديمو الشرف ، أو لأن القانون غامض غير صحيح ؛ ولو أن المجتمع كان أحسن مما

هو نظاماً لما كان ثمة فائدة له ، فهو لا ينتج ، وخير ما يستطيع أن يفعله أن (د) الأجور ينقص ما عساه أن يوجد في العمل من احتكاك .

استيورت : وهذا يؤدي إلى نفس النتيجة .

مارتن : ولن أنازع في ذلك ما دامت الأمور كما هي ، ولكنني أزيد عليه أنه حين يستخدم أسوأ استخدام فيستأجر كما يستأجر في كثير من الأحيان لتقوية الخصومة بين الناس لا لحسم أسبابها ، فإنه يعمل على زيادة الاحتكاك لا على نقصه ، وعلى إتلاف الثروة لا على إنتاجها .

استيورت : هذا صحيح من غير شك ، ولكنه ليس الذي جرت به العادة .
مارتن : فلندع هذه النقطة ، وننتقل إلى العامل في حوض بناء السفن أو إلى غيره ممن يعملون بأيديهم . إن هؤلاء ينتجون الثروة بطريقة مباشرة بسيطة إيجابية ، فما هي الوسيلة التي يقرر بها أن ما ينتجونه يساوي ستة بنسات في الساعة ، في حين أن تدخل الحامي لينقص احتكاك أداة الإنتاج الصناعي ، أو ليزيده ، يساوي عشرة آلاف جنيه في العام ؟ منذذا الذي يقدر هذا التقدير ؟ ومنذا الذي يقسم هذه الحظوظ ؟

استيورت : أظن أن الذين يقسمونها هم الذين يؤدون أجور هذه الخدمات .
مارتن : لا شك في أنهم لا يقدر ولا يقسمون ، فهم يؤدون أكبر قدر يرغبون على أدائه ، وأقل قدر يستطيعون حمل غيرهم على قبوله ؛ وكل ما يقدرونه هو هل من مصلحتهم أن يشتروا هذه الخدمة أو تلك بهذا الثمن أو ذاك ؟ أو هل تقول إنه إذا ثبت حسابياً أن الثروة التي ينتجها العامل في أحواض السفن تقدر بعشرة شلنات في الساعة ، والتي ينتجها الحامي بمائة جنيه في السنة ، فإن الأجور التي يتقاضاها هذا وذاك تعدل فوراً على هذا الأساس ؟

(د) الأجور

استيورت : إنها لا تعدل فوراً ، ولكنها تعدل على هذا الأساس آخر الأمر .

مارتن : لسكنك توافقني من غير شك على أن إنتاج الثروة في وقتنا هذا على الأقل ليس هو المقياس الذي تقدر به الأجور ، ولا شك أيضاً في أن رجال الاقتصاد لا يفكرون هذا ؛ ووقتنا هذا هو الذي ندفع فيه الأجور بالفعل ، وينشأ فيه الإنصاف والظلم . على أنني أترك هذا الآن وأتكلم على ما تسميه آخر الأمر ، فأقول إن وجود الاحتكاك والنزاع بأنواعهما المختلفة يكاد يدهض حججتك ، ولو أن كل فرد في كل طبقة من الطبقات كان ملماً بكل الإلمام بجميع أحوال أسواق العمل في كل الجهات ، ولو أن هؤلاء الأفراد مع علمهم بهذه الأحوال كانوا يستطيعون أن ينشئوا أولادهم تنشئة تجعلهم صالحين لكل عمل من الأعمال ، إذن لصح أن يقال إن الأجور تسير على الدوام في طريق يصل بها آخر الأمر إلى أن تكون متناسبة مع ما ينتج من الثروة . أما والحال كما هي الآن فإن شيئاً من هذا لا يكون ؛ فالعامل غير الماهر لا يعرف شيئاً عن ظروف الأعمال ذات الأجر المرتفع ، وليست أحواله هو بحيث يستطيع أن ينتفع بعلمه بهذه الظروف لو أنه عرفها . أو هل تستطيع أن تتصور هذا الأجير يقول لك : « أرى المحامين يكسب الواحد منهم خمسة آلاف جنيه في العام ، أما أنا فلا أتقاضى إلا ستة بنسات في الساعة ، ولست واثقاً من أنني سأنالها على الدوام ، ولذلك سأجعل ولدي فلاناً محامياً ؟ ليس هذا بطبيعة الحال كلاماً معقولاً .

استيورت : إنك تضرب مثلاً شاذاً مبالغاً فيه .

مارتن : إنني أفعل ذلك عن قصد لأوضح ما أرمي إليه ، ولكن ما أقوله هو الحق بعينه ؛ فالأجور لا تحدّد حسب ما ينتج الأجير من الثروة إلا إذا

(د) الأجور

كانت المنافسة حرة طليقة من كل قيد ، وكان الانتقال من عمل إلى عمل ميسوراً ، والعلم بأحوال العمل تاماً . ولو أن مجتمعنا كهذا قد وجد لبدا لك مناقضاً بعضه لبعض كل التناقض ؛ ذلك أن أحقر أنواع العمل يكون له فيه المقام الأعلى ، ويؤجر صاحبه عليه أكبر أجر ، وفيه يهرع الناس من كل فج نحو العمل المريح اللذيذ ، ويتعدون عن العمل الشاق الملل ، فترتفع تبعاً لذلك أجور النوع الثاني حتى تبلغ حداً يجذب إليه عدداً من العمال يكفي لأداء أقل قدر لازم منه . وعلى هذا الأساس فقد تؤجر أحقر الأعمال في هذا المجتمع أعلى الأجور إذا لم تقم بها الآلات ، أما الحمامون والأطباء والأساتذة فقد لا يكسبون إلا ما يسد رمقتهم . ذلك أن إنتاج الأشياء الضرورية هو الذي يجب أن يكون له المقام الأول على الدوام ، ولهذا فإن الذين ينتجونها في مجتمع لا تقيد المنافسة فيه بأى قيد ينتزعون من هذا المجتمع أجوراً أعلى كثيراً مما يستطيعون أن ينالوه في هذه الظروف الحاضرة ، ولربما يقبين في هذه الحال أن المجتمع في غير حاجة إلى الكثيرين من أمثالنا .

استيورت : من رأيي أن ذلك قد يكون .

مارتن : فأنت ترى إذن أنه مادام نظام الطبقات الحاضر قائماً فإن ما يضر الاقتصاديون على طلبه ، وهو أن ينال كل نوع من الكفايات أجراً يتناسب مع ما ينتجه من الثروة ، سيظل مقيداً ومعطلاً ، وسيبقى مجرد مثل أعلى أبعد ما يكون عن الواقع . أما الحقيقة التي يشاهدها الناس في كل وقت فهي أن ندرة الشيء تحدد جزاء مالكه ، فكلما كثر عدد المتنافسين على أداء عمل من الأعمال قل ما ينالونه منه ، والعكس بالعكس ؛ وقد نظم المجتمع بحيث يكون المتنافسون على أداء الأعمال الشاقة السكرية أكثر عدداً من المتنافسين على الأعمال الحسنة الجذابة .

(د) الأجور

استيورت : إن الإنصاف ليقضيك أن تقر على الأقل بأن الذين يستطيعون فهم دقائق العمل الرأقي أقل كثيراً ممن في مقدورهم أن يفهموا العمل المنحط ، وعلى هذا فإن أقل ما توصف به قاعدة تقدير قيمة الشيء حسب ندرته هو أنها حقيقة كامنة في طبيعة الأشياء ، وليست حقيقة من خلق المجتمع .

مارتن : يحتمل جداً أن يكون للذكاء العظيم قيمة طبيعية تتناسب مع ندرة وجوده ، ولكننا لا نستطيع معرفة هذه القيمة على حقيقتها إلا إذا وجد التنافس الحر الطليق الذي يتضمن فيما يتضمنه أن يهباً لكل إنسان من الفرص التي تمكنه من أن ينمي ما لديه من الملكات بقدر ما يهباً لكل إنسان غيره .

استيورت : وما هي النتيجة التي تريد أن تصل إليها من هذا كله ؟

مارتن : هأنذا أجمل ما أدليت به من الحجج ، وأذن لك بتصحيح ما قد يكون فيه من خطأ . إن الثروة في مجتمعنا الحاضر توزع إلى حد كبير من غير نظر إلى ما يؤدي المجتمع من الخدمات ، وتوزيعها يقوم على أساس الحب العائلي ، أو أهواء الموسرين التي لا يستندون فيها إلى العقل حين يوصون بأموالهم لمن يشاءون ، وقل أن يكون المحرك لهم في وصاياهم نظرتهم الواسعة إلى الصالح العام . وهذه السنة سنة الوراثة والوصية ، كما قلنا من قبل ، هي الأداة الكبرى التي تعمل على تأبيد عدم المساواة ، والتي تحدد من طريق غير مباشر توزيع ذلك الجزء من الثروة الذي ينتقل بين الناس على هيئة أجور لما يؤدونه من الخدمات . ذلك أنها تؤيد الفروق بين الأغنياء والفقراء ، وهي الفروق التي يقوم عليها آخر الأمر تقسيم الأجور ؛ فالأغنياء يضعون أبناءهم في سوق تقل فيها المنافسة ، وترتفع فيها الأجور ، وأما الفقراء فيرغمون إرغاماً على أن يقذفوا بأبنائهم في سوق تشتد فيها المنافسة وتقل الأجور . فأنت

ترى إذن أن توزيع العمل وتوزيع الجزاء عن العمل حقيقتان مرتبطتان (د) الأجور إحداهما بالأخرى ، وهما تعتمدان آخر الأمر على نظام الملكية القائم بيننا ؛ وهذا النظام نفسه يعين أيضاً جميع الصفات الأخرى التي يتصف بها مجتمعنا الحاضر .

هرنجتن : أجل ، ولما كانت سفة الملكية لم تنظم تنظيمًا حسنًا فإنك لم تجد مجتمعاً حسن النظام ؛ وبسبب هذه السفة وجد ، ولا يزال يوجد ، في أحد طرفي المجتمع مسؤولون والصوص ومنبوذون ، وفي الطرف الآخر فجار ومغفلون وطغاة ؛ وبسببها نرى كل مجتمع في حالة دائمة من التطاحن الخفي والعلني لا يرحي منها خلاص ؛ وبسببها قد تنكبت عقول الناس وأرواحهم طريق العمل الشريف . وانصرفت غنية كانت أو فقيرة إلى التطاحن الخفي على جمع المال أو كسب العيش ؛ وبسببها أصبحت كل ثقافة أفاظاً جوفاء ، وأضحى كل رقي وهماً وخداعاً ، وكل فن تشاؤماً واستهتاراً سخيفاً ، وكل علم تصنعاً ورياء ؛ وبسببها لا يستريح للإنسان ضمير ، إذا كان قد بقي له ضمير ؛ وبسببها أصبحت الصناعة ظالماً ، والفراغ اغتصاباً وسلبياً ، وتثقيف النفس تلصصاً ، ورابطة الحب العائلية خيانة ؛ وبسببها تسم كل عمل ، وتلوّث كل سبب من أسباب المسرة ؛ وبسببها لم يكن مجتمعنا مؤلفاً من خلائق متحضرين ، بل صار حشداً من الصوص والعبيد غير المؤتلفين ، لا تجمعهم بعضهم ببعض إلا ضرورة آلية هي الخوف والشراسة والحاجة .

استيورت : هل وصل المجتمع حقاً إلى هذه الحال الشنيعة إذا نظرت إليه من ناحية المثل الأعلى ؟ إذا كان الأمر قد وصل حقاً إلى هذا الحد فإنني يسرنى أنني لا أستطيع أن أراه كذلك ، إن الذي أراه من موضعي المنخفض الذي أنا فيه خير من هذا وأدعى إلى الراحة .

هرنجتن : وماذا ترى ؟

استيورت : أرى جمعاً أشمط ، مؤلفاً من رجال الأعمال الهادئى الأخلاق ، لا فرق بين أحدهم والآخر ، معظمهم حريصون على أن يعودوا إلى بيوتهم ليروا أزواجهم أو حدائقهم أو سياراتهم ؛ ومن السكتبة المجدين يروحون عن أنفسهم بعد كدح النهار الممل بالتفكير فى بيوتهم الصغيرة المستقلة ذات المنظر المحترم فى ضواحي المدينة ؛ ومن العمال ذوى الوجوه الباشة المبهجة لم تلعب الحمر بعقولهم ، ولم يجهدهم عمل النهار ، يعنون بمليكتهم وبمجانس أعيانهم ، وبصحيفتهم القرنفلية^(١) ، وبمباريات اللعب فى جامعاتهم ، ويرتابون بوجه عام فى زعماء العمال وفى الاشتراكيين ؛ ومن آباء أسر ذوى ضمائر حية ؛ ومن دافعى الضرائب المتضجرين ، وجامعيها المحافظين ، والأعيان المتطرفين . وقصارى القول إنى أرى العالم الذى يتزل من قطار الساعة التاسعة ، ومن السيارات العامة ، ومن القطر التى تمر تحت الأرض ، فهل هذا بحق هو نفس العالم الذى تنظر أنت إليه ؟

هرنجتن : نعم ولكنك أنت تنظر إلى ظاهره ، أما أنا فأنظر إلى الحقائق الأخلاقية الجوهرية فيه .

استيورت : ليمكن لى إذن هذا الظاهر الذى يعيش عليه فى حقيقة الأمر معظم الناس . ولعل من حق ضحايا نظامنا الحاضر ، على حد تعبيرك أنت ، أن يحقدوا على المجتمع حقدك عليه ، ولكنى واثق من أنهم لا يحقدون ، بل هم على بكرة أبيهم يفكرون فى طفلهم الأخير وفى قدح شرابهم الثانى .

(١) The Pink'un أو النيمس الرياضية The Sporting Times وكانت تطبع

على ورق قرنفلى اللون .

هرنجتن : إذا كان هذا شأنهم فإنه لا يصلح من حال المجتمع بل يزيده سوءاً على سوء .

استيورت : لست أعتقد أنهم مهما يكن من أمرهم سيشكرون لك مجتمعك الأرستقراطي إذا أنت أقمته لهم في غد .

هرنجتن : أكبر الظن أنهم لن يشكروه لي ولن يشكروا لما رتن مجتمعهم الديمقراطي ، ولكن الذي لا يستطيع أن يجادل فيه أحد أن هذا المجتمع أو ذاك يكون خيراً من مجتمعنا الحاضر ؛ ولقد كدت أنت أن تقر بذلك ، لأنك لم تفلح كثيراً في الدفاع عن النظام القائم بيننا الآن .

استيورت : ربما كنت في وسعي أن أدافع عنه خيراً مما فعلت . ولكنني أحب أن أدلك على مقدار صراحتي بأن أقر لك أنك مهما تقل أو تفعل لا تستطيع أن تدعى أن النظام الذي يجري عليه توزيع ثمار العمل لدينا نظام منصف ، على أنني أشك أيضاً في أننا نستطيع أن ننشئ نظاماً أكثر منه إنصافاً .

مارتن : أسمح لي إذن أنا وهرنجتن أن نبين ما هو النظام المرغوب فيه ، إن لم يكن هو النظام المنصف ، في المجتمع الذي يريد كل منا أن ينشئه .

استيورت : هذا بالطبع ما أنا في انتظاره .

مارتن : إن علينا أن نسير في هذا الطريق على حذر ، فإن من حولنا أعداء يحيطون بنا من كل جانب ، وهم كامنون لنا في كل مربأة وكل ثنية ، فهنا الاشتراكيون وهناك الاقتصاديون ، وكلهم يتحفزون للوثوب علينا إذا ما خطونا خطوة فيها الشيء القليل من الخطأ ، وكلهم يعرفون الأرض التي نسير عليها خير معرفة ويحيطون علماً بجميع مواضع الزلل والارتباك . فما رأيك يا هرنجتن وأي الطريق يجب أن نسلك ؟

(٥) التوزيع المنصف
ثمار العمل

هرنجتن : عليك أن تقولى القيادة وعلى أن أتبعك إلى أبعد حد أستطيعه^(١).
مارتن : إذن فهل يسمعك أن توافق على ما سأقوله بعد وأن نتخذ به بداية
مأمنة بعض الشيء وهو أنه يجب ألا ينال الشخص القوى الجسم شيئا فى المجتمع
الحسن التنظيم إلا إذا كان هذا الشيء ثمرة مباشرة لعمل يعمل عمله ؟ إن هذا المبدأ
يبدو لى مبدأ معقولا لا غبار عليه قط .

هرنجتن : وأنا أقبله ولا أشرط لهذا القبول إلا أن يفهم أن أهم الأعمال
فى مجتمعى الأرسقراطى هو عمل الطبقة الحاكمة ، وأنها لذلك يجب أن تؤجر
على هذا العمل أجرا عاليا .

مارتن : ولكن ما هو مدى هذا الأجر العالى ؟ إذا كنت تريد أن
تتبع رأى أفلاطون فهو يقول إن أوصياءه يجب ألا ينالوا أكثر من ضرورات
الحياة ، لأن امتلاك الثروة يضلهم ويخيد بهم عن عملهم الصحيح .

هرنجتن : هذا هو الرأى الذى أخالفه فيه . لقد كانت يسرى فى نفسه
تيار من الزهد لا أوافق عليه ، فهو يقطع الصلة بين هيئته الحاكمة المثالية
وبين كل فن وكل نخامة وكل جمال إلا ما كان متصلا بالأخلاق . أما الذى
أرمى إليه أنا فهو أن أهيب لها أسباب هذه الناحية من نواحي الحياة إلى أبعد
حد ، وأن أبلغ بها منتهى العظمة والفضامة ؛ ذلك أن الحسك عمل فى المرتبة
الثانية بالنسبة لأعمال « أوصيائى » ، أما العمل الأول الذى رفعوا من أجله
إلى منزلتهم فهو أن يرقوا بالإنسانية إلى مثلها الأعلى ، وليس ذلك لمصاحبتهم
وخدمهم بل لمصلحة المجتمع الذى يحكمونه ، فهم الممثلون لهذا المجتمع ولا بد أن
توضع فى أيديهم كل الموارد التى تعينهم على أن يضطلعوا بواجبهم هذا ؛ يجب
أن تكون لهم قصور مشيدة وحدائق ذات بهجة ، وبساتين غناء ، وصور
(١) تكاد هذا الألفاظ أن تكون بعينها ألفاظ شيكسبير فى رواية يوليوس قيصر .

وتماثيل رائعة ، وملابس غالية الثمن جميلة الشكل ، وأجسام نخمة وحاشية (٥) التوزيع النصف
كبيرة ؛ ويجب أن يكونوا أشبه بأمراء عصر النهضة منهم بالفلاسفة
الأفلطونيين ، ومن ثم يجب أن تكون لهم ثروة طائلة .

مارتن : لقد فهمت ، إن مطالب الطبقة الحاكمة في الدولة التي تريد أن تنشئها
مطالب فذة لا مثيل لها قط ، فلن يكون في هذه الدولة مبدأ مشترك بين الهيئة
الحاكمة وبين سائر الشعب ينظم توزيع الثروة على أساسه ، فوضعهم من الناس
كلهم في الصف الأول ، وهم يغالون ما يحتاجونه ثم يأتي من بعدهم المتجرون .
هرنجتن : أجل ، إنهم سيكونون طبقة ثرية ، ولكنها طبقة جديرة
بالثراء ، لأنها تعرف كيف تستخدم ثروتها لتبلغ بها أعظم الغايات ، ولأن
المجتمع يرى في أفرادها المثل الأعلى لزيينة الحياة وجمالها ونخامتها . ولهذا فإن ثروتهم
إن تكون متعة خاصة يتمتعون بها ، بل وظيفة عامة من وظائف المجتمع ،
ينعكس منها الضياء على كتلة الشعب التي لا تشترك فيها اشتراكا مباشرا ،
وتبعث في أفرادها الغبطة بالحياة والفخر بها ، لأنهم يرون بأعينهم من فوقهم
حياة بلغت في ذاتها هذه الدرجة العالية . أما مجتمعتك الديمقراطية كما أتصوره
فسيخلو من العظمة وإن لم يخل من الإنصاف ، وهذا أهم ما أعترض به عليه ،
وسيقاسي أهله وهم صامتون أشد الأحوال من حياتهم المملة الحقيرة دون أن
يعرفوا لما يقاسونه سببا .

مارتن : لقد نسيت أني أتصورهم ذوي علم وافر وفراغ كاف ، وأن في وسع
الكثيرين منهم أن يصرفوا أوقات فراغهم في أعمال الفن وترقية الخيال ،
وأن ما تنتجه هذه الأحوال التي أتطلع إليها من اهتمام بالحياة ولذة فيها سيفصح
عنه أولئك الذين أوتوا القدرة على الإفصاح عنه . وإن يكون الفنانون والشعراء
والفلاسفة كما هم الآن خلقا بعيدين كل البعد عن تيار الحياة الرئيسي ، تحركهم

(٥) التوزيع المنصف لثمار العمل في معظم الأحيان عواطف الأنانية الشخصية السقيمة ، بل إنهم سيسبقون في كل آن من ماء التجارب العامة ، فينعشهم هذا الشراب ويخصب خيالهم ،

ويزودهم بمادة جديدة يعبرون عنها ، وبدافع قوى يحفزهم إلى هذا التعبير . وسيكون الفن عندئذ فنا جماعيا لا فرديا ، ولن يكون عنوانه قصور طبقة الأغنياء ومعارض التصوير لديها وحدائقها كما تزعم أنت ، بل سيكون عنوانه المباني العامة والبساتين العامة والحفلات والامتلاكات العامة ؛ سيكون فن أثينة القديمة لا فن رومة البابوية ، وإن لم ينقص في شيء عن هذا الفن الأخير هرنجتن : لم تكن أثينة ديمقراطية بهذا المعنى الذي ترمى إليه .

مارتن : نعم إنها لم تسكن ، ولو أنها كانت لسكان ما خلفته من الجبال والحكمة والقوة أغنى لا أفقر مما كان في الواقع .

هرنجتن : لم يكن هذا رأى أفلاطون وأرسطاطاليس .

مارتن : إن أفلاطون وأرسطاطاليس لم يفهما من الديمقراطية ما أفهمه أنا منها ، ولست أنت من هذه الناحية أكثر منى اتفاقا مع أفلاطون وأرسطاطاليس .

هرنجتن : أظن أن في وسعي أن أدعي أنني أرسطاطاليسي إن لم أكن أفلاطونيا استيورت : دعنا الآن من أرسطاطاليس وأفلاطون . لقد بلغ الفلاسفة المحدثون من السوء مبلغا لا حاجة لهم معه أن يجروا وراءهم الفلاسفة الأقدمين في كل مسألة تعرض لهم .

مارتن : ألق بالك إليه يا هرنجتن . إن علينا أن نصطنع الحذر ، وإلا انضم إلى عدونا المستخفي عن أعيننا ؛ فلنستمر في حديثنا . إنني أوافقك على ما قلته عن الطبقة الحاكمة ، فلنفرد لها مكانا خاصا تسكون فيه مستثناة لا ينطبق عليها ما ينطبق على غيرها من الناس ؛ ولسكن ما شأن سائر المجتمع ؟ لقد

اتفقنا من قبل على ألا يقال أحد فيه شيئاً إلا إذا كان جزءاً عمل يقوم به . (٥) التوزيع المنصف
هرنجتن : نعم .

مارتن : وينتج من هذا حتماً — أليس كذلك ؟ — ألا يسمح لأحد
بأن يرث ثروة أو يعيش من ريع أرض أو فائدة مال ، لأن الربيع والفائدة
حسب تحليلنا السابق أموال يأخذها صاحبها من غير أن يؤدي في نظيرها عملاً
هرنجتن : هذا صحيح .

مارتن : ألا يؤدي بنا هذا إلى تلك النتيجة وهي أن الملك الذي ينتج ريعاً
وفائدة ينبغي ألا يكون ملكاً خاصاً ؟
هرنجتن : أظنه يؤدي إلى ذلك .

مارتن : وإذا استبعدنا الورثة أدى بنا استبعادها إلى النتيجة نفسها ، لأن
الثروة التي يملكها الأفراد تعود في هذه الحالة إلى المجتمع .

هرنجتن : إن هذا الطريق سيؤدي بنا إذن إلى ما يسموه المجتمع الجماعي^(١)
استيورت : هذا ما أوصاك إليه بحثك .

مارتن : نعم هذا ما أوصلنا إليه البحث ، أو هو على الأقل ما أوصلني إليه
البحث مؤقتاً ، واسكنني است مطمئناً كل الاطمئنان إلى رأي هرنجتين .

هرنجتن : وأنا أيضاً است مطمئناً إلى رأيك . والحق أن الإنسان إذا قلب
وجوه الرأي اتضح له أن جعل الثروة ملكاً عاماً للمجتمع لا يتفق مع النظام
الأرستقراطي الذي أريد أن أنشئه ؛ ذلك بأن من يستحوذ على الثروة في

(١) الجماعة Collectivism هي النظرية القائلة بأن المجتمع والصناعة يجب أن يقوموا
على أساس الملكية العامة أي ملكية الأمة للأرض ورأس المال ، أي وسائل الإنتاج
والتوزيع والتبادل . وهي تطالب إلغاء الملكية الخاصة لرأس المال ولكنها تحتفظ بالملكية
الخاصة للبضائع ذات المنفعة الشخصية ، فهي الملكية العامة لوسائل إنتاج الثروة لا
لثروة نفسها .

(٥) التوزيع المنصف لثمار العمل
هذه الظروف الحاضرة يستجوز معها على جميع السلطان ، وامتلاك المجتمع للثروة يتضمن قيام الديمقراطية .

مارتن : وماذا تظن أنك فاعل إذن ؟

هرنجتن : أظن أن الواجب علىّ هو أن أضع الثروة في يد الطبقة الحاكمة التي حدثت عنها ، وهي التي تقوم عليها باعتبارها وديعة في يدها للمجتمع .
مارتن : سيكون هؤلاء إذن أقرب إلى « زعماء الصناعة » الذين وصفهم كارليل Carlyle^(١) أو « رجال الصناعة » الذين وصفهم Comte^(٢) منهم إلى « أوصياء » أفلاطون ، وسيكون أهم عمل يتولونه في حكمهم هو التنظيم الصناعي .
هرنجتن : نعم ، ولكنهم بطبيعة الحال سيستخدمون مرءوسين لهم مدربين ، وسيكون مركزهم شبيهاً بمركز مديري الشركات .

مارتن : أما في مجتمعي الديمقراطي الذي لا توجد فيه طبقة حاكمة ، فسيكون المجتمع نفسه صاحب الأرض ورأس المال ، وهذا فارق من أعظم الفوارق بين النظامين . على أنهما كليهما سيواجهان نفس المشكلة ، وهي كيف يوزعان ثمار العمل بين الذين يحق لهم أن ينالوها ؟ وما نحن أولاء قد رجعنا إلى نقطة الخطر .
هرنجتن : فلنبدأ إذن من جديد .

(١) التوزيع حسب الحاجة

مارتن : لقد اتفقنا على أنه لا يحق لكل قادر على العمل أن ينال شيئاً إلا في نظير عمل يؤديه . لاشك في أنه يوجد على الدوام عدد من الفاس

(١) Thomas Carlyle ١٧٩٥ — ١٨٨١ الكاتب الإنجليزي الشهير صاحب كتاب « الثورة الفرنسية » ، « الأبطال وعبادة الأبطال » . كان من أكبر المعجبين بالشاعر الألماني جوته ، وأسلوبه من أعقد الأساليب الإنجليزية . وقد تأثر فيه إلى حد كبير بدراساته الألمانية

(٢) Auguste Comte ١٧٩٨ — ١٨٥٧ الفيلسوف والأديب والمصالح الفرنسي الشهير وصديق رجل الاقتصاد الكبير من سفت سيمون Saint Simon وجون استيورت مل John Stuart Mill . اقرأ نظرياته الفلسفية في دائرة المعارف البريطانية تحت عنوان Comte .

لا يقدرّون على العمل كالأطفال والمرضى والطاعنين في السن ، وأكبر الظن (١) التوزيع حسب الحاجة
أننا سوف لا نختلف في أن هؤلاء يجب أن ينالوا من المال ما هم في حاجة إليه .
هرنجتن : نعم .

مارتن : وهنا تبرز أمامنا مشكلة النساء أيضا ، فهؤلاء لا يصح أن يطلب إليهن ، في أثناء حملهن وتربية أطفالهن على الأقل ، أن يقمن بأى عمل آخر ، ومن حقهن ألا يقمن بأى عمل .

هرنجتن : نعم ولكن حمل الأطفال ، ذلك العمل المؤلم الذى يعرض الأمهات إلى الخطر ، يستحق من الأجر أكثر مما يستحق كل عمل سواه .
مارتن : إنى أوافقك على هذا . وإذن فكل ما يؤدى من المال لمثل هذا الغرض يجب أن يعد أجراً لعمل لا عطاءً من أجل الحاجة إليه .
هرنجتن : أعتقد هذا .

مارتن : حسن . وبعد أن حددنا في المجتمع طبقة من الناس تأخذ المال بقدر (ب) التوزيع حسب
الجدارة حاجتها إليه ، دون أن يطلب إليها أن تؤدى في نظير ما تأخذه منه عملاً ،
ننتقل إلى النقطة الأخرى التى تثير من الجدل أكثر مما تثيره هذه النقطة الأولى ، وهى الخاصة بالأقوياء القادرين على العمل . ولنبدأ أولاً بأبسط الحالات ، ولنفرض أننا ننظر في أمر أشخاص يقومون كلهم بعمل من نوع واحد ، فعلى أى أساس توزع الأجور بينهم ؟
هرنجتن : إن أكثر الوسائل انطباقاً على العقل أن توزع الأجور بينهم بنسبة إنتاجهم .

مارتن : استأظن أن هذا تقسيم معقول حقاً كما يبدو لأول وهلة . ذلك أن الإنتاج لا يتأثر بالعمل فحسب ، بل يتأثر كذلك بالمادة الغفل ، ومكان العمل ، والجو ، والآلات ، وبظروف أخرى من نوعها لا حصر لها . مثال

(ب) التوزيع حسب
الجدارة

ذلك أن استخراج الفحم من طبقة أسهل من استخراجه من طبقة أخرى ،
وأن قطعة من الأرض أشد خصبا بطبيعتها من قطعة سواها ، وأن مكانا ما يعين
على الإنتاج أكثر من غيره ، وهلم جرا . ولست أرى سببا معقولا في
مجتمع يصبو إلى الإنصاف يدعو إلى جعل طائفة من طوائف العمال تؤجر
على هذه المزايا وتحاسب على هذه العقبات العارضة الزائلة . إننا إذا قلنا
ذلك خرقتنا المبدأ الذي قبلناه في أول الأمر ، لأننا نكون في هذه الحال
قد وزعنا ريعا على بعض العمال المميزين .

هرنجتن : أظن ذلك صحيحا .

مارتن : ونعمة نقطة أخرى . إن بعض العمال من غير شك أقوى من
غيرهم أجساما ، وأذكى عقولا ، وأقدر على العمل لسبب من الأسباب ،
فهل يحق لهم أن ينتفعوا بهذه المزايا ؟

هرنجتن : أظن أن من العدل أن ينتفعوا بها .

مارتن : أتظن ذلك ؟ إن هذه النقطة من النقط الأساسية في بحثنا .
ذلك أن هذه المزايا في حقيقة أمرها هيأت عارضة من هيأت الطبيعة ، مثلها
في ذلك مثل تربة الأرض والمناخ والموضع ، فبأي حق ينال الرجل الذي
وهب هذه المزايا أجرا أعلى مما يناله غيره ؟

هرنجتن : يظهر أن هنا تضاربا في أنواع العدالة ، فيبدو من جهة أن
العدل يتطلب أن يؤجر الشخص بقدر ما يؤدي من العمل ، ويببدو من جهة
أخرى أن العدل يحتم ألا يكون لهذه المزايا الطبيعية العارضة أثر ما في
تقدير الأجور .

مارتن : وعلى المجتمع أن يختار بين المبدئين ، وليس من السهل أن
نقول أيهما الصحيح ، ولكنني أظن أن مما يعيننا على الاختيار في هذه

الحالات أن نسأل أنفسنا عن الخطوة التي يسير عليها مجتمع من الأصدقاء ، (ب) التوزيع حسب
المجداة
واعتمادى أن هذه الغاية هي التي يجب على المجتمعات جميعا أن تكون
أقرب ما تستطيع إليها . فلنفرض أنك أنشأت أنت وأصدقاؤك بيتا واحدا ،
وقدم كل منكم من مؤونة البيت العامة أكثر مما قدمه صديقه — وهو أمر
لا بد من حدوثه — فهل تظن في هذه الحال أن يرى أقدركم على العمل أن من
حقهم ، ومن المرغوب فيه لديهم ، أن يطلبوا لأنفسهم نصيبا من الإنتاج
العام أكثر مما يطلبون لغيرهم ؟

هرنجتن : كلا ، ولكنى أظن أن هذه المشكلة لا تُثار قط في هذه
الحالة التي وصفتها ، ذلك أن النظام الطبيعي الذي يسير عليه الأصدقاء الذين
وصفهم سيكون ضربا من الشيوعية ، يحصل فيه كل فرد على أهم ما يحتاج
إليه ، كما يحدث في كثير من الأسر .

مارتن : نعم إن هذا في رأيي يكون القاعدة المتبعة في مجتمع كامل ،
ولكننا إذا تصورنا مجتمعا بلغ هذه الدرجة من الكمال ، فقدنا إلى
الأبد عناية استميورت ببحثنا واحترامه لنا ، فما هي خير خطة بعد هذه يجب
أن نسلکہا في مجتمع لم يبلغ هذا المبلغ من الكمال ؟ ألا تكون هذه الخطوة
أن يقدر جزاء الشخص بما يبذله من جهد لا بما ينتج ، وبذلك يقال
كل شخص قدر ما يناله غيره إذا كان يبذل من الجهد في عمله ما يبذله
سواه ، وإن اختلف عنه في قوة الجسم والعقل ، وبهذه الطريقة لا يكون
ثمة مجال لتشجيع التكاسل المقصود ؟

هرنجتن : إن هذا النظام ليميدو لى من غير شك أكثر ودا وصفاء من
النظام الأول .

مارتن : وهل يكون أقل منه عدالة ؟

(ب) التوزيع حسب
الجدارة

هرنجتن : لست أظن ذلك .

مارتن : وأنا أرى أنه أكثر منه عدالة . فهل تقبل إذن هذا المبدأ فننظر

بعدئذ ماذا تكون نتيجته ؟

هرنجتن : أنا راض به .

مارتن : نتيجة هذا أن الشخص الضعيف الجسم أو البليد الذهن يجب أن ينال من الأجر أكثر مما يناله من هو أقوى منه جسماً أو أشد ذكاءً ، إذا بذل الأول من الجهد أكثر مما يبذله الثاني .

هرنجتن : نعم .

مارتن : وأظن أيضاً أن هذا المبدأ يقضى بأن الأعمال التي يزهد فيها الناس أكثر من غيرها ، والتي هي أكثر من سواها مشقة وإجهاداً ، يجب أن تكون أكثر أجراً ، لأن المبدأ الذي اتفقنا عليه هو أن الأجور يجب أن تتناسب مع ما يبذل من الجهود المضيئة ، لا مع الإنتاج ولا مع المواهب الطبيعية .

هرنجتن : نعم .

مارتن : لكن انظر ! ألا ترى سهام الاقتصاديين الذين يتربصون بنا تنفأثر حول رؤوسنا ؟ فماذا نحن فاعلون ؟ هل نتجاهلها ونستمر فيما نحن فيه ونقر لهم — ولعل ذلك يرضيهم — أن هذا المبدأ كغيره من المبادئ عسير التطبيق في تفاصيله ، وقد يصادفه كثير من الأحوال الشاذة الغامضة ، ولكننا نصر مع ذلك على أننا إذا اتخذناه أساساً نقيم عليه بناء المجتمع أدى بنا من غير شك إلى نتائج تختلف كل الاختلاف عن التي يؤدي إليها غيره من المبادئ ، فهو إذن في حقيقة أمره من المبادئ الهادية التي يؤدي إقرارها إلى نتائج خطيرة ذات بال ؟

هرنجتن : إني على استعداد للسير إلى النهاية ، ولست أخشى الاقتصاديين . (ب) التوزيع حسب
الجدارة
مارتن : لعلك لا تعرف كما أعرف أنا ما لهذه الطائفة من سلطان قوى ،
ولست أحب أن يقفوا في وجهي ؛ لكننا مع ذلك يجب أن نسير في خطتنا
على أحسن وجه نستطيع ، وننجو من معارضتهم إذا استطعنا . لقد كنا
نتحدث عن توزيع الأجور بين الناس الذين يؤدون أعمالا واحدة
أو متشابهة ، وإذا طبقنا هذا المبدأ في هذه الحال حيث يكون نوع العمل
واحداً سواء كان محبوباً أو مكروهاً ، كان علينا أن نقول إن ما يتقاضون
من الأجور يجب أن يتناسب مع جهودهم لا مع إنتاجهم .

استيورت : وكيف تريد أن نحدد هذه النسبة ؟

مارتن : ذلك ما كنت أتوقعه ، وها هو ذا سهم من سهام الاقتصاديين
يُصَوَّبُ إلى ماذا نحن فاعلون ؟

هرنجتن : علينا أن نتقيه ونسير في خطتنا .

مارتن : لا توجد إلا طريقة واحدة نتقيه بها ، وهي أن نُسلم لهم ببعض
الشيء . إني أقر بأن من الصعب أن نقسم الأجور تقسيماً مفصلاً دقيقاً حسب
ما يبذل من الجهود في النوع الواحد من أنواع العمل ، وإذن فلا بد من أن
يوضع للأجور نظام عام توزع بمقتضاه ، ويقوم على أساس القطعة أو الوقت
مثلاً . وإذا استثنينا من هذه القاعدة العامة أشياء كثيرة ، عقدناها تعقيداً
يجعلها غير صالحة للتنفيذ ، وإن كان يصحح أن نخطأ ، ويجب أن نخطأ
بوجه عام ، كيلا يعاقب شخص لسكبر سنه ، أو لأنه أنثى وليس بذكر .
ولا مانع لدى في هذه الحال من أن أضحي بالعدالة التي يقول بها مبدؤنا من
أجل السهولة في تنفيذه ، وأن تدفع الأجور للأعمال حسب مقياس عام ، وأن
يُسمح لهم بأن يستغلوا ما لهم من مزايا طبيعية .

(ب) التوزيع حسب
الجدارة

هرنجتن : افعلى ما تشاء .

مارتن : لكننى بعد ذلك أحب أن أكون شديداً فى تطبيق مبدئنا على الحالة الثانية ، حالة الذين يعملون فى مهن مختلفة . وسيؤدى هذا التشدد إلى نتائج تبدو لنا متناقضة ، ولكننى سأتمسك بها ، ولا أبالى بما يوجه إلينا من مطاعن .

هرنجتن : وما هى هذه النتائج التى تنطوى على هذا التناقض كله ؟
مارتن : لا تنس ما قلناه من قبل ، وهو أن جميع الأعمال التى هى أكثر من غيرها لذة ، وأبعث على النشاط والبهجة ، والتى تستخدم فى أدائها أرقى المواهب ، والتى هى أجدر الأعمال بأن يمارسها المرء لذاتها ، لا تنس أن هذه الأعمال فى نظامنا الحاضر هى على العموم أكثر الأعمال أجراً ، فى حين أن الأعمال الحقيرة المملة الآلية التى تحط من إنسانية المرء لا يكاد يقال القائمون بها من الأجر ما يمسك عليهم حياتهم . أليست هذه حقيقة لا يسهل الاقتصاديين أنفسهم إلا أن يعترفوا بها إذا كانوا على شئ من الصراحة ؟ أرجو أن تصل إلى مسامعهم هذه العبارات التى أقولها من وراء ظهورهم .
هرنجتن : إنى أنا على الأقل لا أجادل فيها .

مارتن : ولكن أليس من الواضح أن الأجور تكون على عكس هذا تماماً فى مجتمع ينظم وفق مبدئنا الذى ذكرناه من قبل ؟ ألا يكون العمل الحقير الممل الذى ينهك الجسم والعقل أعظم الأعمال أجراً ، وتكون الأعمال الراقية التى تبعث اللذة والبهجة أقلها أجوراً ؟

هرنجتن : هذه نتيجة محتومة بلا شك ، وهى تبدو لى عادلة .

مارتن : وإذن سيكون لدينا مقياس للأجور يسير عكس مقياسنا الحاضر ، وقد لا ينال مديرو المصارف أمثال استيورت حسب هذا المقياس الجديد أكثر

من ستة بنسات في الساعة ، في حين أن الذين يعملون في أحواض السفن (ب) التوزيع حسب
الجدارة
قد يتقاضون خمسة آلاف جنيهه في العام .

استيمورت : يجعل بك أن تلين لهم وإلا كنت هدفاً لسهامهم .
مارتن : لقد كنت من قبل ليناً ، ولكنى مصر على اقتراحى هذا ،
وإنى لأجهر به في وجه أعدائى . تقدم يا استيمورت وهات ما عندك .
استيمورت : لیس عندى شىء ذو بال ، وكل ما أريد أن أقوله هو أنك
إذا اتبعت هذا المقياس لم تجد أحداً قط يقوم بالأعمال الراقية .

مارتن : أضحى هذا ؟ ولم لا أجد ؟ إذا وجب عليك أن تختار بين أن
تكون مدير عمل تجارى بأجر زهيد ، أو تكون منظفاً للمجارى بأجر
مرتفع ، ألا تميل إلى اختيار أول العاملين ؟ نعم إنك في الأحوال القائمة اليوم
تطلب لنفسك خمسة آلاف جنيهه في العام لأنك تستطيع الحصول عليها ،
ولكن ما رأيك إذا كنت لا تستطيع الحصول عليها إلا إذا اشتغلت بعمل
تقته وتزدريه ؟ أخرج من عقلك كل الآراء التى اكتسبتها من الأحوال
الحاضرة تر أن المقياس الذى وصفته ليس من السخافة كما يراه البعض .
استيمورت : لكن من الواضح على كل حال — إذا كان لى أن أكون
جاداً معك ولو لحظة واحدة — أن من يقوم بالأعمال الراقية يحتاج إلى مرتب
كبير إذا أريد منه أن يؤديها على الوجه الأكمل .

مارتن : إنى أفترض أن المجتمع الذى أضفه لن يبلغ من البلاهة حدّاً
يسمح له بأن يعرض أجراً يعجز معه من يتقاضاه عن أن يجيد عمله ، ولست
أشك في أنه سيكون من هذه الناحية أكثر ذكاء من المجتمع الذى نعيش
اليوم فيه ؛ ذلك بأن الأمور تجري في هذا المجتمع بحيث يؤجر كثير من
الأعمال الراقية أكثر مما يتطلبه أدائها على الوجه الأكمل ، ويؤجر كثير

(ب) التوزيع حسب
الجدارة

من الأعمال الوضيعة أقل مما يتطلبه هذا الأداء .

استيورت : فانت تعترف إذن بأن مبدأك يجب أن يعدل على أساس هذا
المبدأ الثاني ، مبدأ القدرة على حسن أداء الأعمال ؟

مارتن : لا أشك في هذا . إنى لا أفترض وجود مجتمع مؤلف من جماعة
متعطلين غير عمليين ، بل أفترض أن هذا المجتمع سيذهب إلى بلوغ أكبر
قسط من الإنصاف يتفق مع القدرة على أداء الأعمال ؛ بيد أن اضطراب
الإنسان في بعض الأحيان إلى تعديل مبادئه بعض الشيء لا يقلل من أهمية
الجمهور بها . والآن هل لك اعتراض آخر ؟

استيورت : لى اعتراض واحد ينطوى على جميع الاعتراضات الأخرى ،
وهو أنى لا أستطيع أن أتصور الطريقة التى يجرى عليها هذا النظام ، وكيف
يوضع مقياس الأجور الذى وصفته ؟ وكيف ينفذ ؟ ومن من الناس يعهد
إليهم بوضعه وتنفيذه ؟

مارتن : تلك من غير شك مشكلة عويصة ، وإذا ما أردنا أن نعالجها فقد
نجد أنفسنا مضطرين إلى تعديل مبدأ الإنصاف الذى وضعناه . على أنى
أريد الآن قبل أن نصل إلى هذه المرحلة أن أقرر حقيقة هذا المبدأ كما أراه
أنا ، وأن أرجح الكلام على طريقة تنفيذه إلى ما بعد ذلك . فهل لديك
ما تقوله عن المبدأ نفسه ؟

استيورت : لدى من غير شك . ولدى أشياء بلغت من الكثرة مبلغاً
لا أدرى معه بأيها أبدأ حديثي وبأيها أختتمه . ولكن دونك هذه النقطة
التي هي نقطة أساسية جوهرية : إن نظامك على ما فهمته منه يمنع الربح
والفائدة ، ويحرم توارث الملك ، وبذلك يصبح جمع الثروة مستحيلاً ، ويكون
أكثر أفرادها مالا هم الذين يقومون بأشق الأعمال وأقلها حاجة إلى المهارة .

(٦) علاقة نظام
الملكية بقدرة المجتمع
الحاضر على الإنتاج

(٦) علاقة نظام

الملكية بقدرة المجتمع
الحاضر على الإنتاج

مارتن : هذا صحيح .

استيورت : وماذا يكون الباعث على العمل إذن ؟ إن العالم يظل سائراً
في طريق الرقي من الوجهة الاقتصادية بما يتاح من الفرص لذوى السكفائيات
العظيمة لجمع الثروات الطائلة ، فإذا ما قضيت على هذا الباعث وهنت عزائمهم .
وماذا تكون فائدة كل ما دبرت من نظم لتوزيع الثروة إذا لم يكذب يبق لديك
شيء توزعه ؟

مارتن : ألا يبقى شيء ؟

استيورت : نعم لا يبقى شيء ، يستحق الذكر . ألا تعلم أنك إذا وزعت
الآن دخل هذه البلاد كلها^(١) على أفرادها بالتساوى لم يصب كل واحد من
أهلها أكثر من أربعين جنيهاً ؟

مارتن : لقد سمعت شيئاً يشبه هذا .

استيورت : إذن ألت ترى أن مشكلة توزيع الثروة لا تنكاد تستحق
الذكر إلى جانب مشكلة إنتاجها ؟ وإذا كان مجتمعك بعد إصلاحه سيعطل
الإنتاج فإن نظام التوزيع فيه سيكون عديم النفع أو ما هو شر من ذلك .
مارتن : إن كل من يؤمن ، كما أؤمن أنا وهرنجتون ، بأن الخير في وجود
مجتمع قائم على أساس السعادة المادية ، لا يفكر ما للإنتاج من شأن عظيم ؛
ولكن ليس من يفكر أن هذه ليست من المسائل الاجتماعية ، بل من المسائل
الفنية المحضة ، التي لا تدخل في نطاق بحثنا .

استيورت : كلا إنها مسألة اجتماعية . إنى أرى أن نظام الملكية الذي
يسود المجتمع في هذه الأيام نظام ملائم كل الملاءمة للإنتاج ، وأن النظام

(١) يريد إنجلترا .

(٦) علاقة نظام
الملكية بقدرة المجتمع
الحاضر على الإنتاج

الذى تفرضه أنت لا يلائمه قط .

مارتن : فلننظر هل هو حقيقة كذلك ؟ إن حجبتك على ما أفهمه منها
أن السكسب أهم باعث على الإنتاج ، وأن أحداً لا يبذل جهده فيه إلا إذا
لاحت له فرصة الإثراء .

استيوارت : نعم هذا صحيح في جملته .

مارتن : وهل تقول أيضاً إن أحداً لا يبذل جهده إذا كان في وسعه
أن يحصل على كل ما يحتاجه من غير أن يعمل شيئاً ؟
استيوارت : نعم .

مارتن : وإذن فنظام الملك عندنا حسب قولك هذا لا يلائم الإنتاج ،
لأنه يعطى الناس دخلاً دون أن يتطلب إليهم في نظيره عملاً . ولسنا نجد
للميراث والفائدة والريع مبرراً من هذه الناحية نفسها ، كما لا نجد لها مبرراً
من ناحية التوزيع .

استيوارت : كلا ، كلنا نعرف أن الميراث باعث قوى على الإنتاج ، فهو
يدفع الناس إلى العمل بلا انقطاع وإلى الادخار لأسرهم حتى بعد أن يكسبوا
كل ما هم في حاجة إليه لأنفسهم .

مارتن : وحتى لو كان في هذا من الصدق ، وكان له من الأهمية ما يزعم
الناس عادة ، فإن عليك أن تضع أمامه في السكفة الأخرى تلك الحقيقة
الثابتة المستفادة من حجبتك نفسها ، وهى أن الذين يرتنون الثروات الطائلة
يجدون من ثروتهم ما يثبط من عزائمهم ويقلل من إنتاجهم . ولست أعرف
أى هذين العاملين أقوى من الثانى ، كما لا أعرف كيف يستطيع إنسان أن
يوازن بين قوتيهما ؛ ولسكنى أستطيع أن أقول على الأقل أن ليس من

الأمور الواضحة كل الوضوح هل توريث الثروة باعث أقوى على الإنتاج (٦) علاقة نظام الملكية بقدرة المجتمع الحاضر على الإنتاج أو على عكسه ؟

استيوارت : إن المسألة في غاية الوضوح .

مارتن : أصحیح هذا ؟ كيف وازنت بين الاثنين ؟ على أننى مع ذلك أقر أن نظامنا الحاضر يشجع على بذل الجهود ، لكننى أريد أن أعرف بطريقة أدق كيف يشجع على هذا البذل ؟ وأريد قبل كل شيء أن أثبت أن مصدر الجهود التى تبذل حسب رأيك أنت هو غريزة الجشع .

استيورت : هو كذلك .

مارتن : وهذا الجشع يعمل عمله أولاً بصورة سلبية بين كل من يملك مالا ، قليلاً كان أو كثيراً ، يريد أن يستثمره . ثم يصبح عمله إيجابياً قوياً فى نفوس أولئك الذين يجعلون صناعاتهم خلق المشروعات وتنميتها ، أى مديرى المصارف وأصحاب رؤوس الأموال .

استيورت : وماذا تريد أن تقول بعد هذا ؟

مارتن : أريد أن أقول إن هؤلاء الناس مهما يكن من أمرهم ليسوا هم الذين يبتدعون الآراء ، فليسوا هم المخترعين والمستكشفين ، بل إن الذين يخترعون ويستكشفون صنف آخر من الناس يختلف عنهم كل الاختلاف ، ويطلق عليهم هؤلاء اسم رجال العلم النظرى غير العملى استهزاء بهم ؛ وتحرك هؤلاء العلماء عاطفة يستهزئ بها الأولون أيضاً إذا استطاعوا أن يفهموها ، وهى حُب الحقيقة . فلم يكن دالتن Dalton^(١) وفراداي Faraday^(٢)

(١) John Dalton ١٧٦٦ — ١٨٤٤ عالم طبيعى وكيميائى إنجليزى واضع أساس النظرية الذرية .

(٢) Michael Faraday ١٧٩١ — ١٨٦٧ عالم طبيعى وكيميائى إنجليزى ، كان =

ولم يكن كلارك مكسول Clark Maxwell^(١) وكلفن Kelvin^(٢) من مديري المصارف ولا من أصحاب رؤوس الأموال ، ولم يكن الشره وحب المال هو الذى يحركهم ويدفعهم إلى العمل ، ولكن أثرهم هم وأمثالهم فى الإنتاج أقوى من كل أثر آخر .

(٦) علاقة نظام الملكية بقدرة المجتمع الحاضر على الإنتاج

استيورت : أسلم بأنهم هم الملجأ الأخير للإنتاج ، ولكن الرأسماليين هم الذين يدفعون الناس إلى استخدام المخترعات والمستكشفات فى الفنون العملية ، وهم الذين يمدونهم بما يحتاجونه لهذا الغرض من وسائل مادية ومن ذكاء .

هرنجتن : نعم لكن يخلصوا أنفسهم بالمكسب كله ويعتصروا ذهن المخترع . إن وظيفة المالى — ومن ورائه الجمهور المتعطش إلى أرباح الأسهم والسندات يظاهره ويؤيده — أن يستغل العبقري ويسلبه حقه فى ثمرة عمله .

== والده حداداً واشتغل هو أولاً بصناعة تجليد الكتب حتى عين فى عام ١٨١٣ فى منصب صغير فى المعهد الملكى فى بريطانيا العظمى ، وبدأ من ذلك الوقت يقوم بأبحاثه العظيمة فى المغنطيسية والكهرباء .

(١) James Clark Maxwell ١٨٣١ — ١٨٧٠ عالم طبيعى بريطانى . كان أستاذاً للطبيعة والفلك فى جامعة أبردين Aberdeen ثم فى جامعة لندن ثم عين أستاذاً لعلم الطبيعة التجريبي فى كمبريدج سنة ١٨٧١ ، وأهم أبحاثه فى الكهرباء والمغنطيسية وفى إدراك الألوان .

(٢) Baron William Thomson Kelvin ١٨٢٤ — ١٩٠٧ عالم طبيعى إنجليزى . كان أبوه أستاذاً للرياضيات فى جامعة جلاسجو وتعلم هو فى إنجلترا وباريس ، وعين فى عام ١٨٦٤ أستاذاً للفلسفة الطبيعية فى جامعة جلاسجو ، وظل يشغل هذا المنصب الخطير ٥٣ عاماً اعترف له الناس خلالها بأنه من أعظم علماء الطبيعة فى عصره . وأهم ما يعرف به أبحاثه فى الكهرباء وبخاصة فى إرسال الرسائل البرقية تحت الماء . وقد اشتهر بتشجيعه الأبحاث العلمية وكل باحث مهما يكن صغيراً ، وقد عين فى عام ١٩١٤ مديراً لجامعة جلاسجو .

استيورت : في وسعك أن تعبر عن عمله هذا التعبير إذا أردت ، ولكنني أصر على أنه عمل نافع ، ولا غنى للمجتمع عنه .
مارتن : ولكن عمل قد يستطاع أداؤه بطريقة أخرى أنفع للمجتمع .
استيورت : هذا ما أنكره .

مارتن : ولكن عليك أن تذكر أن العامل الوحيد الذي يحرك المستغل هو جمع المال لنفسه في الأصل ، وللملة أسهمه عرضاً ، ولذلك تراه هو وحده أسهمه على استعداد دائم لجمع المال مهما كلف جمعه المجتمع ، وسواء عليه أكان ما يؤدي إليه ذلك الجمع خيراً أو شراً ، ما دام في مقدوره أن يحمل الناس على طلبه بطريقة ما ، حسنة كانت هذه الطريقة أو سيئة . فهو على استعداد لتسميم المجتمع بقدر ما هو على استعداد لإطعامه ، إذا استجاب المجتمع إلى دعوته له أن يتسم ، وهو يستجيب لهذه الدعوة مع الأسف الشديد .

استيورت : إن مصدر هذا الشر هو أن للناس رغبات فاسدة ، وليس مصدره أن غيرهم يهيئون لهم سبيل إشباع هذه الرغبات .

مارتن : إن ما أريد أن أقرره هو أن نظام الإنتاج بيننا يولد في الناس الرغبات الخبيثة كما يولد فيهم الرغبات الصالحة ، ويدفعهم إلى ذلك شره غيرهم من الناس الذين لا يتحملون تبعه ما يعملون ، ثم تتحول هذه الرغبات إلى مطالب قوية فعالة . ذلك لأن من واجبنا أن نذكر على الدوام أن الطلب يحدد العرض بقدر ما يحدد العرض الطلب على الأقل ، وأن أصحاب العقول الذكية إذا تسلحوا برؤوس الأموال استطاعوا أن يبدلوا أذواق الأمة وأخلاقيها تبديلاً لا يقف مداه عند حد . ويرى الإنسان هذا كلما اتصل الغرب بالشرق ، فتكون النتيجة العاجلة لهذا الاتصال انعدام

(٦) علاقة نظام
الملكية بقدرة المجتمع
الحاضر على الإنتاج

أثر الذوق والجمال في الفنون ، وحلول البضائع الغربية المنحطة محل البضائع الوطنية الراقية ، بفعل عاملين هما الشرة من جهة وانخفاض أثمانها من جهة أخرى .

استيورت : إن كل ما يفعله الرأسمالي في هذه الحال هو أن يشبع رغبات كانت قائمة في نفوس أهلها من قبل تنتظر الإشباع .

مارتن : أو قل إنه يضرب على النغمة التي يفضلها هو ، وإن هذه النغمة خليقة بأن تكون منخفضة منحنية . بل أقول أكثر من هذا ، أقول إنه حين يشرع في معاملة الشعوب غير المتمدينة يختار لها رقصة الموت ^(١) لأنه يعتمد وهو مرتاح الضمير أن يهلكها عن آخرها بما يقدمه لها من خير رخيص ، إلا إذا حالت السلطات العامة بينه وبين غرضه . على أنني لن أفصل القول في هذه النقطة ، وحسبي أن أطلب إليك أن تذكرها على الدوام ، وأن تجعلها أحد أجزاء القضية ، وأن تذكر معها هذه النقطة الأخرى وهي أنه ليس من أغراض الرأسمالي أن يحسن التصرف في موارد أي مجتمع ؛ فإذا استطاع أن يوزع أرباحا على حملة أسهمه مدة خمسين سنة مثلا فذلك كل ما يهمه ؛ أما مستقبل البلد أو المجتمع ، فذلك أمر لا قيمة له عنده ، لأنه إن يكون حيا في ذلك المستقبل ليمتز فيه المال . فتراه مثلا يسرع وهو مضطرب كالحموم إلى استغلال موارد الثروة الطبيعية مهما أصاب المجتمع في سبيل ذلك الاستغلال من الضرر . فهو يبحث غاباتها ، ويستنفد معادنها ، ويفسد مناخها ، ويقضى على أجسام أبنائها وأرواحهم ، كما فعل الرأسماليون في هذا البلد نفسه وفي سائر البلاد الأخرى في أثناء الانقلاب الصناعي حتى

(١) رقصة الموت مجموعة من الصور الرمزية تمثل ما للموت من سلطان قوى على الناس كلهم ، ويرى الموت فيها في صورة هيكلي عظمي .

(٦) علاقة نظام
المسكية بقدرة المجتمع
الحاضر على الإنتاج

وقفت الدولة في سبيلهم ، وكما يفعلون الآن أمام أعيننا في ولاية السكنفو
الحرّة^(١) . ولا حاجة بنا إلى ذكر بلاد أخرى أقرب إلينا من تلك البلاد
النائية ، يفعلون كل هذا بلا رحمة ولا حياء ، ولا تفكير في عواقبه ، ولو تبين
لهم من أعمالهم الحسابية القصيرة النظر أن من مصلحتهم أن يفكروا فيه .
استيورت : إنك تجعل الرسمى وحشاً فظيعاً .

مارتن : كلا ، إن مما يحمد عليه أنه أب طيب لأسرته ، يتردد على
السكنائس للصلاة ، ويعطى الصدقات للفقراء ، ويمارس الألعاب ويجلس
في البرلمان ، وليس هو أسوأ منك أو منى أو من أى مساهم أو حامل للسندات
المالية ؛ ولكن النظام الذى يقضى بأن يكون هذا هو الباعث على الإنتاج
والموجه له يؤدى حتماً إلى هذه العواقب ، وهى عواقب يجب أن يحسب
حسابها عندما ننظر إلى أثرها غير المنكور في تنمية الجهود وتقوية الذكاء .
استيورت : أظنك تبالح في هذا كثيراً

مارتن : ذلك يا عزيزى استيورت ما تعترض به علىّ في كل ما أقول ! قد
أكون مبالغاً وقد لا أكون ، فليس لدينا ميزان وزن به مقدار ما في أقوالنا
من الصدق ، وحسبى أنى قد أذكرتك بما لا تستطيع أن تنكره وأنت
مرتاح الضمير ، وهو أن الوسائل التى نتبعها لتسخير العالم وأهله لمطامع رأس
المال وشرهه قد تؤدى إلى هذه العواقب الوخيمة ، وإلى غيرها مما أستطيع أن
أذكره ، كالتلف الناتج من المنافسة والإعلان ، وزيادة الإنتاج والغش
والعمولة ، وما إلى ذلك . ولكن ما قلته الآن يكفي لتذكيرك أن الثمن
الذى نشترى به ما نتبعه من الوسائل لتشجيع الإنتاج ثمن باهظ لا يطاق .
استيورت : لا شك في أن لهذه الوسائل أضرارها كما أن لها منافعها ،

(١) المعروفة في هذا الوقت باسم السكنفو البلجيكية .

(٦) علاقة نظام
الملكية بقدرة المجتمع
الحاضر على الإنتاج

فهى دائمة ومدينة فى وقت واحد .

مارتن : نعم إن لها أضرارها ، وهى أضرار كثيرة لم نفرغ بعد من ذكرها
مجملة ، لأننا إذا انتقلنا الآن من ذكر المقاولين والرأسماليين المستثمرين وأعمالهم
وأساليبهم إلى ذكر العدد الجم من العمال روعنا ما نرى من تلف عظيم .

استيورت : أين نرى التلف بالضبط ؟

مارتن : أذكر بادية ذى بدء ذلك العدد الجم من الفقراء الذين تعولهم
الدولة ، وهؤلاء ليسوا بطبيعة الحال من المنتجين .

استيورت : إن معظم هؤلاء من الشيوخ والمرضى الذين لا يقوون على
الإنتاج فى أى نظام وضعته .

مارتن : وثمة طائفة كبيرة من المتسكعين الأفاقين الذين يقتلون الوقت
بلا عمل .

استيورت : نعم .

مارتن : وهناك عدد جم من المتعطلين الذين لا يجدون عملاً فى جزء من
العام على الأقل .

استيورت : نعم وهذا أمر يؤسف له كل الأسف ، ولكن هذا ليس أثراً
من آثار نظام الملكية .

مارتن : قد لا يكون من آثاره المباشرة ، ولكنه من آثاره غير المباشرة .
إن البيوت غير الصالحة ، والتعليم الفاسد ، وانعدام فرص العمل ، وألم الحاجة
أى الفقر ، هذه كلها لا تقل أثراً عن الرذيلة الأساسية — أى رذيلة الملكية —
فى خلق طبقة من الناس لا يستطيع استخدامهم فى عمل من الأعمال . والفقر
هو الطرف الآخر المقابل للغنى ، وكلاهما مظهر من مظاهر الملكية . وأما
الأشخاص المتعطلون تعطلا موقوتاً فهؤلاء أيضاً من ضحايا ذلك النظام الذى

يعطى الأفراد الذين يعملون لمصالحهم الخاصة السيطرة على موارد الأرض الطبيعية وتثمار العمل المتجمعة ، ثم يعفيهم في نفس الوقت من كل تبعة عامة عن هذه الوديعة . والحق أنك لا تجد حقيقة من الحقائق الاقتصادية يصح أن تفصل عن نظام الملكية ، وإذا كنت تعزو إليها ما تسميه منافع لها فعليك أن تسمح لي بأن أبين لك مساوئها .

استيورت : أنا لا أمتنع من هذا .

مارتن : إن عليك إذن أن تذكر في مقابل ما تدعيه لنظام الملكية من عون على الإنتاج أنها السبب في وجود عدد كبير من الناس ليسوا في حاجة إلى أن يعملوا ، وعدد آخر مثلهم لا يريدون أن يعملوا ، وعدد آخر لا يقل عنهم لا يستطيعون أن يعملوا .

استيورت : ومع ذلك فإن من الإنصاف أن نقول إن هؤلاء هم الشواذ .

مارتن : فلنسلم بهذا ، ولننظر إلى ما نستطيع أن نسميه أمراً عادياً مألوفاً أى إلى الطائفة الكبرى من المجدين النشطين العاملين . لا شك في أن السكثرة العظمى من هؤلاء لا يدفعها إلى العمل الدائم أملها في الثراء ، بل تدفعها إليه حاجتها الملحة إلى كسب العيش . هؤلاء لا يدخرون شيئاً ، وإذا انقطعوا عن العمل تعرضوا للهلاك جوعاً . هؤلاء يضطرون لنظام الملكية إلى العمل كما يضطر الثور إلى العمل في المحراث ، ولكفنا إذا سألنا هل عملهم هذا يؤتي الثمرة التي يؤتيها في ظروف غير الظروف الحاضرة ، كان الجواب في رأبي مشكوكاً فيه كثيراً .

استيورت : ولم هذا ؟

مارتن : أولاً لأنك لا تجد فيهم من نال كفايته من التعليم ، ولذلك لا تمكنهم أحوالهم من أن ينتفعوا بما عسى أن يكون لهم من قوى على

(٦) علاقة نظام الملكية بقدره المجتمع الحاضر على الإنتاج

(٦) علاقة نظام
الملكية بقدرة المجتمع
الحاضر على الإنتاج

الوجه الأكل . وهل يستطيع أحد أن يقدر ما يخسره المجتمع من الثروة
بسبب هذا العامل الوحيد ، وهو نقص الذكاء وقوة الابتكار بين طبقة العمال ؟
استدورت : إن لدينا مدارس أولية عامة لتعليمهم .

مارتن : لا شك في هذا ولا في أننا بهذا العمل قد خرقنا مبدأ نظام
الملكية عندنا ، وأدخلنا فيه عنصراً من عناصر الاشتراكية سيزداد قوة على
مر الأيام . ولكن التعليم الذي يتلقاه أبناء العمال في تلك المدارس في هذه
الأيام لا يعوض الضرر الذي يصيبهم من جراء إقامتهم في بيوتهم الحظيرة ؛
فالفقير يعطل في الناس جزءاً كبيراً من قدرتهم على الإنتاج . وإذا غضضنا
النظر عن هذا وجدنا السكينة الغالبة من الأجراء لا تجد أمامها أملاً في الرقي
يدفعها إلى أن تبذل في الإنتاج كل ما وهبت من قوة ، فأفرادها مضطرون
إلى العمل ، ولكن لا شيء يغريهم على أن يبذلوا فيه كل جهودهم . لست
أنكر مطلقاً أن الرجل حتى في أوربة نفسها يستطيع أن يرقى من أدنى
طبقات المجتمع إلى أعلاها ، ولكنه يلقى في سبيل هذا الرقي صعاباً جمة ،
ويحتاج إلى مواهب وأخلاق غير عادية ، والفرص التي تتاح له قليلة ، ولذلك
فإن الدافع إلى هذا الرقي لا تشعر به إلا أقلية ضئيلة هي والعدم سواء .
ومن ثم يمكن القول بوجه عام إن الأجراء أعضاء من طوائف محصورة
في نطاق مغلق ، ينتهون فيه غالباً حيث يبدأون ، ولا يتقاضون في
مقابل عمرهم أكثر من الأجور التي كانوا يتقاضونها في حداثة سنهم .
أما أيام الشيخوخة فأكبر الظن أنهم سيقضونها في الملاهي ؛ فهم في نظامنا
الحاضر مضطرون إلى العمل اضطراراً ، وإلى هذا الحد يشجع هذا النظام
الإنتاج ؛ ولكنك لا تجد باعثاً يدفعهم إلى غير العمل الآلى الذي يقومون
به كارهين ، لا ينسبر سبيلهم شعاع من الطموح أو الأمل ، وليس أمامهم

مستقبل زاهر واسع يدعوهم إلى العمل . وما أكبر الخسارة التي تصيب
الإنتاج لهذا السبب .
(٦) علاقة نظام
الملكية بقدرة المجتمع
الحاضر على الإنتاج

استيورت : لا شك في أن ثمة بعض الخسارة .

مارتن : لن أجادلك في مقدار هذه الخسارة ، ولكنك إذا حسبت
كل ماقلته فإذا يبقى من ادعائك أن نظامنا مما يلائم الإنتاج بنوع خاص ؟
أظن أن الذي يبقى من هذا الادعاء هو أن القلة التي تنال حظاً وافراً من
التعليم ، وتبدأ في الحياة بداية طيبة ، والتي لا تمت قواها سهولة العيش لديها
ولا تفسدها الثروة الطائلة ، هذه القلة تستطيع أن تشق بذكاها طريقها في
الحياة ، وأفرادها هم الذين يحسون بأن ثمة جزءاً عظيماً ، فيدفعهم هذا
الإحساس إلى العمل ؛ ويغريهم بالعمل في ضروب من الإنتاج المادي مزيج
من الفرصة المتاحة والحاجة والطموح ، قد لا يهيئ لهم أي نظام آخر غير
نظامنا الحاضر . أولئك هم الذين يصبحون عندنا منظماً المشروعات
الكبرى والماليين وزعماء العمال ، وأولئك دون سواهم هم الذين يستلغتون
أنظارنا فنعدهم رمزاً لمجتمعنا كله ونمطاً له ، ونفسي أنهم ليسوا فيه إلا قلة
ضئيلة ، وأن الكثرة الغالبة من الناس لا يتاح لها من الفرص ما يتاح لهذه
القلة ، ولا تحركها نفس البواعث التي تحرك هذا العدد القليل من الناس ،
فتدفعه إلى أن يستثمر هذه الفرص خير استثمار .

استيورت : قد يكونون قلة ، ولكنهم قلة جلييلة الشأن عظيمة الخطار ،
وهي عماد كل زيادة في رخاؤنا المادي .

مارتن : لن أجادل في هذا ، ولا أشك في أن كل مجتمع يعجز عن الاستفادة
من أفراد هذه الطائفة أكثر مما تستطيع كفاياتهم أن تؤديه له مجتمع

فقير ، ولا في أن هذه الإفادة قد تكون في مقدور ذلك المجتمع الحسن النظام
الملكى بقدرة المجتمع الحاضر على الإنتاج (٦) علاقة نظام
الذى نتخيله .

استيورت : لست أعرف السبيل إلى هذا .

مارتن : أظن أن في وسع هرنجتن على الأقل أن يقول جواباً عن هذا إن
الأمر لا يحتاج إلى أكثر من تنشئة طبقة من الخترعين والمنظمين ،
وإعطائهم العمل اللائق بهم فتحل المشكلة على الفور . ويلوح أن مجتمعه
هذا لن يكون في حاجة إلى الأجر المالى ليحمل أفرادها على العمل ، بل يحتاج
إليه فقط ليتخذ وسيلة تستمد منها كل طائفة من العمال ما تحتاجه من الموارد .
أليس كذلك ؟

هرنجتن : بلى ، أظن ذلك .

استيورت : لا شك أن هذا رأيك ! إن هرنجتن يفترض صحة جميع القضايا
التي يجب إقامة البرهان على صحتها ، ولكنه من غير شك لا يظن أن سامعيه
يعتقدون أنه جاد فيما يقول .

مارتن . وهل يتضمن هذا أنك تعتقد أنى جاد فى أقوالى ؟

استيورت : إنى أعترف لك بأنى لا أظنك جادا كل الجد . على أنك مع
ذلك لا تبدو مثله سابحاً فى بحار الأوهام .

مارتن : أشكر لك هذا ، ولك فى نظير ذلك ألا أصر كل الإصرار على
النظام الذى قلت به ، نظام تنشئة أبناء المجتمع على أن يبلغوا كلهم مستوى
عاماً عالياً ، ولكنى أطلب إليك أن تذكر أن كل ما عساه أن يوجد فى
المجتمع الذى أدعو إليه ، والذى تنعدم فيه الفروق بين الطبقات ، من مزايا
التعليم والفرص سيوزع توزيعاً عادلاً بين أفرادها جميعاً حسب اختيارهم
ومواهبهم ؛ وفى وسعى أن أظن لهذا السبب أن سيوجد فى هذا المجتمع

مستوى من الذكاء ومستوى من الحياة وشعور باتساع الآفاق أعلى مما نشاهده الآن بين الكثرة الغالبة من العمال ؛ وليس هذا في الحقيقة وهما وخيالا .
(٦) علاقة نظام الملكية بقدرة المجتمع الحاضر على الإنتاج

استيورت : وأى شىء ينتج من هذا ؟

مارتن : أظن أن الذى ينتج منه هو أن هذا الذكاء الجديد ، وهذا النشاط الجديد ، يستخدمان فى كل فرع من فروع العمل إلى حد قد نعجز عن إدراكه فى الوقت الحاضر . ذلك أن طوائف الشعب التى تكدح الآن كدحا لا يخفف من عبثه شىء من الأمل أو اللذة تبدأ عندئذ أن تفكر فى عملها وتنظر فى مشاكله ، وتحاول السيطرة على طريقه وإصلاحها ، وبالجملة تصبح خلقاً من البشر ذوى مواهب إنسانية لا مجرد آلات حية .

استيورت : ولم يحدث كل هذا ؟

مارتن : يحدث كل هذا لأنهم سيديرون تدريباً خيراً من تدريهم السابق ، ولأن ما يشعرون به من نقص فى أنفسهم ، وظلم واقع عليهم ، ومن أنهم مجرد « أيد » عاملة ، كل هذا سيختفى ولا يبقى له أثر فى الوجود ، ويصبحون بعدئذ مواطنين فى المجتمع يتحملون ما فيه من تبعات ، ويشعرون أنهم كذلك ، وأن شأنهم فيه لا يقل عن شأن غيرهم ، ويعاملون فيه معاملة عادلة قائمة على نظام يعرفونه ويرضون عنه ، ويعملون هم أنفسهم على الاحتفاظ به . وسينمو بين جمهور الشعب ذلك الشعور الوطنى الذى لا وجود له بينهم الآن ، والذى يتعذر وجوده فى مجتمع فيه من الفوضى والظلم ما فى مجتمعنا الحاضر ، وسيقوى هذا الشعور الوطنى ويبلغ غايته . وإذا أضفت إلى هذا أنهم بعد أن يصبحوا متعلمين أذكىاء سيستخدمون مواهبهم لمجرد أنهم يسرهم أن يستخدموها ، وأن الكثيرين منهم سيبلذ لهم أن يستخدموا هذه المواهب فى الأعمال التى اختاروها لأنفسهم ، إذا أضفت ذلك كله فلا أظنك

(٦) علاقة نظام
الملكية بقدرة المجتمع
الحاضر على الإنتاج

تخالفنى فى أن ما قد يخسر المجتمع من انعدام فرص جمع الثروات الطائلة
سيمعوضه ويرجح عليه ما يستفيد من هذه البواعث والقوى الجديدة .
استيورت : ربما كان ذلك .

مارتن : واسمح لى أن أوصل القول فيما تسميه أنت خيالاً ، وما أظنه أنا
إدراكاً فطرياً عاماً . من رأى أن الناس القادرين على العمل لا يعنون بالمال
إلى الحد الذى تظنهم يعنون به ؛ فهم يقدرون المال على أنه مقياس النجاح ،
ولكن لنفرض أن المال لم يعد مقياس النجاح ، لنفرض أن المقاييس تغيرت ،
وهى لا بد أن تتغير حتماً إذا ما سنت للمجتمع نظم كالنظم التى أتخيلها ، فما
الذى يبعث النشاط فى رجلك القادر على العمل حينئذ ، ذلك الرجل الذى
يجمع الآن ملايين الجنيهات ؟ ألا تظن أنه يكفيه باعثاً على النشاط وبذل
الجدد أن يقر له مواطنوه بخدماته إقراراً قد يكون فى صورة ألقاب الشرف
والتعظيم ، ولكن خير ما يعبر به عنه هؤلاء المواطنون هو إكبارهم لشخصه
وإجلالهم لحكمته ؟ ألا هل تظن يا عزيزى استيورت أن الناس حتى فى
وقتنا الحاضر قد انحطوا حقاً إلى ذلك المستوى الذى تضعهم فيه أنت ومعظم
الاقتصاديين ؟ ألسنت تعتقد أننا جميعاً نزرع تحت أثقال كابوس مرعب
سيزول حتماً ، ولكنه الآن يهزأ بنا ويطمس على قلوبنا ؟

استيورت : لا أستطيع أن أقول شيئاً فى هذا . إنى أقدر الناس كما أراهم .
مارتن : إن أحاول أن أستدرجك إلى الاعتراف بأراء خيالية مثالية ،
ولكن ألا تعترف على الأقل بعد كل ما حدثتلك عنه أن ليس من الأمور
الواضحة كل الوضوح ، كما كنت تفترض أول الأمر ، أن المجتمع الذى
أريد أن أقيمه سيمصيه الخسران المبين حتماً لنقص قدرته على الإنتاج ؟
استيورت : قد لا يكون ذلك واضحاً ولكننى لا أزال أظنه جائزاً .

مارتن : لا بد لي أن أترك المسألة عند هذا الحد وأنتقل إلى النقطة الثانية . § ٥ الحكومة
لقد عرضنا بوجه عام إلى ما نعتقد أنه النظام المُنصف لتوزيع ثمار العمل ،
وحاولنا أن نرد على الاعتراض القائل إن المجتمع الذي يسير على هذا النظام
يكون أقل إنتاجاً من مجتمعتنا الحاضر ، ولكن لا يزال أمامنا مشكلة
عويصة هي التي أثرتها أنت من قبل وهي طريقة المحافظة على هذا النظام
بعد إنشائه .

استيورت : نعم كيف يُحكم مجتمعتك هذا ؟ وإن شئت كيف يُحكم مجتمعتك
هذا نفسه ؟

مارتن : إن ثمة سؤالاً يجب أن نسأله قبلُ إذا شئنا أن نسللك سبيل
المنطق ، وهو هل من الضروري أن يكون لهذا المجتمع حكومة أيا كان
نوعها ؟

استيورت : ماذا تعني بهذا ؟ لا شك في أن المجتمع يجب أن تكون له
حكومة .

مارتن : ولكن ما هي الحكومة ؟ أي التي تحرك المجتمع حقيقة في نهاية
الأمر ؟ أليس كل مجتمع تحركه عاداته وحاجاته ورغباته ، وهي التي تنتج
كلها ما نسميه إرادته ؟

استيورت : ولكنني أظن أن الحكومة هي الإفصاح النهائي عن هذه
الإرادة .

مارتن : لا شك في أنها ليست هي الإفصاح الكلي عنها ، فهي وإن
حددت معظم نواحي نشاط الناس في كل مجتمع متمدن لا تبين معظم هذه
النواحي مفصلة . ألا ترى أن التعاقد الاختياري ، والاجتماع الاختياري
هما اللذان يحددان معظم علاقات الناس بعضهم ببعض ، حتى في مجتمعتنا

(١) هل الحكومة لازمة ؟

الحاضر الذى بلغت فيه الشرائع ما بلغت من الإلتقان والتعقيد ؟ فالفاس يبيعون ويشترون ، ويستأجرون ويستأجرون ، ويجتمعون فى عملهم ولهم وتعليمهم ، بطرق معقدة لا حصر لها تحددها لهم حاجاتهم ورغباتهم . والصور التى تتم بها أعمالهم ، والقيود العامة التى تفرض على هذه الأعمال ، قد تعينها لهم القوانين التى تفرض العقوبات المختلفة على من يتخطاها ، ولكن ما يحصل فى كل حالة على حدة من تراض وتوافق يتم بين أفراد يتعاقدون ويجتمعون ؛ وهم قد يتخطون فى سبيل الوصول إلى أغراضهم حدود الأقطار والأمم ، ويؤلفون فيما بينهم شبكة معقدة من الصلات الاجتماعية والاقتصادية ، ويعيشون فى ظل شرائع مختلفة وحكومات متباينة .

استيورت : هذا صحيح من غير شك .

مارتن : يبدو إذن فى ظاهر الأمر أن ليس فرضاً علينا أن نعتقد أن الحكومة من الضرورات التى لا غنى للمجتمع عنها . وعلينا أن نبحت هذه المسألة بحثاً وافياً لنرى هل هى لازمة له أو غير لازمة قبل أن نفكر فى الصورة التى يجب أن تكون عليها .

استيورت : إن هذا السؤال من غير شك سؤال نظرى محض ، فليس ثمة إنسان يشك فى أن الحكومة شئ لا غنى عنه .

مارتن : إن الفوضويين لا يشكون فى ضرورة وجودها وحسب ، بل يفكرون ذلك إنكاراً صريحاً .

استيورت : ولكنى أرجو ألا نتصح بنصائح هؤلاء ، أو نستمد آراءنا منهم .

مارتن : سنستمد آراءنا ، كما استمددناها حتى هذه الساعة ، من حججنا ؛ وأنا أريد أن أعرف من طريق البحث ، لا من طريق التسليم ، هل

الحكومة لازمة أو غير لازمة ؟ وأريد قبل كل شيء أن نسأل أنفسنا (١) هل الحكومة
لازمة ؟ كيف تختلف القواعد التي تضعها الحكومة عن القواعد التي يضعها الناس
لأنفسهم في جماعاتهم الاختيارية التي تكلمنا عليها توتاً ؟

استيورت : لا شك في أن الفرق بينهما هو أن الأولى ليست اختيارية ،
فهى توضع للناس وتفرض عليهم ويخضعون لها ، وإلا حق عليهم العقاب .

مارتن : فأنت تقول إذن إن الإرغام هو جوهر الحكم ، وإذا كان هذا
الإرغام لازماً فما ذلك إلا لأن في المجتمع خلقاً يريدون أن يخرقوا القواعد
والقوانين ، وهم يعملون على خرقها إلا إذا صدم الخوف عن أغراضهم .

استيورت : لا شك في هذا ، إن في المجتمع على الدوام طبقة من الأشرار
مارتن : نعم ولكن لم وجدت هذه الطبقة ؟ إذا كان الناس يريدون
أن يخرقوا القوانين فما ذلك إلا لأنهم لا يرون أنها في مصالحهم ، وإذا
لم تكن في مصالحهم ألا تكون خاطئة بوجه من الوجوه ؟

استيورت : اسمح لى أن أسألك أنتستحق المسألة هذا الاستقصاء كله ؟
لا بد أن يكون واضحاً لك ، كما هو واضح لى ، أن الخطأ ليس فى القوانين
بل فى طبائع الناس .

مارتن : أنا آسف لأن البحث يبدو مملاً ، ولكن الذى يدعونى إلى
إثارة هذه النقطة هو أن الأمر ليس واضحاً لى قط ؛ ذلك بأننى لا أرى
ما يدعونى إلى الاعتقاد بأن القوانين التي تضعها الحكومات فى هذا الزمن
أو كانت تضعها فى أى زمن سابق تعمل من جميع الوجوه ، أو من معظم
الوجوه ، على ترقية مصالح المجتمع الحققة . وليس كل ما أقصده بهذا أن المجتمع
قد لا يدرك مصالحه الحقيقية ، وإن كان من المحتمل جداً بطبيعة الحال أن
يكون هذا هو الواقع ؛ ولكنى سأغض النظر عن هذا وأقرر بعدئذ أن ليس

(١) هل الحكومة
لازمة ؟

ثمة ما يبرر الافتراض أن الحكومات كانت في أى زمن من الأزمان تعمل
لخير المجتمع ؛ بل إن ثمة من الأسباب القوية ما يؤيد عكس هذا القول ،
وما يحتملنى على أن أنكر أن خير المجتمع كان هو الغرض الذى تعمل له .
استيورت : لست مؤرخا ، ولكن يبدو لى من ظاهر هذا القول أنه قول
غريب كل الغرابة .

مارتن : كلما أمعنت فى دراسة التاريخ زدت يقيناً بأن هذا القول هو
الحقيقة بعينها ، مهما بدا لك من غرابته . ذلك أن جميع الحكومات التى
قامت حتى هذه الأيام كانت كما قلنا من قبل فى يد طبقة من طبقات المجتمع ،
وكانت تعمل لمصلحة طبقة من طبقات المجتمع ، وكان أول ما تعنى به هذه
الحكومات هو مصالح تلك الطبقة ذاتها . ولقد كان غرض القائمين بها
الأول ، إن لم يكن غرضهم الأوحد ، أن يظلوا هم الحاكمين المسيطرين
أصحاب الثروة فى المجتمع ، وأن يظل غيرهم يكدحون لمنفعتهم هم . وهذا
يصدق على كل الحكومات سواء منها التى يسمونها ملكية مطلقة أو
دمقراطية أو أجزكية ؛ وكان خير الملوك غير المقيدين أمثال فردرك الأكبر^(١)
أو جوزف الثانى^(٢) يقصدون بكل ما يسنونه من الشرائع أن يؤبدوا
الفروق القائمة بين من يعملون ويطيعون من جهة وبين من يمتلكون

(١) فردرك الأكبر ملك بروسيا بين سنتي ١٧٤٠ ، ١٧٨٦ وكان من ملوك العالم
المتبدين العادلين . قضى حياته فى الجهاد والنضال لرفع بروسيا إلى مصاف الدول
الأوربية العظمى . وقد أصالح أحوالها الداخلية ووسع أملاكها فى أوربة واشتبك من
أجل ذلك فى عدة حروب خارجية أنهكت قوى مملكته . ومن أحسن ما كتب عنه مقال
مكولى Macaulay ومقال كارليل .

(٢) Joseph II ابن فرنسيس الأول ومربا تريزا ، توج إمبراطورا على الرومان فى
عام ١٧٦٤ وتولى عرش الإمبراطورية المقدسة فى عام ١٧٦٥ ، ومن أهم إصلاحاته إصداره
قانون التسامح الدينى فى عام ١٨٧١ وإلغاء رق الأرض .

ويحكمون من جهة أخرى . ولقد كانت الديمقراطيات الشهيرة في الأزمنة (١) هل الحكومة القديمة تقوم على أساس الاسترقاق^(١) ، ولم تقم قط حكومة تعمل لخير الناس كلهم ، وأقصّد بالعمل لخير الناس أن تتيح لكل فرد من الأفراد ما تتيح لغيره من الفرص ، وأن تنصفه بأن تعطيه أجراً كافياً عن عمله .

استيورت : فلندع الآن التاريخ وشأنه ، وأنت تعرف منه أكثر مما أعرف ، وأسألك هل تعتقد أن ليس بين الحكومات القائمة في هذه الأيام حكومة تعمل لخير المجتمع ؟

مارتن : إذا صح ما قلناه من قبل ، وهو أن المجتمعات الحاضرة مجتمعات بلوقراطية يمتزج بها نوع من الأقلراطية ، فليس لهذا النوع الذي تسأل عنه وجود ؛ لأن الحكومات إنما تعمل لبقاء النظم التي تخلق هذه الصورة من صور المجتمع ، وتبذل جهدها لتخليدها . وإلا فقل لي هل ترى حكومة من الحكومات تعمل جادة لتبديل هذه النظم ؟

استيورت : إنني أرى في كل الحكومات من الميول الاشتراكية أكثر مما أحب .

مارتن : لست أنكر أنه قد يكون في العالم الآن حركة تُرى لأول مرة في التاريخ وترى إلى تحويل المجتمع إلى مجتمع ديمقراطي حق . لست أنكر هذا ، وهو في الواقع ما أرجوه ؛ ولكن الحكومات في هذه الأيام ، وقد كانت على الدوام ، مرآة تنعكس عليها صورة المجتمع الذي تقوم فيه ؛ فهي أولاً تثبت النظم البلوقراطية ، وهي لهذا السبب ، كما كانت كل الحكومات السابقة ، حكومات تتولاها طبقة خاصة لمصالحها هي ، وتلك طبقة الأغنياء .

(١) اقرأ الفصل الخامس بالديمقراطية الأثينية في كتاب « الديمقراطية » من كتب سلسلة المعارف العامة للجنة التأليف .

(١) هل الحكومة
لازمة ؟

وإذا كان هذا هو الواقع فإنه لا ينتظر من الحاكمين أن يستخدموا ما بيدهم من قوة الإرغام لخير مجموع الشعب في جميع نواحي هذا الخير ، أو في معظم نواحيه ، وليس من المحتمل أن يكون الذين يقفون في وجههم مجرد مجرمين أعنى خلقاً ليس في مقدورهم أن ينشئوا لهم علاقات طيبة بالمجتمع ، وينفرون من هذه العلاقات الطيبة . وإذا كان الإجرام مثلاً ينشأ من الفقر ، ومن سوء التربية ، ومن الإهمال ، ونقص الفرص — وفي هذا قسط كبير من الصواب دون شك — فإن الإجرام في هذه الحال إنما ينشأ من النظم التي يهددها ، والحكومات تعمل بطريقة غير مباشرة لخلق المجرمين الذين تنزل بهم العقاب . وليس هذا كل شيء ، بل إنها تخلقهم أيضاً بطريقة أخرى مباشرة ، وذلك بنظام العقوبات التي تنزلها بهم كما يقول بذلك كثير من الأشخاص القادرين المجرمين . وإذن فالإرغام من هذه الناحية شر في حقيقة أمره خليق باستهجان الفوضويين . وبقي علينا الآن أن ننظر هل ثمة إرغام أيّاً كان نوعه يصح أن يكون إرغماً صالحاً ؟

استيورت : أتريد أن تهدم نظم الحكم على الفور لتصلح بهدمها المجتمع ؟
مارتن : لا أريد هذا ، وكل ما أريد أن أقوله إن الطبيعة البشرية قد اشتبكت هي والنظم التي أنشأتها اشتبا كما يجعل من المتعذر عليها أن تكيف نفسها لنظم خير منها . على أنى أرجى البحث في هذه النقطة إلى ما بعد ، وحسبى أن أقول الآن إنه إذا كانت الحكومة بمعناها الذي وصفناه من قبل وهو الإرغام قد بدت إلى الآن لازمة للمجتمع ، فما ذلك إلا لأنه لم يقدّم مجتمع قط على أساس من الإنصاف . فالشرائع قد سنتها طائفة لطائفة غيرها ، ولم يكن ثمة سبب يحمل هذه الطائفة الثانية على الخضوع لهذه الشرائع

إلا الخوف ؛ ولـسـكـنـا إذا تصورنا وجود مجتمع مثالى فهل تكون الحكومة (١) هل الحكومة
بالمعنى السالف الذكر لازمة له ؟
لازمة ؟

استيورت : أظن أنه سيكون فى كل مجتمع قوم عاصون لا يخضعون لنظمه .
مارتن : ولم يكون ذلك ؟ ليس ثمة ما يحمل الناس على العصيان إلا أن
يطلب إليهم أن يطيعوا قوانين لا يرضون عنها .

استيورت : مهما تجعل نظمك عادلة ، ومهما تبعث فى قلوب الناس من
حب الخير ، فسيظل الناس على الدوام مختلفين فى نظرتهم إلى هذا القانون
أو تلك القاعدة . وإذا اشتد بينهم الخلاف وصل إلى حد يتحتم معه استخدام
الإرغام . مثال ذلك أن مجتمعك الديمقراطى المثالى نفسه قد يشور فيه الجدل
حول التعليم الدينى كما يشور فى هذا البلد ويقلق بال أهله فى هذه الأيام .

مارتن : إن الذى أرجوه أن يكون مجتمعى الديمقراطى أكثر تسامحاً ،
وأعظم فطنة من مجتمعنا الحاضر . ومع ذلك فإنى أقر أن من الخطر أن نتوقع
زوال الضرورة القاضية باستخدام القوة فى يوم وليلة ، حتى بعد وجود نظم
خير من نظم هذه الأيام ؛ ولـسـكـنـا مع ذلك لا نخطئ . إذا قلنا إنه كلما أصبحت
النظم والشرائع أقرب إلى الإنصاف ، زاد احترام الناس لها وخضوعهم
لأحكامها ؛ وإذا علم الناس أن هذه الشرائع والنظم لم توضع إلا لضمان الخير
العام فإن هذا العلم سيجعل الأقلية التى لا توافق عليها أكثر صبراً وإطاعة
لها ؛ وكلما قرب المجتمع من السكـال فى أفرادـه وفى نظمـه قل شأن الإرغام فيه
بالتدريج ، حتى يزول كل أثر له دون أن يشعر الناس بزواله ؛ ومن ثم نرى
أن ما يقوله الفوضويون من أن المجتمع العادل لا يحتاج إلى حكومة ، إذا
فهمنا من الحكومة معناها السابق أى قوة الإرغام ، قول صحيح فى جوهره .
هـرـنـجـتن : ولـسـكـن الفوضويين على ما أعرف من آرائهم لا يققون عند

(١) هل الحكومة لازمة ؟
هذا الحد ، فهم لا يعارضون في الإرغام وحسب ، بل يعارضون أيضاً في التنظيم .

مارتن : ليس من الميسور أن نعرف هل يظنون أن التنظيم غير ضروري أو يفرضون أنه سينشأ في جميع الأحوال وبطريقة من الطرق في عقول كتلة الشعب نفسه ، وأظن أن الأمر الثاني هو عقيدتهم . ومن رأيي أنا أنه رأى خيالي محض ؛ ذلك أنه إذا كان لا بد للناس أن يعملوا مجتمعين في عديد لا حصر له ، وفوق رقعة من الأرض شاسعة ، وأن تواجههم مشاكل معقدة لا تحصى كما هي حال المجتمع الذي نتخيله والمجتمع القائم في هذه الأيام ، فلا بد لهم أن يخضعوا لقواعد معقدة كل التعقيد ، ويجب أن تكون لهم أداة يعترفون بها لوضع هذه القواعد وتعديلها ، ويجب أن تتدخل هذه القواعد في نزوات الأفراد العارضة وأهوائهم ورغائبهم . إن ظروف العمل الطبيعية والاجتماعية لتتعارض مع تلك الحرية التي يرغب فيها الفوضويون ، والتي يفهمون منها ألا يضطر أحد إلى عمل شيء في الوقت الذي لا يرغب في عمله فيه ؛ وذلك أن الطبيعة نفسها تعين الزمن الذي تعمل فيه كثير من الأعمال والزمن الذي لا تعمل فيه من غير مراعاة لمزاج الناس . والتعاون بين الناس يتطلب إليهم استعداداً للقيام بواجبات محددة في أوقات محددة ؛ وفيما عدا هذين القيدين فإن الفوضويين على حق فيما يطلبونه من ترك أكبر قسط مستطاع من الحرية للأفراد ، وجعل القيود الثقيلة الضيقة التي يقيّدون بها أقل ما تكون . وهذا يعود بنا إلى السؤال الذي سألناه من قبل وهو : ماذا يكون شكل الحكومة ؟ وماذا تكون مهمتها في مجتمعاتنا المثالية إذا لم نفهم من لفظ الحكومة معنى الإرغام ، بل فهمنا منه معنى التنظيم ، لأننا نظن أن الناس عندئذ سيطيعون أوامر

الحكومة راضين؟ فإذا ما نظرنا إلى مهمة الحكومات أولاً وجدناها من (١) هل الحكومة غير شك تختلف اختلافاً بيناً عن المهمة التي تؤديها الحكومات الحاضرة .

لازمة؟

استيورت : نعم ستكون مهمتها مختلفة ، ومبلغ علمي أنها ستكون أيضاً أشد مضايقة للناس مما هي الآن . ذلك أنها ستدخل لتنظيم كل صغيرة وكبيرة في حياة كل فرد من الأفراد ، وليس استبدالاً لفظ التنظيم بلفظ الإرغام مما يجعل تدخلها أقل مضايقة للناس .

مارتن : ليس هذا واضحاً إلى كل الوضوح ، ولكن حكمنا سيكون أصح إذا أخطنا علماً بكل ما تتدخل فيه الحكومات الحاضرة من الشؤون .

استيورت : لا شك في أن الحكومات الحاضرة يزداد تدخلها في أعمال الناس شيئاً فشيئاً ، ومن رأيي أن هذا أمر يؤسف له كثيراً ، ولكن عملها بوجه عام هو حمايتنا من الاضطراب في الداخل ومن الاعتداء علينا من الخارج .

(٢) مدى تدخل الحكومات في المجتمعات الحاضرة

مارتن : نعم ، ولكن لننظر فيما ينطوي عليه هذا . إن حمايتنا من الاضطراب في الداخل معناها عقاب من يخرقون القانون ، ومعنى القانون حسب نظمنا الحاضرة هو الفقر بعينه كما رأينا . فالمحافظة على النظام معناها المحافظة على استعباد الكثرة الغالبة من الشعب من الوجهة الاقتصادية ، والحكومات هي التي تقع عليها بطريقة غير مباشرة ، تبعة كل القيود التي تعوق النماء الشخصي إن لم تعمل بطريقة مباشرة على وضع هذه القيود ؛ وتلك هي الصفة الغالبة على المجتمعات الحاضرة كما رأينا .

استيورت : يبدو لي أن في هذا شيئاً قليلاً من السفسطة ، وأرجو ألا يسوءك مني هذا التعبير . لقد كنت أتكلم على التدخل الإداري في أعمال الناس ، وما من شك في أن هذا التدخل سيكون في المجتمعات التي نسميها مثالية أكثر منه في مجتمعاتنا الحاضر .

(٢) مدى تدخل
الحكومات في المجتمعات
الحاضرة

مارتن : ربما كان ذلك ، ولكن هذا التدخل يقتصر ضرره على تحديد الحريات ، ولذلك أراني محقاً إذا قلت إن ما نخسره في ظروفنا الحاضرة بسبب الاستعباد الاقتصادي قد يكون معادلاً لما نكسبه بسبب استقلالنا الإداري . وإذا أتيحت لكل فرد في المجتمعات التي نتخيلها أحسن الفرص لتفمية مواهبه وقواه الطبيعية ، فإن الثمن الذي يؤديه بخضوعه لما يوضع من النظم التي تعين على الوصول إلى هذا الغرض لن يكون ثمناً باهظاً .

استقيورت : إن المسألة فيما أظن مسألة مزاج ، ولكنني أرى هذا الثمن غالياً .

مارتن : عليك أن تذكر أني أنا وأنت ننتهي إلى هذا القسم الصغير من المجتمع الذي يتمتع بكلتا الحريتين ، وأظن أننا إذا بحثنا حالنا من جميع الوجوه ، فقد يتبين لنا أننا نتمتع بقسط من الحرية أكبر مما نستطيع الحصول عليه بسهولة في غير أحوالنا الحاضرة ، وإن كنت أعتقد أن قيمة هذه الحرية تكاد تضيع عند ما نفكر فيما يضطر غيرنا لأدائه ثمناً لها . وأية حرية في الحقيقة يتمتع بها هؤلاء الآخرون ، أي جمهور الشعب ؟ فهل يستطيع هؤلاء أن يختاروا الطريق الذي يريدون أن يسلكوه في حياتهم بحرية أوسع مما لهم في ظل أشد أنواع الاشتراكية بيرقراطية^(١) ؟ هل في استطاعتهم أن يعينوا ساعات عملهم ؟ وهل في وسعهم أن يحددوا أجورهم ؟ وهل في مقدورهم أن يسافروا وأن يتعلموا وأن يختاروا نوع المجتمع الذي يريدونه لأنفسهم ؟

(١) Bureaucracy البيروقراطية لفظ مشتق من بيرو Bureau ومعناها مكتب .

ويستعمل اللفظ في الولايات المتحدة للدلالة على الأقسام الصغرى للإدارات والمصالح التنفيذية مثل مكتب الإحصاء . ومعنى البيروقراطية في الحكم تركيز السلطة الإدارية في مكاتب أو مصالح حكومية وتدخل الموظفين العموميين في أعمال الأفراد حتى فيما لا يدخل منها عادة ضمن الأعمال الحكومية .

هل يقدرّون على التمتع بالوحدة والعزلة؟ إنهم يخضعون لسلطان سادتهم (٢) مدى تدخل الحكومات في المجتمعات الحاضرة

خضوعاً لا يقل مطلقاً عن خضوعهم لسلطان المجتمع في ظل الدولة الاشتراكية الكاملة إن وجدت ، وليست لهم في ظل نظامنا الحاضر تلك الميزات التي تعوضهم عن هذا الخضوع ، وهي ميزات الأمن والراحة والفراغ التي نظن أن في وسع النظم التي نتصورها أن تضمها لهم .

استيوت : لا زلت رغم هذا أظن أن من المتناقضات أن تعزو هذه القيود الشديدة إلى تدخل الحكومة .

مارتن : ولننتقل بعد ذلك إلى فرع آخر من فروع النشاط الحكومي وهو الدفاع القومي ، ولست أظن أنك في هذه الناحية على الأقل تقول إن الحكومة لا تتدخل في حرية رعاياها . نعم إنها في هذه البلاد تسكتفي بأخذ أموالنا من أيدينا ، فتأخذ مفاستين مليوناً من الجنهيات تدفعها لجيش وأسطول مرتزقين^(١) ، أما في غير هذه البلاد فكل رجل من أهلها يفتزع من بيته وعمله ليقضى عاماً أو أكثر من حياته في الشكفات العسكرية ، يخضع فيها خضوعاً تاماً لموظفين عموميين لا مرد لأوامرهم الاستبدادية ، وهو بعد ذلك معرض في الجزء الأكبر من حياته لأن يفتزع مرة أخرى من عمله وأسرته ومألوف عاداته ليقتل أو يقتل في حرب لا يفهمها مع أناس لم يصبه منهم أذى ، فهل في استطاعة أحد أن يتصور تضيقاً على الحرية الفردية أشد من هذا التضيق ؟

استيوت : ومجتمعك المثالي ألا يكون له أعداء ؟ وهل لا يخوض غمار حروب ؟

(١) كان هذا قبل قيام الحرب الكبرى الماضية وهذه الحرب . وهذا المبلغ الضخم يتفق اليوم في أقل من أسبوع واحد فقط .

(٢) مدى تدخل
الحكومات في المجتمعات
الحاضرة

مارتن : لست في حاجة إلى الخروج عن موضوعنا إلى هذا الموضوع الشائك الذي لا نهاية له ، ففيما نحن فيه ما يكفيننا وزيادة . ولهذا فإني أطلب إليك أن تسلم لي بأمر عظيم الشأن ، ذلك أننا نبحث في نظام المجتمع الداخلي ، وأحب أن تستبعد من هذا البحث العلاقات الدولية حتى نحصر عنايتنا في الشؤون الداخلية . ولست أنكر بطبيعة الحال أن تلك طريقة غير علمية ، بل إنها أيضاً غير فلسفية ، ولكن يبررها أننا إذا شئنا أن نعالج المسائل كلها في وقت واحد تشعب بنا البحث ولم نفرغ منه قط .

استيورت : لم أكن أنا الذي أقممت هذا الموضوع في بحثنا ، بل إنك أنت الذي فعلت ذلك .

مارتن : نعم أنا الذي فعلت ذلك وكنت فيه مخطئاً ، وسأسترد هذا الجزء من التهمة التي وجهتها إلى مجتمعتنا إذا استرجعت أنت تحديثك لي .
استيورت : فليكن ذلك .

مارتن : إذا أخرجنا إذن مسألة الحرب من نطاق بحثنا في شؤون المجتمعات التي نتصورها ، فماذا يبقى علينا أن نبحثه من وظائف الحكومة ؟
استيورت : يبقى بطبيعة الحال ما ذكرناه من قبل ، وهو تنظيم الصناعة ؛ وهذا هو الباب الذي يدخل منه الطغيان الاشتراكي .

مارتن : نعم ، وهو أيضاً الباب الذي يخرج منه الطغيان الفردي .
استيورت : وماذا تعني بهذا ؟

مارتن : إنني نطقت بلفظ الطغيان لأنك أنت قد نطقت به ، ولسكننا سنستمسك إذا شئت بلفظ التنظيم ، وهو اللفظ المحايد الذي لا يدل على ميل إليه أو كره له ؛ وما من شك في أن هذا التنظيم الذي سميت به فرديا يشاهد الآن في كل مكان في جميع فروع الصناعة وفي كل صغيرة وكبيرة منها ؛

(٢) مدى تدخل
الحكومات في المجتمعات
الحاضرة

فالأجور وساعات العمل تنظم ، وطرق الصناعة والأثمان تنظم ، وكل ما في
الأمر أن هذا التنظيم يكون على يد الأفراد والشركات لا على يد موظفين
من قبل الحكومة ، ولذلك فإني لا أظنك تعارض في التنظيم من حيث
هو ، بل تعارض في نوع خاص من التنظيم ؟

استيورت : إني أعارض في التنظيم الذي يقوم به موظفون خارجون عن
دائرة الأعمال ، ولا يفهمون من هذه الأعمال شيئاً .

مارتن : هذا أمر طبيعي ، ولننظر الآن هل نستطيع أن نتصور طريقة
ملائمة لمجتمعنا المثالي ، تسلم من هذا الاعتراض ؟ ويحسن بنا أن نرسم صورة
عامة لهذه الطريقة خالية من التفاصيل ، لأننا إذا حشرنا هذه التفاصيل
فيها كان ذلك منا حذقة وسخافة ، ما في ذلك ريب . وأظن أن الذي
تريده منها هو أن يكون فيها من المرونة ومن الكفاية أكبر قدر استطاع
وجوده في آلة معقدة التركيب واسعة النطاق . ويتبين لي هنا الفارق العظيم
بين أرسطراطية هرنجتين ودمقراطية .

هرنجتين : وما هو هذا الفارق العظيم ؟

مارتن : كيف تريد أن تنظم الصناعة في المجتمع الذي تريده ؟

هرنجتين : إن التنظيم الذي أتصوره هو بصراحة ما يسمونه التنظيم الأبوي ،
(٣) الحكومة في
المجتمع الأرسطراطي
وستكون الطبقة الحاكمة من وجهة النظر الصناعية شبيهة « بزعماء الصناعة »
الذين حدثنا عنهم كارليل .

مارتن : أو قل إنهم سيكونون أشبه بأرسطراطية سانت سيمون
Saint Simon ^(١) ، فهم بحسب ما أستطيع أن أتصوره سيجمعون في

(١) Saint Simon : عالم اقتصادي فرنسي توفي في عام ١٨٢٥ ، وهو من أكبر
أنصار المذهب الاشتراكي الحكومي ، وكان يرى أن توزع الثروة حسب الاستحقاق =

(٣) الحكومة في
المجتمع الأرستقراطي

أشخاصهم قدرأ من الأعمال الروحية والأعمال الزمنية لم يسمع بمثله قبل . ذلك بأنهم سيتولون أمر الثقافة وأمر الصناعة ، وستركز فيهم كل الملكية ؛ وبذلك يكون سلطانهم وتكون التبعات الملقاة عليهم أعظم كثيراً مما كان لأوصياء أفلاطون أنفسهم . يضاف إلى هذا أن سلطانهم وتبعاتهم سييسطان على رقعة من الأرض أعظم مما كان ييسط عليها سلطان هؤلاء الأوصياء وتبعاتهم . هرنجتن : هذا صحيح ، ولكن لا تنس أننا نتحدث على أساس طريقة التنشئة العلمية التي يقول بها أفلاطون ، وعلى أساس شيء آخر أضيفه أنا وهو نظام صالح للتعليم يشمل جميع الطبقات .

مارتن : إنا نلرجو إذن أن تكون تنشئة طبقتك الحاكمة وأن يكون تعليمهم بحيث يجعلانهم أهلاً لواجباتهم . على أننا فيما يختص بهذه المسألة التي نبحثها الآن نلاحظ أن الحرية أن تكون من مظاهر الدولة الأرستقراطية . هرنجتن : هذا موقوف على ما نفهمه من لفظ الحرية . ومهما يكن هذا للمعنى الذي يفهم منها فإن النظام الذي أعرضه لا ينطوى على أى إرغام يشعر الناس بأنه استبدادى ، لأن كل إنسان سوف يعهد إليه بالعمل الذي هيأته له طبيعته ، وبذلك يكون العمل الذي يقوم به هو الذي يختاره لنفسه إذا نيسر له الاختيار الحر . ولما كان كل مواطن لا يحسون بوطأة القيود ، أو بأن لهم مواهب كان فى الإمكان أن تنمو وتعتظم ، ولكنها تقاوم وتقتل ، فإننا لا نخطئ إذا قلنا إن هذا النظام سيكفل لهم نوعاً من الحرية لا يكاد يكفله لأحد منهم نظامنا الحاضر .

مارتن : ولكن هذا النوع من الحرية الذى يكفله لهم نظامك سيكون

= وأن يقاس هذا الاستحقاق بالعمل ، وأن يلغى التوريث ، وأن تتولى الحكومة جميع المرافق العامة .

كالحرية التي يتمتع بها الحجير حين يسقط من أعلى إلى أسفل ، أليس كذلك ؟ إن الرجل في مجتمعتك يكون قد تخصص من يوم مولده تخصصاً ضيقاً ، ويكون قد أعد له ما يلزمه من العدد وهيئ له ما يناسبه من الظروف ، بحيث لا يترك له قط مجال للتفكير في تقرير مصيره بنفسه ، فإذا سميت أولئك المواطنين أحراراً ناقضت نفسك ، بنفسك . على أنني أعترف لك وأنا منشراح الصدر أنهم لن يكونوا عبيداً ، فسيدركون كلهم جميع القوى التي وهبها عند مولدهم ، وسيكونون من أجل ذلك راضين شادئين . ومهما يكن في حكمهم من المشقة لكثرة ما فيه من التعقيد ، فإن يكون من الصعاب التي فيه تمرد المحكومين على الحاكمين . ولكن أحداً لا يشك في أن مثل هذا المجتمع ليس هو الذي نسميه عادة مجتمعاً حراً ، وقد يكون وصفه بأنه بيرقراطية عظيمة شاملة أليق به وأصق .

هرنجتن : صفه بما شئت مادنا نفهم أنه سيكون مجتمعاً هادئاً منظماً جميلاً بالمعنى الذي يفهمه أفلاطون من هاتين الصفتين ، وأنه سيكون أيضاً عادلاً كما يفهم هو من لفظ العدالة .

مارتن : لم يحن الوقت بعد لتحديد نوع هذا المجتمع مادنا لم نفرغ من وصفه ، ولهذا فسندسميه إذا سمحت بيرقراطية . وأظن أننا إذا قلنا أكثر من هذا عن نظام حكمه كان هذا القول مملاً لا غناء فيه . وحسبنا أن نقول إن كل شيء فيه ستنظمه الطبقة الحاكمة ، أو ينظمه موظفون تعينهم هذه الطبقة ، وإن هذا المجتمع لن تقوم فيه مشكلة الجمع بين السيطرة والدراية ، ولا بين الحرية والنظام . أما في الديمقراطية التي أدعو إليها فإن الأمر يختلف عن هذا كل الاختلاف ؛ فليس في الديمقراطية طبقة حاكمة ، بل إن المجتمع هو الذي يحكم نفسه بنفسه ، وعليه أن يحتفظ في هذا الحكم بأكبر قسط من

(٣) الحكومة في المجتمع الأرستقراطي

(٤) الحكومة في المجتمع الديمقراطي

(٤) الحكومة في
المجتمع الديمقراطي

الحرية يتفق والنظم الواجبة الضرورية ، وتلك مسألة من أشق المسائل .
استيورت : لست أشك في أنها كذلك . لقد أقيمت بنفسك في أحضان
الجماعية ، ومعنى هذا أنك ستكلف نفسك عناء تنظيم كل شيء ، وكلما
قربت في هذا التنظيم من الكمال وجب عليك أن تسير في القضاء على
الحرية إلى أبعد حد .

مارتن : ما أرهبك عندما تتشجع بوشاح الأساندة وتلبس قبعهم ! وإني
لأشعر في ذلك الوقت كأني غلام صغير أخطأ في قواعد النحو .

استيورت : لقد أخطأت في شيء أشد خطراً من قواعد النحو .

مارتن : ولكن هل يسمح لي سيدي بأن أشرح أقوالى ؟

استيورت : فلتعتذر إن استطعت — وإلا — !

مارتن : أعرف أن العصا في انتظاري ، وأن على أن أبذل ما أستطيع
من الجهد للفرار . سأبين إذا استطعت كيف تنظم شؤون مواطني من غير أن
يستجبلوا عبيداً ، وأرجو أن تذكر من أول الأمر أنهم هم الذين سينظمون
أمورهم بأنفسهم .

استيورت : تلك عبارة جوفاء . إن الناس سيشعرون بأن النظم ، حتى إذا
وضعتها الأغلبية ، قيود تحد من حرية أفراد هذه الأغلبية نفسها .

مارتن : ومع هذا فلي أن أفترض وأنا آمن من الزلل أن ما يوضع من
القواعد مسيلقي تأييداً من الرأي العام . أما أنت فإنك تفترض من حيث
لا تشعر ما يفترضه كثير من النقاد ، وهو أن نظم المجتمع الجماعي ستفرضها
على أهله من أمثالك العاصين للمعاند زمرة غريبة خفية تدعى الحكومة .
استيورت : إن كل حكومة ستكون ، ولا بد أن تكون على الدوام ،
منقطعة الصلة بالرأي العام .

(٤) الحكومة في
في المجتمع الديمقراطي

مارتن : أهذا ياسيدى قانون من قوانين الطبيعة ؟
استيورت : إنه قانون من قوانين التجربة والخبرة !

مارتن : إني أحس بالعصا تهوى عليّ ، ولكن دعنا من المزاح وقل
لى حقاً أليس من أبعد الأشياء عن العقل أن تفترض شيئاً من هذا القبيل ؟
ومهما يكن رأيك في هذا فإني لن أستمع في الإدلاء بما لدى من الحجج إلا
إذا أقررت أن القواعد التي يخضع لها المجتمع ستكون هي القواعد التي يوافق
عليها ويرتضيها لنفسه .

استيورت : إذا كنت تلجأ إلى رحمتي فأنا رحيم ! وأرجوكم أن تستمر .
مارتن : ليس على بعد ذلك إلا أن أنظر أى القوانين يسمح بها
المجتمع الحر ويفرضها على نفسه .

استيورت : إذا سرت على هذا النحو فلن تجد مجتمعاً حراً يسمح بقيام
الجماعية قط .

مارتن : هذا ما أريد أن أبحثه . ولقد كرر أنفسنا أولاً بالمسائل الهامة
التي قد يرغب هذا المجتمع في تنظيمها . لقد كان هناك أولاً مسألة الزواج .

استيورت : ألصق المسائل بشخص الإنسان وأكثرها خصوصية . أتريد
أن تعين السلطات العامة من يكون زوجها لهذه ومن تكون زوجا لذلك ،
وكم طفلاً يلد كل زوجين وما إلى ذلك من الشؤون ؟

مارتن : إني أقر بأنى لا أستطيع أن أتصور مجتمعاً حراً يخضع في هذه
الشؤون للقيود ، يرغم على قبولها إرغاماً ؛ لكن في وسعى أن أتصور أن
الناس يمكن أن يُقنعوا ، أو يُقنعوا أنفسهم ، بمنع التزاوج بين من يعرفون
أنهم مصابون بأمراض وراثية ، أو أن يمنعوا هؤلاء على الأقل من أن
يكون لهم أولاد ، وسيكون لهذا بعض الأثر على الأقل .

(١) تنظيم الزواج

استيورت : أهذا كل ما تطمح في الوصول إليه ؟

مارتن : هذا مبلغ ما أقترح تنفيذه بطريق الإرغام ، ولكنني أطمح في تنفيذ الشيء الكثير بتأثير الإغراء وتأثير الرأي العام .

استيورت : وماذا تعني بالإغراء ؟

مارتن : أعني به أن يستمال الناس إلى طريق الصواب بدل أن يمنعوا من ارتكاب الخطأ ؛ وهذا مبدأ عظيم الخطر لم تسر عليه الحكومات بدرجة كافية .

استيورت : وكيف يطبق هذا المبدأ في تلك الحالة التي نحن بصدددها ؟
مارتن : ربما ذكرت أننا حين كنا نبحث في مسألة أجور العمل قد اتفقنا ، أو اتفقت أنا وهرنجتن على الأقل ، على أن حمل الأطفال وتربيتهم عمل لازم وخطير ، لا يقل في ذلك عن أى عمل آخر ، ويجب أن يؤدي عنه من الأجر ما يتفق مع ضرورته وخطره .
استيورت : أذكر أن شيئاً من هذا قد قيل .

مارتن : إن هذا النظام إذا اتبع قد يستخدم في تشجيع النوع الصالح من الزواج ، لأن المال المخصص بهذا الغرض قد يقصر ، ومن الواجب حقاً أن يقصر ، على الأبوين اللذين يوافق المجتمع على زواجهما . ومن ثم فإن المجتمع سيفضل الزواج الذي يهيء له نسلاً طيباً وإن لم يمنع الناس بالقوة أن يتزوجوا كما شاءوا إلا في الحالة التي ذكرتها من قبل .

استيورت : ولكن هذا يتطلب نظاماً من التفتيش العام .

مارتن : نعم بلا شك ، فإذا كنت ترغب في أخذ الأجر فلا بد أن يثبت أنك صالح للزواج .

استيورت : سيعارض الناس في هذا أشد المعارضة .

مارتن : إذا عارض الناس في هذا النظام فسيبقى غير نافذ ، ولكنني (١) تنظيم الزواج لا أوافقك على هذا . إنني أعتقد أن الرأي العام قد أخذ يدرك شيئاً فشيئاً أهمية هذه المسألة ، وكل الذي يُبقى على هذا التخطيط في أمر الزواج هو ما يفسو بين المتعلمين أنفسهم من جهل بأضراره وعدم الاهتمام بأمره ، وعدم الرغبة في اتباع نظام غيره . على أني أعترف هنا صراحة بأن تقدم المعارف وانتشار التعليم وقوة الرأي العام أعظم أهمية في هذه المسألة بنوع خاص من جميع النظم التي توضع لها ؛ فإذا تم هذا فلا شك عندى في أن ما أقترحه من النظم سوف يكون قوى الأثر صالحاً للعمل به .

استيورت : أرجو ألا يطول بي العمر حتى أشهد هذا التنظيم .
مارتن : لست أظن أنك ستعيش حتى تراه ، ولكنك سيسرك في بقية حياتك أن تعلم أن المئات بل الآلاف من الأطفال يخرجون في كل عام إلى هذا العالم وهم عبيد للأمراض والبؤس بكافة أنواعه ، كل ذلك ليتمتع الآباء بشيء من الحرية . أما في مجتمعي الديمقراطي فسيكون الأمر عكس هذا ، سيكون الآباء هم الذين يصح أن يطلق عليهم لفظ العبيد لأنهم سيضجون بشيء من حريتهم ليتحرر الأبناء من الاستعباد .

استيورت : لا أحب أن أستخدم لفظ « العبيد » فلنأخذ الآن في معركة انتخابات عامة ، وفوق هذا فإني أعترف أن ما تقوله عن هذه المسألة بالذات يتفق مع العقل أكثر مما كنت أتوقع .

مارتن : شكراً لك ! فهل أواصل القول إذن ؟

استيورت : لك ذلك .

مارتن : وربما كانت المسألة الثانية التي يجب الكلام عليها هي مسألة التعليم . إن الذين يفكرون في إنشاء المجتمعات الفاضلة المثالية قد خصوا

(ب) التعليم

(ب) التعليم

التعليم بقسط كبير من أبحاثهم ، وهم على حق في ذلك ، ولست أكنى أرجو أن يؤذن لى بعدم الخوض في موضوعه ، فهو موضوع أوسع من أن يكتفى فيه بكلمة عارضة ، ولدينا الآن من الأبحاث ما فوق السكفاية .

استيورت : يسرنى أن أفر من هذا الموضوع ، فإنى أكره الكلام فيه .
مارتن : وعلى هذا فإن كل ما أريد أن أقوله فيه هو أنى أفترض وجود نظام من التعليم المجانى ، تفتح أبوابه فى درجاته المختلفة لجميع الناس على السواء ، وإن لم يكن من الواجب أن يرغبوا كلهم على دخول هذه الأبواب .
وأظن أن ليس فى هذا صعوبة خاصة من ناحية المبدأ ، وليس ثمة ما يحول دون تحقيقه حتى فى المجتمعات التى لا تقوم على أساس الجماعة .
استيورت : نعم ولست أريد أن أنازعك هذا الرأى .

(ج) تنظيم الصناعة على يد السلطات العامة

مارتن . ننتقل بعد هذا إلى أعظم الصعاب التى يحتمل أن تصادفنا . مارأيك فى أمر تنظيم الصناعة ؟

استيورت : تلك هى مشكلة المشا كل ! وتلك هى المسألة التى تحزنك كل الحزن .

مارتن : أتعنى أننى فى هذه المسألة على الأقل سأضطر إلى إقامة نظام استبدادى لا يقوى الناس على احتماله ؟
استيورت : نعم .

مارتن : أما أنا فأصر على أننى حتى إذا اضطررت فى تنظيم الصناعة أن ألقأ إلى السلطات العامة ، التى يمارسها بطبيعة الحال قوم ينفذون قوانين يرتضيها المجتمع على أفراد وافقوا عليها ، فإن المجتمع الجماعى فى هذه الحال نفسها يستطيع أن يزعم أنه فى شئونه الجوهرية الهامة أكثر حرية من مجتمعنا الحاضر .

(ج) تنظيم الصناعة على
يد السلطات العامة

استيورت : ماذا تقول ؟

مارتن : إنى أعتقد هذا بحق ، لأننى أرى أن السكثرة الغالبة من الناس لا تتمتع فى الأحوال الحاضرة بشئ من الحرية الحقة .

استيورت : كيف تستطيع أن تستمسك بهذا رأى ساعة واحدة وأنت تواجه ما أمامك من الحقائق ؟

مارتن : فلننظر إذن إلى الحقائق ، ولتجرد عقلك أولاً من كل تصنع ورياء . فماذا ترى ؟ وأين هى الحرية ؟ أليس كل من يعمل عملاً ما معتمداً على عمل كل من عداه ؟ أليس هو مضطراً إلى أن يوفق بين ساعات عمله وساعات عملهم ، وبين حركاته وحركاتهم ، ومسكنه ومسكنهم ؟ ألا يعانى الأمرين من جراء إهمالهم أو مصائبهم ؟ ألا يفشل إذا فشلوا وينجح إذا نجحوا ؟ ولم من أصحاب الأعمال أو أصحاب المهن ، وهم أكثر طبقات المجتمع حرية ، يستطيع أن يقول فى يوم من الأيام « لست أشعر اليوم بميل إلى العمل ، فهذا صباح جميل فى يوم من أيام الربيع ، وسأجلس فى الحديقة أو أتنزه راكباً » أو نحو هذا مما تمليه عليه رغباته ؟ إنك تعرف جيداً أنهم يساقون كالعبيد ، كما تسميهم أنت لو أنهم كانوا ينفذون أوامر الحكومة ، ليركبوا قطار الصباح الباكر ، ليذهبوا إلى حى الأعمال فى المدينة أو إلى المحاكم ، ليكدوا طول يومهم فى مكان نجبوس الهواء كثير الجلبة ضار بالصحة ، وليعودوا منهوكة القوى منقبضى الصدر ليتناولوا طعامهم متأخرين ، ثم يأوون إلى فراشهم إذا كان الحظ موافقهم ، أو ينكبون على العمل إلى ما بعد منتصف الليل ليستعدوا لعمل اليوم التالى . تلك حياة إذا فرضتها عليهم حكومة اشتراكية قلت عنها بأست هذه الحياة ! بأست هذه الحياة !

استيورت : ذلك لأنها تكون فى ظل هذه الحكومة أسوأ كثيراً مما هى

(ج) تنظيم الصناعة على يد السلطات العامة
الآن . إنني أقرك على ما تقوله في هذه المسألة بالذات ، وأعترف أنني لا أكاد أرى في مجتمعنا الحاضر أحداً يتمتع بحريته ، إذا فهمت من الحرية أنه يستطيع أن يتصرف في وقته كما يشاء . على أننا مهما يكن من أمرنا في هذه المسألة لا نخضع لأوامر نلقاها ، فقد اخترنا مهنتنا أول ما اخترناها بعمل حريتنا ، واخترنا بذلك اختياراً لا رجوع فيه كل ما فيها من قيود واضرار ، وإذا كنا نضحي في هذه المهنة بكل حريتنا ، أو بالجزء الأكبر من حريتنا ، فإننا نبذل هذه التضحية مختارين ، نبذلها يوماً بعد يوم لأننا قد قررنا بعد تدبر وإيمان أن مهنتنا جديرة بهذه التضحية ؛ ونحن لا نطيع في هذه الحال أحداً غيرنا ، ولكننا نطيع حكمتنا وحسن تديبنا ، والفرق بين الطاعتين عظيم لا يقاس .

مارتن : تقول إنك لا تخضع لأمر غيرك وأنا أقتره هذا ؛ ولكن قل لي من أنت ؟ ومم من الناس مثلك في هذا الوضع السعيد ؟ وهل أنا في حاجة إلى أن أؤكد مرة أخرى أن كل إنسان تقريباً يستخدم إنساناً آخر ينفذ أوامره الدقيقة التي يلقيها عليه طول اليوم وفي كل يوم ، وهو مقيد في عمله بساعات خاصة يعمل فيها ، وبطريقة خاصة يسير عليها ، مهما اختلف الجو ومهما كانت صحته ، وإذا تخلف عن العمل عرض نفسه لأقسى عقاب ، وهو خطو الموت جوعاً ؟ أما ما قلته من أننا كنا أحراراً في اختيار مهنتنا ، فهل لم أوضح لك القيود العملية التي يتقيد بها جمهور الشعب في هذا الاختيار ، والتي تقيد من الآن عدداً كبيراً من الخلاق لم يولدوا بعد ؟

استيورت : لست أعبا بهذا ، لأنني سأكون شديداً في هذه النقطة ، وأؤكد لك أن كل عامل ، حتى العامل الذي لا يحتاج عمله إلى شيء من المهارة ، يستفيد من حريته في ظل هذا النظام الحاضر ، ويتمتع بها وهو شاعر

بهذا التمتع . والحق أنه مهما يبدؤ على هذا العامل من عدم الاستقلال ومن (ج) تنظيم الصناعة على الاعتماد على غيره ، فإنه يستطيع أن يخاطر وأن يتهز الفرص ؛ فهو يسكر ، وينقطع عن العمل يومين في الأسبوع ، وهو يتغيب بإجازة دون أن يطلبها ، وهو يتنازع مع رئيس عمله إذا شاء ويفصل منه ، وليس خطر الموت جوعاً بالذى يشل حركته ويمنعه من أن يتصرف كما يشاء . فإذا ترك عمله كان في وسعه دائماً أن يحصل على عمل غيره في مكان آخر ، وهو يظن أن في وسعه الحصول عليه ، فإذا لم يستطع فإنه يتشرد ويلجأ إلى الصدقات ، وينتحر ويسجن ، وهو في كل مرحلة يتحرك كما يختار مهما ضاقت دائرة حركته . وإني لأعد هذه القدرة على الحركة ميزة حتى لأفقر الناس وأضعفهم لا تقدر بثمن ، وأنها ميزة لا يصح أن يستبدل بها أشهى صنف من الطعام .

مارتن : إنك إذا وضعت المسألة هذا الوضع لم يكن في وسع المجتمع الجماعي نفسه أن يسلب العمال هذا القدر من الحرية ؛ فإذا فضل إنسان أن يسجن أو يموت جوعاً بدل أن يؤدي عمله المطلوب منه ، فليس في وسع أحد أن يمنعه ذلك في أى نوع من أنواع المجتمع ، اللهم إلا المجتمع الذى تستخدم فيه الأغلال والسياط ، وأقصد الأغلال والسياط بمعناها الحرفي لا المجازي ؛ وأظن أنه ليس ثمة إنسان ، ولا أنت نفسك ، يستطيع أن يتصور أن الجماعيين يفكرون في هذا . ولست أنكر أنه إذا لجأ عدد كبير من الناس إلى هذه الوسائل ، فإن الديمقراطية التى وصفتها اضطرب له ويختل نظامها ، ولسكنهم إذا أرادوا أن يلجئوا إليها كان لهم أن يفعلوا ما يشاءون ، وإذا داوم عدد كبير منهم على هذا العمل زمنًا طويلاً كان في وسعهم أن يقضوا على المجتمع ، ولم يكن في وسع المجتمع أن يقضى عليهم . وأقصى ما يستطيع أن يفعله بهم هو ما يفعله بهم الآن ، وهو أن يخيرهم بين العمل أو الموت جوعاً أو السجن .

(ج) تنظيم الصناعة على يد السلطات العامة

ومن ثم فإن هذا النوع الخاص من أنواع الحرية ، الذي لا أعجب به كما تعجب به أنت ، سيميق على الدوام ، وإن كنت لا أظن أن أحداً سيفيد منه أية فائدة حتى في مجتمع جماعي .

استيورت : إنك تثير نقطة منطقية ، ولكنني غير مقتنع بما تقول ، فأنا واثق من أن الحرية التي تتمتع بها الأقلية والأكثرية على السواء في المجتمع الجماعي ستكون أقل مما هي الآن ؛ وحسبي شاهداً على ذلك هذه المسألة الوحيدة وهي أن كل إنسان في ذلك المجتمع سيتلقى من السلطات العامة الأوامر التي تحدده عمله ، والمساكن الذي يعمل فيه ، ولن يكون في مقدور أحد أن يسكن داراً غير داره ولو كانت في حدود المنطقة ذاتها إلا بإذن من هذه السلطات .

مارتن : هذا شيء مروع حقاً ! ولكن هل من حاجة بنا إلى أن نشك في أنه سيكون من المستطاع ومن السهل أن ينتقل الناس من مكان إلى مكان كما ينتقل الآن سعاة البريد وعمال السكك الحديدية بناء على طلبهم ووفقاً لرغبتهم في أغلب الأحيان ، إذا كان هذا الطاب وكانت هذه الرغبة مما يتفق وحاجات عملهم . إن حرية الانتقال من مسكن إلى مسكن في أحوالنا الحاضرة مقيدة ضيقة بالنسبة لمعظم الناس ، وقد تكون أضيق مما هي الآن في ظل الجماعية وقد لا تكون ، فذلك ما لا نستطيع أن نعرفه ، وسواء كانت أو لم تكن فإن الفرق قليل نسبياً .

استيورت : لست أظن ذلك . وهناك نقطة أخرى هي أنه لن يكون في ديمقراطيتك شيء من حرية العرض والطلب . ذلك بأن المجتمع سيقدر السلعة التي يجب صنعها ، ويحدد الكمية التي تصنع منها ، معتمداً في ذلك على حساب محكم دقيق يقدر به مقدماً ما سيطلب منها . ولست الآن

في مقام البحث في إمكان هذا أو عدم إمكانه — وإن كنت أقول الآن (ج) تنظيم الصناعة على يد السلطات العامة فإنه يبدو مما لا يستطاع تحقيقه — ، ولكن إذا فرضنا جـدلاً أنه مستطاع التحقيق فإنه في هذه الحالة يكون أمراً لا يطاق ؛ ذلك أن جميع رغبات الأقليات وكل الأذواق والأهواء الوقتية سيضحي بها من أجل الضرورات التي يطلبها جمهور الشعب باطراد ، ولن يسمح لأحد أن يصنع آلاف الكماليات الغالية الثمن التي لا تلبث أن تصبح ضرورات رخيصة ، تلك الأشياء التي لا عداد لها والتي تدل على حب الجمال وتساعد على بقاءه . وإذا لم يستطع أحد صنعها فليس في وسع إنسان أن يحصل عليها . وسيفتحي أمر دولتك الجماعية بأن تفرض على الناس نظاماً كنظام الاسبرطيين^(١) سواء أرادوا ذلك أو لم يريدوه ، ولن يكون في هذا النظام تباين ، ولن يحدث فيه تبديل ، ولن يكون فيه لهذا السبب رقي ، وكل ماسيكون فيه هو ما يسميه أحد أشخاص كتاب « الجمهورية »^(٢) العزيز عليك حياة الخنازير .

مارتن : ستكون هذه حالة فظيعة حقاً ؟ وكيف لا تكون فظيعة إذا كان كل إنسان يحصل على ضرورات الحياة من طعام صالح ومسكن وملابس وفضاء وهواء وصحة ، ولا يحصل إنسان على خمر وسيارات وفاكهة في غير أوانها ؟ ستكون حقاً حياة خنازير إذا قيست بهذه الحياة الكبيرة الرحيمة المتحضرة التي يتمتع بها الفقراء في هويت تشابل Whitechapel^(٣)

(١) نظام الاسبرطيين هو نظام أسبارطه إحدى المدن اليونانية القديمة ؛ والنظام الاسبرطي مشهور بصرامته وتضحيته بكل شيء في سبيل الدولة .

(٢) يريد جمهورية أفلاطون .

(٣) Whitechapel : حي من أحياء لندن في طرفها الشرقي يكاد سكانه كلهم يكونون من طبقة العمال وبه عدد كبير من اليهود . وبهذا الحي مستشفى لندن الكبير كما أن به معرضاً للفن أنشئ سنة ١٩٠١ .

(ج) تنظيم الصناعة على والأغنياء في بارك لين Park Lane (١).

يد السلطات العامة

استيورت : في وسعك أن تسخر كما تشاء ، ولكن هذا لن يثير غضبي .
 إن ما أقوله الآن هو ما أعتقد حقا ، مهما أسأت التعبير عنه . إن حياتك
 المنظمة ستكون حياة لا تطاق ، وأظن فوق ذلك — ويجب أن تسمع كل
 شيء — أنها ستكون مستحيلة . لقد كنت دائما تمنعني أن أتكلم حين
 كنت أهم أن أصرح بشكوكي ، ولكنني لن أسمح لك أن تمنعني بعد
 ذلك . إن مبدأ الجماعة الذي تقول به سيقوض دعائم القوة المحركة التي
 تستطيع وحدها أن تمسك المجتمع أن يتصدع ، والتي تجعله في الوقت نفسه
 متزنا متحركا . إنك تحتقر المنفعة الشخصية ، وفي هذا من العقل والمنطق
 بقدر ما في احتقار قانون الجاذبية ، لأن هذه المنفعة هي التي تسيطر على المجتمع
 وتحفظ كيانه ؛ وأي نظام مستطاع يوضع في صورة قواعد وقوانين وينفذه
 عمال حكوميون يمكن أن يسمو إلى ما يقرب من القدرة العجيبة التي تنشأ
 من هذا التعاون اللا شعوري بين الناس كلهم ؟ حاول أن تتصوره ! إن
 كل حاجة من الحاجات تقضى ساعة يفصح الناس إفصاحا حقيقيا عن شعورهم
 بها ؛ ورءوس الأموال تدخر بقدر حاجة الناس إليها ، والمواهب والكفايات
 والجهود على اختلاف أنواعها تنصرف إلى الجهة التي يحتاج إليها فيها ، لأن
 أصحابها يحصلون على الجزاء السكافي لاجتذابها ، وثمة توازن عام بين العرض
 (١) Park Lane من أحياء لندن الكبيرة مشهور بما فيه من القصور الفخمة ،
 وإلى الجهة الغربية منه الحديقة الشهيرة المعروفة بهيد بارك Hyde Park . وقد سكن
 في هذا الحي كثير من كبار الإنجليز المعروفين ، منهم لورد بيكنزفيلد السياسي الكبير ، وقد
 سكن في القصر رقم ٢٩ بين عامي ١٨٣٩ ، ١٨٧٢ ، ومنهم دوق ولنجتن القائد العظيم ،
 ومنهم شريدان Sheridan الخطيب والروائي ، ولورتن Bulwer Lytten القصصي ، ولورد
 Palmerston السياسي ، والسير سدي اسمث القائد البحري Sidney Smith الذي
 حارب نابليون في عكا .

والطالب أدق وأعقد وأوسع نطاقاً مما يستطيع العقل أن يدركه مهما بذل في (ج) تنظيم الصناعة على يد السلطات العامة ذلك من جهود ، وهذا كله يحدث من تلقاء نفسه لأن كل إنسان يعمل على الدوام بحريته (وسأكرر هذا اللفظ عامداً) ، مدفوعاً إلى هذا العمل بمنفعته الشخصية . إن هذا يحدث حقاً ، وهو موجود فعلاً ، ثم تأتي أنت هادئاً ومطمئناً وتقرح باسم شيء من السكالم المستحيل أن تضعف أبد الدهر ، أو أن تمت أبد الدهر ، ذلك النشاط العظيم الذي يسرى في كل شيء ، وأن تلغى الحرية التي هي المجال الوحيد لهذا النشاط ، وأن تستبدل بهذا النظام السوى التلقائي المتناسق الأجزاء ، قواعد سمجة خرقاء يقوم عليها جيش من الموظفين المتوسطى الكفايات ، يستعينون على تنفيذها بذلك الوهم الذي يسمونه روح الخدمة العامة . وأقول لك جاداً إنه لو كان الناس جميعاً صوراً مصغرة من كاتو Cato^(١) وهامبدن Hampden^(٢) ، فإنهم لن يستطيعوا مهما أوتوا من حسن الإرادة أن ينشئوا أصغر جزء من

(١) Marcus Forcus Cato ٢٣٤ - ١٤٠ ق. م. سياسى روماني نشأ من أسرة فقيرة واشتغل أولاً بالزراعة ، ثم انتقل إلى رومة وتدرج في الوظائف السياسية حتى أصبح قنصلاً ، وحارب في موقعة زاما الشهيرة . وكان من أشد المعارضين لانتشار الثقافة اليونانية في الدولة الرومانية ، لأنها تنذر بالقضاء على البساطة الرومانية ؛ وحمل حملة شديدة على مظاهر الترف التي بدأت تضعف من كيان الدولة في ذلك الوقت . وكان زوجاً شديداً ، وأباً دقيقاً ، ومعلماً قاسياً ، بعد صلاح الأسرة أقوى عامل في صلاح الدولة ، وبعده الرومان مثلاً للأخلاق الرومانية القديمة . وكان إلى ذلك من أوائل الكتاب الرومانيين ، كتب أول تاريخ لرومة باللغة اللاتينية ، وكتب رسالة في الزراعة ، وله مجموعة من الخطب هاجم فيها نبلاء عصره ، ومجموعة من الأمثال كتبها لابنه .

(٢) جون هامبدن John Hampden (١٥٩٥ - ١٦٤٣) سياسى إنجليزى اشتهر بمعارضته القوية للضرائب والقروض الإجبارية التي كان يطلبها الملك من الشعب في تلك الأيام ، رجوكم وسجن بسبب هذه المعارضة . وصار بعدئذ من أكبر زعماء الثورة على الملكية ومن قواد الجيش البرلماني في هذه الثورة ، ومن أكبر العاملين على تأييد سلطة البرلمان .

(ج) تنظيم الصناعة على يد السلطات العامة
هذا النظام العجيب الذي نتصوره ، أو أن يحصلوا على أصغر قدر من
النتائج الطيبة المنبعثة عن الجهود التي يبذلها الأفراد مستقلين من تلقاء
أنفسهم في ظل النظام الذي نستمتع به الآن .

مارتن : ألا ما أكثر استمساكنا كلنا بالخيالات ! وحتى أنت لا تستطيع
أن تفر من هذا !

استيورت : وماذا تعني بهذا القول ؟

مارتن : لقد كنت أفكر الآن كيف أنك تستبدل من حيث لا تشعر
بالحقائق القائمة بالفعل خطة نستطيع أن نسميها الخطة الاقتصادية ، فتصف
لنا الميول التي لا شك في وجودها وفي مفعولها ، ولكنها لا تحقق في وقت من
الأوقات ما ترمى إليه . إنك لا تجهل أن ما قلته كله يجب أن يقيد بهذه
العبارة المؤسفة وهي قولك « في آخر الأمر » ، مع أن كل ما في المجتمع من
ظلم وقسوة وسوء نظام لا يحدث في « آخر الأمر » بل يحدث في أوله ، لأن
أول الأمر هو الذي يشمل حياة الأفراد من أولها إلى آخرها . ويضاف إلى
هذا أنك قد أغفلت في تقديرك ما يحدث في المجتمع من احتكاك ، فقد شبهته
بآلة ووصفت عملها إذا كانت تقوم به على الوجه الأكمل في مادة صالحة كل
الصالح ، ولكن الحقيقة أن الآلة تعمل بعنف وفي مادة خسنة ، وهي تضطرب
وتهرس تلك المادة ، وتقف عن العمل ، وتقطع الخيوط ، وتمزق ما تعمل ،
وكل هزة وكل اضطراب وكل تأخير أو إسراع له أثره في حياة الناس .
وضجيج هذه الآلة وضجيجها عند ما تصر وهي سائرة في عملها القاسي الشديد
يخرجان من بين شفتي رجال العالم ونسائه .

استيورت : وهل تريد أن تقول إن مجتمعتك لن يكون فيه احتكاك ؟

مارتن : لا ، إن ما كنت أقوله هو أن كتلة الشعب في المجتمع الجماعي ،

ولو كانت السلطات هي التي تدير كل أموره ، ستمتع بقسط من الحرية (ج) لتنظيم الصناعة على أكثر مما تتمتع به في ظل نظامنا الحاضر لا أقل منه . ذلك بأن الناس في ذلك المجتمع سينالون حظاً أوفر من التعليم ، وسيهيأ لهم فيه من الفرص ما لا يتهيأ لهم في الوقت الحاضر ، ولن تقيدهم أغلال حياتهم الصناعية أكثر مما تقيدهم في هذه الأيام .

استيورت : لك أن تقول ما تشاء ، ولكن مجتمعا من هذا النوع إن وجد سيكون مجتمعا لا يطاق ، أفضل منه في رأي أحوالنا الحاضرة بكل ما فيها من عيوب لا أرتضيها . ولا شك عندي في أن هذا ما يراه جميع الناس ، أو على الأقل جميع الإنجليز ، إذا خيروا تخييراً حقاً وبسطت الأمور أمامهم بسطاً صحيحاً .

مارتن : إنك رجل صلب لا يلين ، ولكن يسرني أن النظام الذي تعارضه (د) تنظيم الصناعة بالإغراء هذه المعارضة الشديدة ليس النظام الذي أدعو إليه .

استيورت : ماذا تعني بهذا ؟ أقول إنه ليس النظام الذي تدعو إليه ؟

مارتن : إني أنا لا أشير بأن تحدد السلطات لكل إنسان عمله .

استيورت : وكيف تريد أن تُدير مجتمعتك إذن ؟

مارتن : أريد أن أسيره بما يقرب من الطريقة التي يسير بها مجتمعنا الحاضر طريقة الجذب والدفع . ذلك بأن الصفة الحقيقية المميزة لمجتمعنا الحاضر ليست حرية ، بل تلقائيته ، ومن رأيي أن أبقى له من تلقائيته هذه ما يتفق مع مبادئ الديمقراطية .

استيورت : وماذا تعني بالتلقائية ؟

مارتن : إن الذي أعنيه هو أن الناس ، وإن لم يكن لهم في معظم الأحوال من الحرية ما يستطيعون به أن يختاروا الطريق الذي يريدونه لأنفسهم في

(٥) تنظيم الصناعة
بالإغراء

الحياة ، يختارون مع ذلك في داخل هذا النطاق المضروب عليهم . فالقانون لا يفرض عليهم مهنتهم فرضاً ، وهم وإن لم يكن في مقدورهم أن يشعروا الناس شعوراً قوياً بما يطلبونه لأنفسهم من ضرورات الحياة نفسها في كثير من الأحيان ، ومن كالياتها بطبيعة الحال ، يحصلون على ما يستطيعون أن يشعروا الناس بأنهم يطلبونه حقاً ، وذلك من غير أن تتدخل الحكومة بنفسها في ذلك . وليس في وسعي أن أخالفك في أن الآلة التي تؤدي هذا العمل خير في ذاتها من التنظيم العام ، ولو افترضنا أن هذا التنظيم قد يماثلها في قدرتها على ضمان النتيجة المرغوبة .

استيورت : يسرني أنك تعترف بهذا على الأقل .

مارتن : لا شك في أنني أعترف به ، وذلك لسببين : أولهما أن من الصعب على الموظفين أن يوفقوا بين قواعدهم وبين اتجاه مطالب الناس ، وثانيهما أن خيار الناس يبغضون هذه القواعد في ذاتها كما يبغضها شرارهم ، ولهذا أحب أن أحتفظ من ذلك النظام التلقائي القائم الآن بما يستطيع الاستعانة به على الوصول إلى مثلي الأعلى .

استيورت : وهل في هذا النظام ما يعينك على قصدك ؟

مارتن : فلننظر في هذا ، ولنبدأ أولاً ببحث هذه المسألة الهامة مسألة اختيار الإنسان عمله . فكيف يتم هذا الاختيار في ظل النظام الحاضر ؟ استيورت : إن لكل إنسان أن يختار في حدود قواه والفرص التي تتاح له ذلك العمل الذي يبدو له أعظم الأعمال نفعا ، ونتيجة ذلك حدوث تعديل مستمر في العرض والطلب ، فيتزاحم الناس على الأعمال التي تكون أكثر حاجة من غيرها إليهم ، لأن مغريات هذه الأعمال أعظم ، والعكس بالعكس .

مارتن : وهذا بالطبع مقيد بكل الاستثناءات والقيود التي أكتتها لك من

قبل ؛ وهذه الأداة بعينها هي التي أريد لها في مجتمعي ، وهي لا تفترق عن الأداة التي وصفتها أنت إلا في أنها أصلح لأداء الغرض الذي أنشئت من أجله ؛ فساغرى الناس بالعمل حيث تشتد الحاجة إليهم بالأجور العالية أو غيرها من المزايا التي تفرق بينهم وبين غيرهم من الناس ، وأعمل عكس هذا فيما لا يحتاج إلى كثرة الأيدي العاملة ؛ ولكن المتنافسين في ظل النظام الذي أعمل له سيبدأون عملهم متساوين من حيث المزايا الاجتماعية ، ولهذا سيكون العمل أكثر ملائمة وأكثر اتفاقاً مع أذواق الناس ومواهبهم مما هو الآن .

استيورت : وكيف تستطيع أن تفعل ذلك كله ؟

مارتن : سأستعين على ذلك بمقياس من الأجور وساعات العمل يحدده موظفون مختصون بهذا العمل . فإذا وجدوا مثلاً أن الأيدي العاملة التي تتقدم للاشتغال في الزراعة أقل من حاجتها ، وأن العمال الذين يتقدمون للاشتغال بصناعة القطن أكثر مما تحتاجه هذه الصناعة ، رفعوا أجور العمال في الأولى وخفضوها في الثانية حتى يتعادل العرض والطلب .

استيورت : ولكنك إذا حددت الأجور بمقياس العرض والطلب كما هي محددة في هذه الأيام ، فإذا يحدث لمقياسك الآخر مقياس الإنصاف ؟
مارتن : في هذا بالضبط يبدو جمال نظامي . ذلك أن المقياسين سيتجهان إلى أن ينطبق كلاهما على الآخر كل الانطباق ، بعكس اتجاههما في مجتمع هذه الأيام .

استيورت : ولم يحدث هذا ؟

مارتن : يحدث هذا بسبب تساوى الفرص . فسكر في الأمر قليلاً . إذا كان لديك مجتمع مؤلف من وحدات متساوية حقاً ، وكلفت هذه الوحدات بأداء أعمال مختلفة بعضها مغر جذاب وبعضها منفر ، وكان عليك أن تنجز

(٥) تنظيم الصناعة
بالإغراء

هذه الأعمال كلها بطريق الإغراء لا بطريق الإرغام ، كان الواجب عليك أن تضم إلى العمل المنفر ما يكفي من المزايا للتغلب على نفور الناس منه . وقد تكون هذه المزايا رفع الأجور أو نقص ساعات العمل أو نحوها من المغريات التي تؤدي إلى الغرض المطلوب . وسيكون الحد الذي يستجيب عنده الناس لهذه المغريات هو أيضا حد الإنصاف حسب هذا المقياس الذي اخترته ، ذلك أن ما في العمل من أسباب تنفر الناس منه سيعوضه في اعتقاد العامل نفسه ما يناله من زيادة في الأجر .

استيورت : ذلك نظام ينطوي على ذكاء كثير ، ولكنك وإن افترضت تساوي الفرص في مجتمعك لا تستطيع أن تدعي أن وحدتك التي يتألف منها ستكون متساوية حقاً .

مارتن : نعم لن تكون متساوية إلى أقصى حد ، وهذا يبعدنا بطبيعة الحال عن الإنصاف الكامل . إنك إذا أضفت إلى عمل من الأعمال ما يكفي من المزايا لجذب كل من يحتاجهم من العمال ، فإن بعضهم من غير شك سينالون من الأجر أكثر مما يجب أن يفالوه ، لكن المبدأ في حد ذاته سليم لا غبار عليه ، ومن واجبنا أن نتعاضد عما نتبينه في أثناء تطبيقه من نقص في دقته . استيورت : وهناك بعد ذلك نقطة أخرى . إن أنواعاً خاصة من الكفايات ستكون نادرة الوجود في مجتمعك ، فإذا سرنا على نظام الأجور الذي تقترحه الآن فسيكون في وسع أصحاب هذه الكفايات أن يطلبوا خدماتهم أجراً عالياً كما يطلبون لها الآن ، ومن ثم تنال الكفاية الطبيعية جزاءها ، إذا نظرت إليه حسب تحريكك السابق عدده ريعاً .

مارتن : هذا صحيح ، ولكنني على استعداد لأن أرضي به لكي أضمن بذلك حسن سير المجتمع الذي أنشده . ولقد سلمنا من قبل أن الإنصاف في

رأى البعض أن ينال الإنسان كل ما يستطيع الحصول عليه جزاء تفوقه في كفايته الطبيعية ؛ ولست أظن أن مجتمعي الديمقراطي سيفضيه هذا كثيراً ، إذا كان في غيره من الأمور يسير سيراً سهلاً مستقيماً .

استيورت : لـسكن هذا السير يتضمن مع ذلك الخروج عن مبدأ الإنصاف الذي تؤمن به .

مارتن : لقد قلت وأنا أشرح هذا المبدأ إنني قد أضطر إلى تعديله بعض الشيء عند ما نصل في بحثنا إلى هذه النقطة . على أنني لا أعد هذا الاعتراض أمراً ذابالاً ، لأنني أظن أن أنواعاً خاصة من الكفايات لن تكون في ظل نظام يضمن المساواة الحقيقية في الفرص نادرة إلى الحد الذي تبدو به في ظروفنا الحاضرة ، حيث لا تجد بعض المواهب الفرص الملائمة لتماثلها . ومن رأيي أن ميزان العرض والطلب وميزان الإنصاف سيتفقان في معظم الأحوال ، وأن ما عساه يوجد بينهما من الفروق لا يضايقنا كثيراً .

استيورت : ربما ضايقتك هذه الفروق أكثر مما تظن ، ولكنني قد أوضح لك هذه النقطة ولا أريد أن أطيل الكلام فيها .

مارتن : فلننتقل إذن إلى النقطة الثانية . إن ثمانية للمشاكل الكبرى في مجتمعي الديمقراطي هي مشكلة توازن العرض والطلب في السلع ، ومن رأيي أن أحفظ في هذه المسألة أيضاً بمبدأ الحركة الذاتية التلقائية .

استيورت : وكيف يكون ذلك ؟

مارتن : يرفع ولاية الأمور أثمان البضائع كلما زاد الطلب عليها على أن تبقى في أحوالها الأخرى مساوية لغيرها كما كانت من قبل ، والعكس بالعكس . وسيكون هذا الارتفاع في الثمن كما هو الآن إشارة بزيادة إنتاج هذه السلع التي ازداد ثمنها ، وزيادة رأس المال المخصص لإنتاجها بطبيعة الحال .

(٥) تنظيم الصناعة
بالإغراء

(٥) تنظيم الصناعة
بالإغراء

استيورت : سيكون ادخار رأس المال واستخدامه مشكلة من أكبر المشاكل . ذلك أن هذا الادخار يحدث الآن من تلقاء نفسه بتأثير معدل الفائدة ، أما مجتمعك فلن يكون فيه فائدة لرؤوس الأموال ، ولن يكون فيه ادخار من جانب الأفراد ، بل يكون على المجتمع نفسه أن يقرر على لسان موظفيه ما يجب ادخاره من رؤوس الأموال ، وما يجب أن يخصص له المال المدخر .

مارتن : هذا صحيح وسيكون من واجب الموظفين أن يسترشدوا في حسابهم بأحوال العرض والحاضر والمرقب ، كما يفعل أصحاب رؤوس الأموال الآن ، وكل ما هنالك من فروق بين الحالتين أن الباعث على الادخار في الحالة الثانية لن يكون الشره الفردي بل سيكون الصالح العام ، وأن الأفراد لن توزع عليهم فوائد .

استيورت : إن ذلك يتطلب من موظفيك ومن مجتمعك الذي يعتمدون عليه ذكاء نادراً وبعد نظر عظيم .

مارتن : إن نظم مجتمعي ستجعلهم من هذا الصنف من الناس . ولكن قل لي هل تقرر بأن هذه الوسائل ستمكن المجتمع الجماعي من أن يكون فيه أقل قدر مستطاع من التنظيم الخارجي ، وأكبر قدر مستطاع من السير الذاتي التلقائي ؟ استيورت : إن نصيبه من العمل الذاتي التلقائي لن يكون كبيراً ، فميزان الأجور وميزان الأثمان سيحددان نوع العمل الذي يختاره العامل ونوع الإنتاج الذي ينتجه كما يحددهما الآن ، ولكن هذين الميزانين نفسيهما سيضعهما ولاية الأمور .

مارتن : هذا صحيح .

استيورت : لكن عليك أن تتصور الصعاب . يجب أولاً أن يكون لديك

موظفون لا يقلون ذكاء ولا كفاية عن خير رجال الأعمال في هذه الأيام . (٥) تنظيم الصناعة
بالاتجاه
مارتن : يجب ألا أياس من هذا ، وأعتقد أننا في إنجلترا نغالى في تقدير
كفاية رجال الأعمال وننقص من كفاية الموظفين .

استيورت : لا أوافقك على هذا ، وحتى إذا كانت الحال كما ذكرت
فليس في مقدورك أن تنكر أن لدى رجال الأعمال من البواعث القوية ، التي
تدفعهم إلى الاستفادة من كفاياتهم إلى أقصى حد مستطاع ، ما لا يوجد مثله
لدى الموظفين ، وذلك لأن نجاح رجال الأعمال أو نشاطهم في الحياة ، وغناهم
أو إفلاسهم ، كل ذلك موقوف على نتائج جهودهم .

مارتن : إن الأسباب التي لديهم أحقر مما لدى الموظفين ، ولكنها ليست
لهذا السبب أقوى منها . إنى أعتقد أن ما يقوم به موظفونا المدينون من الأعمال
في داخل البلاد وخارجها في ظروفنا الحاضرة نفسها يشهد بأن الرغبة في
الصالح العام وفي الشرف واحترام النفس قوية إلى الحد الذي يمكن الموظف
من أداء واجبه خير أداء .

استيورت : وإذا سلمنا أن هذا صحيح — لأن الإنسان قد يجادل إلى
ما شاء الله ولا يصل إلى نتيجة حاسمة في مثل هذه المسألة — بقيت أمامنا
مشكلة أخرى أقوى من هذه وأكثر استعصاء على الحل . إن حكومة
مجتمعك ستكون من غير شك حكومة ديمقراطية ؟
مارتن : نعم .

استيورت : معنى هذا إذن أن الموظفين سيكونون خاضعين خضوعاً مباشراً
إلى حد ما لإشراف أولئك الأفراد الذين يحدد الموظفون لهم أجورهم وأثمان
بضائعهم ، ويجنمون جزءاً من منتجاتهم ليكون بمثابة رأس مال للإنتاج
الآجل ، بدل أن يسمحو لهم بأنفاقه في شهواتهم العاجلة . تصور ما ينتج

(٥) تنظيم الصناعة
بالإغراء

عن هذا من الارتباك . سيجاول كل صنف من العمال أن يرفع أجوره ويخفض أجور غيره ، وسيحاول العمال بوجه عام أن ينفقوا أكثر ما يستطيعون إنفاقه على أنفسهم ، وأن يدخروا للأجيال المقبلة أقل ما يمكن إداخاره . إن الناس في هذه الأيام إذا ما ادخروا المال ادخروه لأبنائهم ، ولكن المجتمع كله لا يشعر نحو أبناء المجتمع كله بذلك الشعور الأبوي الذي يحس به الآباء نحو أبنائهم . فكيف تتوقع في هذه الظروف أن يسير النظام الذي تبتغيه ؟ وإذا سلمنا أن الموظفين سيكونون من الكفاية والإخلاص بالقدر الذي تفترضه أنت فيهم — وهذا في حد ذاته افتراض مبالغ فيه لا يمكن ضمانه — فإن النظام الديمقراطي لا يمكنهم قط من العمل لمصلحة المجتمع الحققة ، وسيعمل أصحاب كل حرفة لمقاومة غيرهم من أصحاب الحرف الأخرى ، وسيعملون جميعاً لغير المصلحة الآجلة ولمصلحة الجيل الحاضر دون غيرها .

مارتن : ليتنى كنت أقل صراحة مما أنا ! إذن لكان من السهل على أن أرد على اعتراضك .

استيورت : وكيف كنت تستطيع أن ترد على ؟

مارتن : كنت أغمرك بسيل مما أعترم وضعه من النواهي والزواجر ، والمجالس المحلية والمركزية ، والمفتشين والمأمورين ، واللجان وامتحانات المسابقة ، وضمانات الحقوق ، وما إلى ذلك من دقائق الأداة الحكومية . وكان في وسعي أن أقر صراحة أن كل إنسان سيعمل لخداع المجتمع ، وأن كل حرفة وكل مهنة ستحاول أن تخدعه ، وأنى سأعمل على إحباط هذه المحاولات كلها بما أضعه من النظم لهذا الغرض . ولكنني عاجز عن أن أرد عليك هذا الرد . إن الصراحة تضطرنى إلى الاعتراف بأن المجتمع الذى

تفحط أخلاقه إلى هذا الدرك الذى وصفته لن يفيد من أية صورة من النظام (٥) تنظيم الصناعة
بالإغراء.

استيورت : هذه حجتي .

مارتن : وهى حجة ما أقواها ! ولكن هل تسمح لى ، وقد تخلت عن
وسيلة واضحة من وسائل الدفاع ، أن أحاول على الأقل الاستفادة بعض الشيء
من وسيلة أخرى ؟ دعنى أعرض عليك بعض الأسباب التى تدعونى إلى
الاعتقاد بأن الأخلاق فى المجتمع الجماعى ستكون أعلى مما تظن .

استيورت : لك أن تقول ما تشاء بطبيعة الحال .

مارتن : إن النقطة الأساسية فى أقوالى هى أن هذا المجتمع سيكون
أول مجتمع فى تاريخ العالم ، يلتزم فى نظمه الإنصاف قدر المستطاع ؛ وسوف
يكون لكل مواطن فيه أن يفحص عن هذه النظم ، ولن تخشى هى شيئاً
من هذا الفحص . ولأول مرة فى تاريخ العالم أيضاً سيكون غرض الحكومة
العمل لمصلحة المجتمع بوجه عام لا لمصلحة الطبقة الحاكمة وحدها .
والمفروض أيضاً أن أفراد هذا المجتمع سيكونون أذكاء متعلمين ، يعرفون
كلهم الأسباب التى توجه السياسة العامة فيه ، ويدركون أنها موجهة للمصالح
العامة . فإذا ما أصيبت إحدى المصالح بأذى مؤقت ، وعاد على إحداها نفع مؤقت ،
وكان هذا حادثاً محتموماً اقتضته هذه السياسة العامة ، فإن ما أنتظر حدوثه
فى المجتمع هو الموافقة القائمة على الذكاء والافتناع لا المساومة العمياء
البلهاء . ولست أتصور أيضاً أن يبلغ المواطنون فى هذا المجتمع من قصر
النظر وعدم إدراك مصلحتهم الخاصة مبلغاً يأتون معه أن يدخروا جزءاً من
دخلهم العاجل ليتخذوا منه رأس مال لدخلهم الآجل . ذلك أن الضرورة التى
تدعو إلى هذا الادخار واضحة غير منكورة ، سهلة الإيضاح لهم إلى حد

(٥) تنظيم الصناعة
بالإغراء

لا أتصور معه أن أحداً منهم يخفى عليه أمرها . ولست أظن أيضاً أن مصلحة
أبنائهم ستكون من الهوان عليهم بحيث يرفضون أن يعملوا ما هو خير لهم .
لست أنكر أنهم سيرفضون أن يتحملوا من التضحيات أكثر مما يجب أن
يتحملوا ، وهم في ذلك محقون . وأكبر الظن أنهم سوف يحددون عدد
أفراد أسرهم كما قلنا من قبل ، وسوف لا يتحملون هم وحدهم أعباء المستقبل
جميعها ويتركون المنافع كلها لأبنائهم . ولكنني أظن مع ذلك أنهم سيعنون
بأطفالهم عناية الآباء في هذه الأيام ، وإذا ما أصبحت هذه العناية جماعية
لا فردية كما هي الآن فإني لا أوافق على أنها ستكون حتماً أقل أثراً من
عنايتنا في الوقت الحاضر . ولن يحتاج هؤلاء الآباء إلى أن يكذبوا أذهانهم
لكي يدركوا أن مصلحة أبنائهم تتطلب منهم أن يضخوا من أجل المجتمع
ببعض المتع العاجلة ؛ ولن نكون مبالغين في تقدير الطبيعة البشرية إذا
افترضا أنهم متى أدركوا ذلك تحملوا هذه التضحيات طائعين مختارين .
وقصارى القول إن قضيتي تتلخص في أنك ترى الآن موقف معظم الناس
من حكومة يرون أن نشاطها لا يتفق مع الصالح العام إلا في القليل ، ثم
تستنتج من هذا في غير روية ما سيكون عليه موقفهم من حكومة أقاموها
هم أنفسهم حقاً لغرض واحد هو الإشراف على النظم المؤسسة على الإنصاف ،
المعترف به منهم بالإجماع . إن بين الحكومتين فرقاً عظيماً ، ولست أعتقد
أنى أجرى وراء الأوهام الخيالية السخيفة إذا قلت إن مشكلة الحكم قد
تحل نفسها بنفسها في المجتمع الجماعي بطريقة أسهل من التي يرضى أن
يسلم بها المعارضون لهذا النظام .

استتيورت : قد يكون ذلك في الإمكان ، ولكن لا أظن أن المشكلة
ستحل بهذه الطريقة السهلة .

مارتن : وليست قدرتي على أن أثبت لك أنها ستحل بأقوى من قدرتك (هـ) الصناعة غير المقيدة في الديمقراطية على إثبات العكس ، ولا شيء يفصل بيني وبينك إلا التجربة ؛ وإذا كنت لا ترضى أن توجه التجارب الوجهة التي أرغب فيها فهل نحاول التوفيق بين آرائي وآرائك ؟ فقد يكون مستطاعا أن نحفظ في مجتمعي بقدر ما من الحركة التلقائية الذاتية ، لا يقل عما هو في مجتمعا الحاضر ، وأن يكون فيه في نفس الوقت ما أطلبه له من الإنصاف .

استيورت : وكيف تريد أن تفعل ذلك ؟

مارتن : أريد منك أن تفعله أنت .

استيورت : أنا ! وما شأني أنا والعمل لهذا الغرض ؟ إني أنا الناقد لا المنشئ الباني .

مارتن : ولكنك مع ذلك تحتفظ لنفسك بوجهة نظر خاصة لا تحيد عنها ، فأنت المدافع عما تظنه الحرية ؛ والذي أقترحه أنا أن نضع أولا مشروع نظام لمجتمع ، أو على الأصح لمجتمعين ، يقومان على أساس العدالة والإنصاف ، ثم نعود بعد ذلك إلى أساسك أنت وننظر أي النتائج نصل إليها إذا أقفنا عليه مجتمعا يتفق معه في كل شيء . ومن يدري لعلنا نصل إلى نتيجة نرضيها جميعا . استيورت : أعتقد أن ليس شيء أبعد من هذا احتمالا . ومع ذلك نحاول ما استطعنا .

مارتن : عليك أن تكون أنت البادي لأن بحثك هو الأساس الذي نبني عليه .

استيورت : لا ، إني أرفض هذا رفضا باتا ، فأنا هنا معارض أحاول بإذن منك أنت وهرجتين أن أردكما إلى عقلكما ، وليس البناء من على فلسف أدعى أنني بناء .

(هـ) الصناعة غير المقيدة
في الديمقراطية

مارتن : سأتولى أنا المهمة وأبذل فيها كل ما أستطيع ، وستقوم أنت
بتصحيح أخطائي . إنك تقول حسباً فهمت إن الحرية يجب أن تكون
الأساس الذى يقوم عليه المجتمع .

استيورت : نعم .

مارتن : ولكن ماذا تقصد بالحرية ؟

استيورت : أقصد معنى محددًا دقيقاً ، هو التحرر من التنظيم الحكومى .

مارتن : إنك إذن فوضى ؟

استيورت : هل يبدو على أنى من هذا النفر ؟

مارتن : أعترف صراحة أنك لا تبدو فوضوياً بل تبدو كأنك من أولئك
الذين يؤمنون بنظامى الملكية والشرطة .

استيورت : إنك لا تقول عني إلا الحق .

مارتن : إذن يكون الواجب علينا أن نضع للمبدأ الذى تقول به لفظاً آخر
أدق من لفظ التحرر من التنظيم الحكومى . ذلك بأنه ليس ثمة نظام أدوم
أو أكثر إرهاباً ، أو أشد تطرفاً وقسوة ، من النظام الذى ينطوى عليه وجود
الملكية والشرطة ، فبفضلهما يبقى فى العالم صنف من الرجال ويسمو فوق
الناس كلهم ، وكان حرياً به لو لا هذا النظام ألا يوجد قط ، أو أن يشغل
أحط درجات المجتمع إذا ما وجد . ولأوضح لك هذه النقطة أرجو أن تتصور
أن الحكومة قد انحلت عراها نخاة ، ولم يعد فى وسع أغنيائنا أو المشرفين على
الصناعة عندنا أن يستدعوا القوات الحكومية لحماية أملاكهم وأرواحهم ،
إذن لتبدلت الحال غير الحال . ويبدولى الآن أنى أرى بعين الخيال مستر

كرنيجى Mr. Carnegie ^(١) ومستر بير پنت مورجن Mr. Pierpont

(١) سبق الكلام عليه

Morgan^(١) ولورد رتشيلد Lord Rothchild^(٢) وأمثالهم مهرولين لاهشين (هـ) الصناعة غير المقيدة في الديمقراطية

خائري القوى ، ذهبت عقولهم من شدة الرعب ، بعد أن تبينوا فجأة أن ليس لهم من القوة الشخصية ولا من الكفاية ما يمكنهم من أن يحتفظوا بشيء مما لديهم ، ولا أقول أن يُحصّلوا أكثر مما حصّلوه ؛ وأرى كذلك الأساتذة أمثالي عاجزين مذهولين يطلبون الصدقات من الأوباش الأقوياء ؛ وأرى المالبين والمحامين والمضاربين في المصافق حائرين لا يجدون لأنفسهم خلاصاً ، وطبيبات العالم كلها يقنصنها في تلك الساعة أقدر الناس على امتلاكها والاحتفاظ بها ، لما وهبوا من قوة في الجسم أو في الخلق .

استيورت : لن يكون هؤلاء حتماً أفقر الناس .

مارتن : نعم ، لن يكونوا هم أفقر الناس . إن بعض الشبان ممن يعملون في الأسواق المالية ، ولم ينقطعوا عن ممارسة الرياضة البدنية ، ستتاح لهم فرصة طيبة ؛ أما كبار المالبين ورجال المصارف فأخشى أن يصيبهم أذى كبير . ومهما يكن من هذا الأمر فستسود المجتمع فترة من الزمن قصيرة لا يبقى فيها أثر للنظام أو الثروة والثقافة ، ثم تعقبها حالة دائمة من عدم الأمن يستحوذ فيها على السلطان أقوى الناس أجساماً وأكثرهم دهاء ونحوم . وأظن أن هذه هي الحال التي ترى أنها قد تحررت من التنظيم الحكومي بكافة أنواعه . وبما أنك لا توافق على هذه الحال فلا بد لي أن أسألك ما هي الحال التي توافق عليها وترغب في وجودها ؟

(١) John Pierpont Morgan ١٨٣٧—١٩١٣ المئري الأمريكي الشهير ورجل الصناعة العظيم وشريك المستر أندرو كرنيجي السالف الذكر .

(٢) أسرة رتشيلد Rothschilds : أسرة يهودية من كبار أصحاب المصارف الدولية ، أصلها من مدينة فرانكفورت على نهر المين ، أسست مصرفها الشهير في ألمانيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ثم أسست لها مصارف أخرى في لندن ونابلي . وبيت رتشيلد هو الذي أقرض الحكومة الإنجليزية المال الذي اشترت به أسهم لإسماعيل باشا في قناة السويس

(هـ) الصناعة غير المفيدة
في الديمقراطية
استتيورت: إن الذي أرغب فيه بطبيعة الحال هو التحرر إلى أقصى حد
من القيود الحكومية ، على ألا يتعارض ذلك مع نظام الملكية الفردية .

مارتن : ولكن ما هو المبدأ أو المثل الأعلى الذي يضطرك إلى أن
تقدر نظام الملكية الفردية ذلك التقدير ويحملك على الرضا بهذه الآلة
الحكومية الضخمة ؟

استتيورت : أليس كل هذا من الأوليات ، ومما لا ضرورة للبحث فيه ؟
إني أنا بطبيعة الحال أعرف الملكية قيمتها كما يعرفها سائر الناس ذوى العقول
الراجعة ، وأعتقد أنها الشرط الأساسي لنشاط الأفراد الحر الذي يشمر
أعظم قدر من الثروة المادية ومن الرقي بوجه عام .

مارتن : أتعني نشاط كل الأفراد أم نشاط بعض الممتازين منهم ؟
استتيورت : لا ، لست أقصد كل الأفراد .

مارتن : يحق لى إذن أن أعدك من بادى الأمر رجلاً ديمقراطياً ، وأنتك
بهذا الوصف تناصرنى على هرنبختن .

استتيورت : نعم . أظن أنى أناصرك عليه .

مارتن : إنك إذن تقبل وجود شيء من الإنصاف مع شيء من الحرية .

استتيورت : نعم بطبيعة الحال .

مارتن : إذا تيسر إذن أن يبدأ الناس جميعاً حياتهم فى كل جيل من
الأجيال وهم متساوون فى المنافع الخارجية ، وأن يكون لهم جميعاً كامل الحرية
فى تنمية مواهبهم ، فإنك تحصل بذلك على شيء من النظام شبيه بالذى
ترغب فيه ؟

استتيورت : نعم أظن ذلك .

مارتن : إن مبدأك الحقيقى إذن هو المساواة فى الفرص ؟

استيورت : نعم ولكن بالقدر الذى تتفق فيه تلك المساواة مع الحرية . (هـ) الصناعة غير المقيدة
 فى الديمقراطية
 مارتن : أظن أنها تتفق مع الحرية بالمعنى الذى تفهمه أنت منها ، ولكننى
 أظن أننا إذا بنينا على أساس هذا المبدأ حصلنا على مجتمع يختلف عن مجتمعنا
 الحاضر بقدر ما يختلف عنه مجتمع هرنجمن الأرسقراطى أو مجتمعى الديمقراطى .
 استيورت : وما سبب هذا الاختلاف ؟

مارتن : هذا ما سيتبين لنا بعد . ولكن علينا أولاً أن نفهم المقصود من
 الحرية بوضوح . لقد قلت إن ما تفهمه أنت منها هو التحرر الكامل من
 التدخل الحكومى ، على ألا يتعارض هذا التحرر مع الملكية الفردية ،
 وأظن أنى يصح لى أن أضيف إلى ذلك اطمئنان الإنسان على نفسه والتزامه
 القيام بتعهداته .

استيورت : نعم .

مارتن : ولكن ما هو المعنى الذى تفهمه من الملكية الفردية ؟ هل تفهم
 منها حتماً كل أشكالها ودقائقها التى يَفَصِّلُها القانون فى الدول الغربية ؟
 استيورت : هذا ما كنت أقصده .

مارتن : يحق لى إذن أن أثير هذا السؤال وهو : هل يجب أن تفهم منها
 هذا المعنى ؟ وهل لا تستطيع أن تصل إلى مثلك الأعلى ، وهو أن تجمع بين
 التحرر من القيود العامة والمساواة فى الفرص ، باتباع نظام آخر يقر هو أيضاً
 الملكية الفردية ؟ أظنك ترضى أن تبحث هذه المسألة ؟

استيورت : نعم من غير شك .

مارتن : على إذن أن أذكرك أولاً بأن نظامنا الحاضر لا يوجد فيه ما يقرب
 من المساواة فى الفرص . هذه نتيجة واضحة أوصلنا إليها بحثنا السابق كله .
 لقد رأينا أن الفرص تختلف باختلاف الطبقات ، وأن الطبقات كثيرة العدد

(هـ) الصناعة غير المفيدة منفصلة بعضها عن بعض كل الانفصال ، فبعض هذه الفرص يفتح الباب في الديمقراطية

للحياة الخاملة المتعطلة ، وبعضها يمهّد السبيل للمهنة ، وبعضها للأعمال السكتائية ، والبعض الآخر للحرف التي تتطلب المهارة ، والبعض للأعمال العادية ، وبعضها يؤدي إلى الموت جوعاً . لقد اتفقنا من قبل على أن هذا صحيح في مجملته .

استيورت : إلا أننا قلنا إن ثمة فرصاً تتاح لبعض الناس لينتقلوا من طبقة إلى طبقة .

مارتن : نعم ، ولكن الحقيقة بوجه عام كما وصفت . أتعرف السبب في ذلك ؟ إن بعض السبب يرجع من غير شك إلى أن أبناء من يحتسرون نوعاً خاصاً من العمل يتاح لهم ما لا يتاح لغيرهم من الفرص للاشتغال بهذا العمل نفسه . أما السبب الرئيسي فهو أننا نسمح للأفراد بتوارث الثروة . والآن يبدو واضحاً أن إلغاء هذا الجزء من قانون الملكية الفردية لا ينقص قط من الحرية ، في حين أنه يزيد ، أو قد يزيد ، نسبة المساواة في الفرص زيادة لا حد لها .

استيورت : وعندئذ تعترضنا هذه الصعوبة وهي : إذا لم يرث الأفراد الأملاك عادت حتماً إلى المجتمع ، وسيؤدي هذا بنا إما فوراً وإما تدريجاً — حسب ما نضع من النظام لفترة الانتقال — إلى المجتمع الجماعي وهو ما اتفقنا الآن على أن نتجنبه .

مارتن : دعني أبين لك الفرق بين النتيجةتين . إن إلغاء نظام الميراث سيؤدي بنا حتماً إلى جعل الأرض ورأس المال ملكاً للمجتمع ، ولكنه لن يؤدي حتماً إلى أن تديرها السلطات العامة ، وهو ما أفهمه من المجتمع الجماعي ؛ وفي هذا يكون الفرق بين الديمقراطية التي وصلت أنا إليها ، وبين

المجتمع الذى نشأته أنا وأنت الآن . إن علينا أن نقر الملكية العامة ، (هـ) الصناعة غير المقيدة
ولسكن ليس علينا حتما أن نقر إدارة الأملاك على يد السلطات العامة .

استيورت : وكيف توفق بين الأمرين ؟

مارتن : أوفق بينهما بطريقة مألوفة الآن وقبل الآن من الوجهة العملية
إذا كانت السلطات العامة تمتلك خطوط الترام مثلا وتؤجرها لشركة من
الشركات ، فما الذى يمنع إذن أن تتبع هذه الخطة ويتوسع فيها إلى أقصى
حد مستطاع ؟ ولم لا يصبح المجتمع شيئا فشيئا صاحب كل رؤوس الاموال ،
ثم يعهد بها إلى الأفراد والشركات ، يديرونها نظير نسبة محدودة من الأرباح
يصممها وجود المشروعات نفسها ، ويصبح الجمهور فى الواقع مساهما فى هذه
المشروعات . والأفراد يمدلون فيها أقصى جهودهم لاستثمارها ، ويحصلون على
جميع أرباحها بعد نصيب الدولة منها ؛ ثم تعود أرباح هؤلاء الأفراد بعد
موتهم إلى المجتمع نفسه بطبيعة الحال ، ويخصص الجزء الأكبر منها
للأغراض العامة ، كإصلاح المدن ، وتحسين وسائل الصحة والتعليم ونحوها
من المرافق التى يستفيد منها الجميع على السواء ، والتى تؤدى فى النهاية إلى
إيجاد المساواة بين الناس فى بدء حياتهم ؟ وسيؤدى ذلك فى النهاية إلى
الهدف الذى ترمى إليه ، وهو أن يكون لكل إنسان كامل الحرية فى أن
ينظم حياته كما يشاء ، وأن يقدم وبغامر وينافس ، لا تقيدته الحكومة فى
شئ من هذا ، وتصبح هذه الحرية لأول مرة حرية حقة ، يتمتع بها الكل
على السواء ، بسبب ما هنالك من مساواة فى الفرص .

استيورت : ليس لى على هذا إلا اعتراض تافه ، وهو أنك حين
تلغى توارث الثروة تقضى على أكبر دافع يدفع الناس إلى التنافس فى
العمل والإنتاج .

(هـ) الصناعة غير المقيدة
في الديمقراطية

مارتن : هل هو حقيقة أكبر دافع إلى هذا التنافس ؟ لقد بحثنا هذا الأمر من قبل ، وإني لأعتقد أن الطموح ولذة العمل ، والرغبة في الإتيان وفي النجاح ، كلها عوامل أنبل وأقوى أثراً في الإنتاج من الرغبة في توريث الثروة بعد الموت . بل إننا إذا راعينا أقل الأغراض قيمة وجدنا أن الفرصة الوحيدة التي تمكن الإنسان من الحصول على قدر من نم الحياة ومزاياها أكثر من القدر العادي المألوف ترتبط في نظامي الجديد بنجاح المرء في إدارة عمله أكثر مما ترتبط بهذا النجاح في الوقت الحاضر لا أقل منه ، وذلك لأن الإنسان في هذا النظام الجديد لن يبدأ حياته وأمامه هذه العقبة الكأداء عقبة الأملاك الموروثة .

استيورت : وهل تتصور حقاً أن الإنسان سوف ينشئ عملاً ويستثمر فيه جزءاً كبيراً من دخله ليضعه رأس مال له إذا كان يعرف أن عمله كله سيعود إلى الجمهور بعد وفاته ؟

مارتن : أظنه يفعل ذلك إذا كنت أنت على حق في فرضك الأساسي ، وهو أن أكثر ما يرغب فيه الناس هو الاستقلال والابتكار وتحمل التبعية . وقد يفرض عليهم أن يختاروا بين اثنتين : إما أن يصبحوا خدماً مأجورين للمجتمع ، فلا يخاطرون بشيء ، ولا يفكرون في أن ينالوا جزءاً غير عادي ، وإما أن يقيموا هم أنفسهم عملاً لهم قد تناح لهم فيه فرصة الحصول على ثروة كبيرة ، وإظهار كفاياتهم باختيارهم غير خاضعين في هذا كله لسلطان غيرهم . فإذا اختاروا جميعاً الطريق الأول أصبح المجتمع من النوع الذي وصفته ، أي مجتمعةً ديمقراطيةً جماعيةً ؛ وإذا اختاروا الطريق الثاني كانت النتيجة مجتمعةً قائماً على أساس الحرية ، أو الحركة الذاتية التلقائية

كما أفضل أن أسميها ، وعلى أساس المساواة في الفرص . ويبدو لي أن هذه (هـ) الصناعة غير المفيدة هي النتيجة المنطقية لمثلث الأعلى .

استيورت : إذا شئت أن تجعل المجتمع مطابقاً لشيء أستطيع أن أسميه مثلاً أعلى ، فإن أقول ما يجب عليك أن تسمح فيه بقدر من توارث الثروة يمكن الآباء من أن يدخروا ما يكفي أبناءهم .

مارتن : إنني أظن أن ما سيكون لدى المجتمع من مال وفير سيجعل الجمهور يضطلع بجزء كبير من الواجب الذي يضطلع به الآباء الآن نحو أبنائهم . ولكنني مع ذلك لا أعارض في وجود قدر من الميراث الفردي ، إذا ظل هذا القدر يسيراً ، ولم يُكسب أبناء الأغنياء ميزات تفرق بينهم وبين غيرهم ، وإلا انهيار مبدأ مساواة الفرص من أساسه .

استيورت : وماذا يكون أثر هذا النظام في الإنصاف الذي قلت إنه سيقترن بالحرية ؟ ذلك أني أفهم من قولك أن هؤلاء الناس الذين سيتولون الأعمال لحسابهم الخاص قد يجمعون ثروات طائلة .

مارتن : قد يكون ذلك في وسعهم ولكن الذي يحصلون عليه سيكون كله في حقيقة الأمر ثمرة مواهبهم غير العادية ؛ وقد سلمت لك بأن المواهب غير العادية يجب أن تنال قسطها من الجزاء في نظام يقوم على أساس العرض والطلب . ولكنهم لن يحصلوا على ريع كما يحصلون الآن (إلا ريع المواهب) ولا على فائدة لرؤوس الأموال ولن يسمح لهم بالوصايا . ومبلغ ما يهديني إليه عقلي أن نتائج هذا النظام من ناحية الإنصاف ستكون قريبة جداً من النتائج التي تحصل عليها الدولة الجماعية . ذلك بأنه إذا بدأ الناس كلهم وهم متساوون حتماً في الفرص التعليمية والمالية ، بحيث يستطيعون أن يختاروا عملهم اختياراً حقيقياً ، وبحيث لا يبقى بينهم من أسباب التفوق والنقص إلا ما كان قائماً

(هـ) الصناعة غير المقيدة على المقدرة الطبيعية ، فإن ما يوجد بينهم من المميزات وعدم المساواة لن يكون مماثلاً لما يوجد منه بينهم الآن ؛ ولذلك سوف يتغير مظهر المجتمع بأكماله ، وسوف يكون أول ما يحدث من التغيير ألا تبقى الطبقات كما كانت جامدة ثابتة . والحق أنه لن يبقى في المجتمع طبقات قط ، بل كل ما يبقى أعمال متنوعة ؛ وستتجه الأجور في كل الأعمال إلى المساواة ، لأن العمال سيتسربون دائماً إلى الأعمال العظيمة النفع ، ويتعدون عما كان منها قليل النفع ، وهو المبدأ الذي يفترض الاقتصاديون أنه أساس المجتمع الحاضر ، والذي يعرفونهم أنفسهم أنه أقرب إلى الأمانى الطيبة منه إلى الحقائق الواقعية . وإذا كان صحيحاً أن الكفايات الممتازة جد نادرة ، فإن الأعمال التي تتطلب هذه الكفايات تبقى مرتفعة الأجر ؛ ولكن النتيجة العامة ستكون ارتفاع أجور ذلك النوع من الأعمال القليلة الأجور في الوقت الحاضر ، وخفض ما هو مرتفع الأجر منها . وسيؤدي تعادل مستوى الحياة إلى تماثل في الأخلاق ، فيستطيع كل إنسان أياً كان عمله أن يصحب كل إنسان آخر لقربه منه وميله إليه أو لغير ذلك من الأسباب ، فيعود العامل في أحواض السفن من عمله ويرتدى ثيابه الأنيقة ويجلس إلى مائدة الطعام ليحدث زوجة المالى عن أحدث مسرحية أوقصة ؛ ويذهب الأستاذ العالم لزيارة النجار في « بيته » . وسيكون المجتمع أكثر مساواة وإخاء من مجتمعنا الحاضر ، وإن يكن أكثر منه حركة وجداً ، وسيكون أقرب إلى ديمقراطيته منه إلى مجتمع هذه الأيام ، وسيكون الفارق الهام الوحيد بين مجتمعك ومجتمعي أن مستوى الأجور والأثمان سيحدده في أحد المجتمعين تذبذب السوق ، وتحدده في الآخر السلطات العامة .

استيورت : وتلك ميزة كبرى يمتاز بها ما تفضلت بتسميته مجتمعي .

مارتن : لست أجادل في ذلك ، فأنا من أشد الناس كرهاً للسلطات ، ولو (هـ) الصناعة غير المفيدة استطعت لتخلصت منها بقضها وقضيضها .

استيورت : إني أفهم من هذا إذن أنك بعد أن قلبت الأمر على جميع وجوهه تتخلى عن ديمقراطيةك الجماعية ، وتستبدل بها ذلك النوع الآخر من المجتمع أيا كان الاسم الذي تسميه به ؟

مارتن : فلنسمه إذا شئت ديمقراطية فردية ، تمييزاً له عن الديمقراطية الجماعية ، وإن كنت أرى أن الاسمين كليهما لا ينطبقان على الحقيقة كل الانطباق ، ولكن ذلك لا يهمنا كثيراً . وأما سؤالك أي المجتمعين أفضل فإني أقول لك بأن مجتمعك يمتاز بأن فيه أكبر قسط من الحركة الذاتية التلقائية ، ولكن بقي علينا أن نعرف هل فيه ما يقابل هذا من الأضرار ؟

استيورت : أضرار من أي نوع ؟

مارتن : إني ليخيل إليّ ، وأقول ليخيل إليّ ، لأن ما سأقوله لم يرق بعد § ٦ روح المجتمعات إلى مرتبة اليقين ، أننا إذا بدأنا الآن نبحث فيما أسميه نقلاً عن التي نكلمنا عليها Montesquieu^(١) « روح المجتمعات » التي سبق الكلام عليها ، فقد يؤدي هذا البحث إلى أن المجتمع الذي أدعو إليه يمتاز من هذه الناحية عن مجتمعك أنت .

استيورت : لم يتضح لي بعد ما أرمي إليه ، فأرجو أن توضح عما تريد ، فقد بدأت أشعر بشيء من الاهتمام الأبوى بهذا المجتمع الذي فرضت على

(١) مونتسكيو ١٦٨٩ - ١٧٥٥ كاتب فرنسي شهير كتب في السياسة والقانون ، وكان لكتابات القانونيّة أثر كبير في فرنسا وفي العالم أجمع ، وقد تأثر بأرائه أعظم رجال الثورة الفرنسيّة ومفكرها ، وهو صاحب نظرية فصل السلطات المعروفة التي يخطئ الناس كثيراً في فهمها .

§ ٦ روح الجماعات
التي نكلمنا عليها

أن أتبعناه ، وأخذت نفسى تتوق إلى الدفاع عن هذا الوعيد الدعى .
مارتن : إن الذى أقصده بروح المجتمع هو ذلك القدر من حالته المعنوية
التي يتصل اتصالاً مباشراً بنظامه بحيث يستتبع كل منهما وجود الآخر .
استيورت : لا شك فى أن هذا الروح صعب الاستخلاص والتحديد .
مارتن : هو صعب جداً ، ولكن علينا مع ذلك أن نحاول استخلاصه
وتحديدده ، وذلك لأنه زهرة المجتمع التي تتكون فيها نظمه ، والتي يحكم على
هذه النظم بمقتضاها . ومن أجل هذا سيكون هذا الروح آخر ما ذكره
من صفات الجماعات التي أتكلم عليها ، وأنلخص فيه كل ما ذكرته من قبل .
استيورت : قل إذن .

(١) روح المجتمع
الحاضر

مارتن : سنبدأ كعادتنا بمجتمعنا الحاضر ، وإن كان هذا المجتمع أصعب
المجتمعات وصفاً وتحديدًا .
استيورت : لأى سبب ؟

مارتن : لأنه لا يقوم على مبدأ ما ، بل على انتقاء مبدأ ؛ وبعد أن سلطنا
بما سلطنا به لا أراى على الأقل قادراً على أن أقول فيه أكثر من أن جميع
خصائصه نتيجة لازمة لما فيه من ظلم أساسى .
استيورت : وكيف ذلك ؟

مارتن : إنه كما رأينا دولة الطبقات ، أى أن كل إنسان فيه يولد فى أحوال
مفيدة له أو ضارة به من غير ما سبب مطلقاً ، ولهذا فإن أهم ما يعمل له
الشخص أن « يرتفع » كما يقولون ، أو أن يمنع نفسه من السقوط . وهذا
يصدق على أفراد كل طبقة ، كما يصدق على الطبقات نفسها فى علاقتها
بعضها ببعض ؛ ومن ثم كان التنافس أوضح صفات المجتمع ، والتنافس
والأنانية صنوان . ولما كان الظلم الأساسى فى المجتمع هو ظلم الملكية كان

التنافس فيه من أجل المال ؛ ولهذا كان الجشع هو المحرك له والباعث عليه ؛ (١) روح المجتمع الحاضر
وَيُقَوِّى هذا الجشع إلى حد لا يكاد الإنسان يُصَدِّقُه أن السكثرة الغالبة من
الناس تعيش على حافة هوة المجاعة ، أن القلة مهما بلغ غناها لا ترى قط أن
لديها ما يكفي لإنقاذها من خطر السقوط في هذه الهوة نفسها . وإذن يصح
أن نقول من بادى الأمر إن الأناية والجشع أهم العنصرين اللذين يتألف
منهما روح المجتمع الحاضر . لسكن نظام الطبقات لا ينطوى على العدا
خسب ، بل ينطوى أيضاً على الخضوع ، أو إن شئت فقل على عدم الخضوع ؛
ذلك أن معظم الناس يستخدمون غيرهم من الناس ، ولما كانت هذه العلاقة
لا تقوم على أساس الإنصاف ، أو على استعداد طبيعى فى كلتا الطائفتين ،
بل تقوم على أساس نشأ من المصادفة المحضة وهو المولد ، فإن العلاقة بين السيد
والمسود علاقة النزاع الدائم سافراً كان هذا النزاع أو مقنعاً ؛ فترى السيطرة
فى ناحية ، والتمرد عليها فى ناحية أخرى . وقد بلغ من حدة هذا النزاع أن
الحزب السياسى الوحيد الذى تميل إليه كتلة الشعب ، والذى يفصح عن رأيها
فى حالتها الراهنة ، قد أطلق على هذه الحالة من أحوال المجتمع اسم « حرب
الطبقات » . وبفضل هذه النظم يعيش السكثرون من الناس كما قلنا من قبل
من ريع أراضيهم ومن أرباح أسهمهم دون أن يعملوا عملاً ما ؛ وينشأ من
ذلك على غير علم منا حالة خلقية شاذة ساسمها على سبيل التلطف فى التسمية
باسم عدم الشعور بالتبعة . ومن أجل هذا أصبح الحصول على المال فى رأينا
نوعاً من الحقوق المقدسة ، أما طريقة الحصول عليه فهى من الأمور التى
لا يعنى بها أحد . وتؤثر هذه العقلية نفسها فى أولئك الذين يديرون الأعمال
التجارية والصناعية ، فهم يرون أن واجبهم يقتصر على تحصيل الأرباح
للمساهمين مهما كلفهم ذلك التحصيل ، وبذلك تتأرجح التبعة الأدبية بين

(١) روح المجتمع
الحاضر

مديرى الأعمال وبين المساهمين ، يلقى كل فريق على الآخر . ونتيجة ذلك أنك ترى هذا المنظر الغريب الشاذ ، منظر الآباء المثقفين والعوانس الباربات بالإنسانية ، والزعماء الاشتراكيين ، وأساتذة الفلسفة الأخلاقية ، وقد أخذ كل منهم يطالب بأرباح أسهمه ، وهم لذلك يعملون جميعاً على اعتصار دم الحياة من النساء المدمات فى أكوأهن ، ويسرقون وينهبون ويعذبون ويستعبدون ، ويبيدون سكان المستعمرات الضعفاء عن آخرهم ، ويقتربون فى غضب وحدة فى المجالس النيابية والدوائر الانتخابية ، مطالبين بدوام هذه المظالم ، بحجة أنهم يدافعون عن حق الملكية . وهم محقون فى التذرع بهذه الحجة لأن الملكية فى مجتمعنا الحاضر هى الاستغلال ، الاستغلال الذى يوجه ميولنا الأخلاقية كلها هذا التوجيه الخاطى ، ويؤدى إلى الأنانية والجشع وعدم الشعور بالتبعية ، (وهى صفة جديرة باسم أشنع من هذا) . وماذا أستطيع أن أضيف إلى هذا كله ؟ إني أضيف إلى هذه الصفات « العزلة » ؛ ذلك أن نظام الطبقات الذى يقوم عليه مجتمعنا يكاد يقطع الصلة بيننا قطعاً ؛ فنظم التربية المختلفة ، وأساليب الحياة المختلفة ، وما ينشأ عنها من اختلاف فى العادات والميول والآداب والعرف ، تفرق بيننا وتقسمننا شيعاً ، وتقيم بيننا حواجز يحاول المحبون للإنسانية عبثاً أن يتخطوها . يرى الواحد منا غيره وكأنه أجنبى غريب عنه ، فتقافة الفنان والأستاذ ، وحكمة العامل اليدوى الصماء ، كلتاها لا تستفيد من لقاح الأخرى ؛ ولهذا ترى الحياة الذهنية والعاطفية والروحية لكل طبقة من الطبقات قد أفقرتها عزلتها عن الطبقات الأخرى ؛ ونحن ندب فى سبيل الحياة ديبس الحشرات ، يأسين يكاد يقضى علينا الجوع ، مشوهين مجدوعين تتوارى من الخجل ، وننظر فى لهف وحسرة من خلال الجدران الزجاجية التى أقامتها نظمنا ، متطلعين إلى

تلك الزمالة التي تسرع بنا نحو هدفنا الأكبر، وهو تراثنا الإنساني، وتوصلنا (١) روح المجتمع الحاضر إليه . إن الأنانية والشره والفرار من التبعة والعزلة . . . هل أوصل الحديث ؟ إن القصة طويلة ومحزنة .

استيورت : إن في وسعك أن تخفف من حزنها وكآبتها بما تصف من موضوعات ذات بهجة . تسكلم على التعاون وتبادل المساعدة بين الناس ، وتسكلم على التعاطف والتصدق ، وعلى روح الجماعة وعلى الحب الشخصي .
مارتن : يسرنى أن أتسكلم على هذه الأشياء كلها في موضعها ، ولكن ليس هذا هو الموضع المناسب لها ، فليست هي أثراً من آثار نظمنا ، بل هي نورة الطبيعة البشرية على هذه النظم ؛ وليست هي عناصر مكونة لروح المجتمع السكائن بل مبادئ من روح المجتمع الذي سيكون .

استيورت : إن أقل ما يجب عليك أن تعترف به أن بعض الصفات الطيبة تنبعث من نظمنا الحاضرة ، كالنشاط والابتداع والاعتماد على النفس والادخار وجميع الصفات التي يمتدحها الاقتصاديون .

مارتن : لن أجادل في هذا لأنني لا أريد أن أرسم صورتى قائمة أكثر مما يجب ، فلنتركها إذن كما هي الآن بما فيها من ضوء وظلال ، ونسكت في بها خالية من التفاصيل ، ثم ننتقل بعدئذ إلى المجتمعات الخيالية التي نوازنها . ولنبدأ أولاً بأبرستقراطية هرنجتين إذا جاز لنا أن نوقفه من أحلامه لنسأله عنها ، لأنني أظن أن قد مضى زمن طويل على الوقت الذي كان فيه حديثنا بلذله ويعنيه .

هرنجتين : إنك تظلمني بهذا القول ، فقد كنت أصغى إلى حديثكما بانتباه شديد ، وأنا مستعد للجواب ، وأستعين على الدفاع عن روح مجتمعي بأجل الأسماء وأعظمها شأنًا ، وهو اسم أفلاطون نفسه . ولو أنني كنت فنانًا مثله

(٢) روح المجتمع
الأرسطراطي

لرسمت لمجتمعي صورة تضارع في الجمال صورته ؛ أما وأنى لست فنانا فياني أرجو منك أن تستحضر في خيالك صورة مجتمعه وتعدّها صورة مجتمعي نفسه ، وذلك لأنّ أرسطراطيّتي لا تدعى أكثر من أنها صورة منقولة عن أرسطراطيته ، وإذا كنت قد غيرت شيئاً في الأصل فإنّ التغيير لم يمس الروح في شيء .

مارتن : وإذن فمجتمعك يقوم كما يقوم مجتمعه على مبدأ تسميه أنت كما يسميه هو « العدالة » ؛ وأظن أنّ في وسعنا أن نسمي روح ذلك المجتمع « النظام » أو التناسق ، واللفظ الثاني هو الذي يفضل هو أن يطلقه عليه . وكل طبقة في هذا المجتمع تضرب على نغمتها هي لحناً لا تخطئ فيه قط ، ولا تستطيع أن تضرب لحناً غيره ، ولا ترغب في غيره ، ويحدد لها علو النغمة أو انخفاضها حكامها المشرفون عليها . ألا ما أعجب هذه الأداة وما أخلقها أن يستمع إليها ويستمتع بها أرباب السماء ! لكنني لا أسلم بأنّ التناسق صفة خاصة بمجتمعك ، لا يصح أن يدعيها غيره من المجتمعات ، بل إني أدعيها لمجتمعي أنا أيضاً . على أنّ ثمة شيئاً غير هذا لا أجده في مجتمعي بل هو خاص بمجتمعك .

هرنجين : وما هو ؟

مارتن : هو القانون والطاعة . فكل شيء في مجتمعك تنظمه الطبقة الحاكمة ، والمفروض أنّ الحاكمين يأمرّون بما يتفق كل الاتفاق مع المصلحة العامة ، وأنّ كل جزء من أجزاء المجتمع يطيع أوامرهم كلها ويفعل من فوره ما يؤمر به ؛ وليس ثمة استبداد ولا عصيان ، بل كلّ يؤدى عمله وهو راض عنه ، مغتبط بأدائه ، معترف بأنّه لائق به ، في ظل إدارة يقر الكلّ بأنها إدارة حكيمة صالحة .

(٣) روح الديمقراطية
الجماعية

هرنجتن : نعم .

مارتن : ولما كانت هذه العقلية هي الأخرى تنتج حتما من أنظمتك ، وكانت هذه الأنظمة نفسها مما يعين هذه العقلية ويقويها ، فإن من حقنا أن نَعُدّها روح مجتمعتك ، أما روح مجتمعي فلا تماثل قط هذه الروح .

هرنجتن : وكيف تصفها ؟

مارتن : لولا وجود استيورت لسميتها روح الحرية .

استيورت : يا عجبا !

مارتن : هكذا أسميها على الأقل إذا وازنتها بروح مجتمع هرنجتين . ذلك أن من واجب المواطنين في مجتمعي أن يطيعوا كما هو واجبهم في مجتمعتك الذي أراه في هذه النقطة من نوع مجتمعي ؛ وكل الفرق بين الطاعتين أنهم في مجتمعي أنا لا يطيعون إلا قوانينهم التي يسنونها بأنفسهم ، ويبدلونهم متى شاءوا ؛ وهي قوانين واحدة توضع للناس كلهم ، وأقصد بذلك أنهم كلهم يستفيدون منها ، وأنها لا توضع لفائدة بعضهم دون البعض الآخر ؛ وكلهم يشتركون في وضعها ، وأقصد بهذا أن طبقة بعينها لا تسيطر بها على سائر المجتمع . وأنا أسمى مثل هذا المجتمع مجتمعا حرا إذا قيس إلى مجتمع هرنجتين ؛ وإن مجتمعه ليبدو في هذا القياس وكأنه تمثال جميل يحركه الفنان الماهر الذي صورّه ، في حين أن مجتمعي يظهر بمظهر كائن عضوي كل أجزائه حيّة . وتتكون منها حياة الكائن كلّ .

هرنجتن : إنني أعترض على هذا ، وأقول رداً عليه إن مجتمعي مخلوق بشري يسيطر عليه رأسه ، أخلق الأعضاء بالسيطرة عليه ، أما مجتمعتك فهو كتلة حيوانية بدائية لم تتميز فيها أعضاؤها بعد .

مارتن : أو قد يكون مجتمعي إنساناً كاملاً ، كل جزء من أجزائه إنسان

(٣) روح الديمقراطية الجماعية
تام النمو ؛ لكننى لا أحب أن أبادل معك التشبيهات والاستعارات ،
وأقل ما يمكن أن أقوله إن الفرق بين المجتمعين بسيط واضح لنا ، فكل

مواطن فى مجتمعى حاكم ومحكوم معاً ، وهو بهذا المعنى حر ، أما مجتمعتك
فلاطبقة الحاكمة فيه أن تأمر ، وعلى سائر المجتمع أن يطيع ؛ فإذا كنا قد
فهمنا مصطلحاتنا حق الفهم حق لنا أن نقول إن روح مجتمعتك هو السيطرة
وروح مجتمعى هو الحرية .

هرنجتن : حسن جداً .

(٤) روح الديمقراطية الفردية
مارتن : وهنا يكون الفرق بين مجتمع استيورت ومجتمعى ، وهو فرق
ثانوى فيما أظن .

استيورت : أعتقد أن مجتمعى أكثر حرية من مجتمعتك .

مارتن : أنا أفضل اللفظ الذى استعملناه من قبل وهو أن مجتمعتك أكثر
تلقائية ، وفى مجتمعى يكون كل فرد فى خدمة الجماعة ، أى أن الفرد فيه
للشكل ؛ وأظن أن هذه ميزته الجوهرية . وإذا ما وصل هذا المجتمع إلى
الغرض الذى يرمى إليه كانت روح مواطنيه روح خير الموظفين للمدنيين
الذين يتقاضون مرتبات ، ولكنهم لا يعملون من أجلها بل يعملون حباً فى
العمل ورغبة فى الصالح العام .

استيورت : نعم وسيعملون كما أعتقد بكل ما هو معروف عن الموظفين
المدنيين من قصور ذاتى وتراخ وغباوة . أما مواطنى — إذا جاز لى أن
أدعيهم لنفسى مؤقتاً — فسيحتفظون فى هذا المجتمع إذا وجد بكل ما يمتاز
به مجتمعتنا الحاضر من جد وقوة ابتكار .

مارتن : وسيحتفظون أيضاً بما فيه من روح المنافسة ، وبشئ على الأقل
من أنانيته وجشعه ، وربما احتفظوا كذلك بقسط من روح استبداده

وتمرده لأن معظم من فيه سيستخدمون غيرهم من الناس ؛ وبشيء من (٤) روح الديمقراطية الفردية عزلته أيضاً .

استيورت : إنهم إذا احتفظوا بشيء من هذا فلن يحتفظوا منه إلا بالقليل ، لأنه سيكون كما وصفته أنت مجتمعاً قائماً على أساس الإنصاف ، ليس فيه طبقات وراثية .

مارتن : هذا حق ، وسيكون ما يبقى فيه من هذه الثروة وأمثالها ضئيلاً لا يُعتدّ به إذا قيس إلى ما في مجتمعنا الحاضر . ولكن ما دامت المنافسة باقية فيه ، ومادام فيه مستخدم ومستخدم ، فسيظل من هذه الناحية شيئاً بمجتمعنا الحاضر بما فيه من خير وشر . فهل تقول بعد هذا الإيضاح إن روح مجتمعك الديمقراطي ستكون هي أن يعين المرء نفسه ، وإن روح مجتمعي ستكون الخدمة العامة ؟

استيورت : أنا قانع بهذا .

مارتن : والآن وقد فرغنا من وصف مجتمعاتنا ، بقي علينا أن نوازن بينها ، وخلق بي أن أسأل بادي ذي بدء هل يفضل أحد منا حتى استيورت نفسه مجتمعنا الحاضر على أى نوع من المجتمعات التي وصفناها ؟

٧ § موازنة بين
المجتمعات التي شكلناها
عليها

استيورت : إنني أفضله على أرسقراطية هرنجتين ، وأنا في ذلك مرتاح الضمير ؛ وإنني لشديد الرغبة كذلك في ديمقراطيتك . على أنني أعتز أنه إذا تبين أن وجود المجتمع الذي ادعيت أنني صاحبه يمكن تحقيقه من الناحية العملية فإني أفضله على مجتمعنا الحاضر .

مارتن : حسبي هذا ، وعلى أساس هذا الاعتراف سأفترض أن مجتمعنا الحاضر قد خرج من دائرة البحث ، ومن ثم سأنتقل إلى بيان الفرق بيني وبين هرنجتين ، لأنني أظن أنه لا يزال يفضل مجتمعه على مجتمعي .

§ ٧ موازنة بين هرنجتن : أعترف بأنني قد بدأت تساورني شكوك قوية في مجتمعي ، ولكنني لن أسلم لك من غير كفاح .
الجماعات التي نكلمنا عليها

مارتن : فلنوازن إذن بين هذين المجتمعين من حيث المبدأ الذي يقومان عليه . لقد رأينا من قبل أن أرسطراطية هرنجتن مجتمع القوة والسلطان ، وأن ديمقراطيته مجتمع الحرية بمعنى من المعاني ؛ ولكن هذا لم يقنعه بتفوق هذا المجتمع الثاني . والحقيقة أن منشأ هذا الفارق نفسه فارق آخر أبعد منه مدى وأشد عمقا ، ويجب علينا الآن أن نظهره ونبين شأنه ، فما هو المبدأ الأساسي الذي ترى يا هرنجتن أن مجتمعك يقوم عليه ؟

هرنجتن : هو المبدأ الذي استمسكت به على الدوام ، والذي وافقت أنت عليه ، هو العدالة بمعناها الأفلاطوني ، أي أن يخص كل عضو في مجتمعي بالعمل الذي يتفق كل الاتفاق مع كفايته ، وأن تُنمَّى هذه الكفاية بالتعليم الصالح ، وأن تزود بالوسائل الصالحة .

مارتن : أذكر أنك أطلقت على هذا المذهب اسم العدالة ، ولم أعارضك في هذه التسمية حتى الآن ، ولم أكن لأعارضك الآن فيها لو أن المسألة كانت مسألة أسماء فحسب ، ولكنني أعتقد في حقيقة الأمر أن الاستعمال المألوف للفظ العدالة يتضمن معنى يتعارض مع الأنظمة القائمة في مجتمعك ، وبهمننا أن نكشف عن هذا المعنى ونوضحه .

هرنجتن : ماذا تعني بهذا ؟ وهل يوجد ما يتنافى مع العدالة إذا خص كل إنسان بالعمل الذي يليق له ، وهيئت له كل الوسائل التي تمكنه من أدائه ؟ إنني أقر بأن ذلك يتنافى مع مبدأ المساواة ، ولكن المساواة مسألة أخرى تختلف عن العدالة أشد الاختلاف . ويخيل إلي أن الناس في هذه الأيام يظنون أن من الواجب أن تفتح أبواب كل عمل من الأعمال لكل شخص أيًّا

كانت كفايته ، فيستطيع كل إنسان أن يعلم ، وكل إنسان أن يتجر ؛ وكل إنسان أن يحكم ، وليس هذا هو العدل بل هو الظلم بعينه .

§ ٧ موارثية بين
الجماعات التي ننظمها
عليها

مارتن : إنني أعترف بهذا صراحة إذا كان الناس قد ولدوا بطبيعتهم متخصصين هذا التخصص الضيق المشثوم الذي تفترض أن مواطنيك يتصفون به . ولو أنك بعد هذا نظامهم ذلك التنظيم الذي تقترحه لاقتربت من العدالة إلى أقصى درجة مستطاعة من الوجهة العملية . لكن الذي أعلنه مخالفاً به قولك هذا ، هو أن الطبيعة لم تخصصهم ذلك التخصص الذي تدعيه ، بل إن نظامك أنت هي التي تجعلهم كذلك . لقد كان هذا كل الغرض الذي تبتغيه من نظام التنشئة الذي تقترحه ، أليس كذلك ؟

هرنجين : بلى ، لقد كان هو الغرض من نظامي ، وماذا تريد أن تقول بعد ؟
مارتن : أريد أن أقول إنك وقد أوتيت القدرة على جعل الناس متساوين في الكفايات — ولنفرض هذا الآن — ، تعمل عن قصد لتجعلهم غير متساوين ، شأنك في ذلك شأن أفلاطون نفسه ؛ وأظن أن معظم الناس لا يترددون في الجهر بأن هذا ظلم .

هرنجين : إنك لا تستطيع بالطبع أن تظلم الناس قبل أن يولدوا . إن الظلم أمر نسبي يقع على عاتق الأحياء من الناس ، وكل الذي يعني أن أعامل مواطني بالعدل بعد أن أحصل عليهم .

مارتن : ولكنك بخططك هذه لا تحصل عليهم بل تخلفهم خلقاً . وأرجو أن تسمح لي بأن أعبر عن هذا المعنى بطريقة أخرى . إننا إذا نظرنا نظرة صادقة إلى المبدأ الأول من مبادئ النظام الذي تضعه لتنشئة الناس ، لم نجد تكييف الوظيفة حسب الكفاية كما قلت ، بل نجد عكس هذا تماماً ، أي تكييف الكفاية حتى تلائم الوظيفة ؛ ذلك بأنك تسلم بأن الكفايات ستنشأ إنشاء اصطناعياً غير متساوية ، ثم لا تكفي بهذا ، بل إنك ستعمل عن

§ ٧ موارنة بين قصد لأن تجعل عدم المساواة منطبقاً على مقياس دقيق ضيق شديد التخصص ،
الجماعات التي نكلمنا فيها هو المبدأ الذي يحدد هذا المقياس إذن؟
عليها

هرنجتن : أظن أن الذي كان في نفسى عندما قلت هذا ، وإن لم أكن
سألت نفسى هذا السؤال من قبل ، هو أنه لا بد أن يوجد في كل مجتمع ،
وبخاصة في كل مجتمع مركب معقد ، عدد من الوظائف المختلفة ، وأن حسن
سير الأعمال يتطلب أن نُعدّ لكل وظيفة ما تحتاجه من كفاية .
مارتن : إذن يكون مبدؤك الأول التخصص لا العدالة . وهذا هو مبدأ
أفلاطون الذى تهتدى أنت بهديه .
هرنجتن : قد يكون ذلك .

استيورت : فلنبحث إذن مبدأ التخصص هذا لنرى رأينا فيه . هل
تعتقد حقاً أن من الخير للناس أن يكونوا مجرد آلات ، يشد أحدهم رافعة ،
ويحرك الآخر النار ، ويجمع ثالثهم صفوفاً من الأعداد ، وينظف رابعهم
ملتقى الطرق ، وما إلى هذه من الأعمال التى توجد في المجتمع المعقد ، وهى
أعمال أكثر وأدق مما يتسع وقتنا لإحصائها ، وأن يكون كل عامل صالحاً
قدر الاستطاعة لأداء عمله وحده دون غيره من الأعمال ، بل يبلغ من أمره
أن يكون كما تدعى أنت غير شاعر بأية رغبة في أن يعمل غير عمله ، ويجد
أنه قد نال كل غرضه من الحياة لأنه أتتحت له الفرصة لأداء عمله ، وهيئت له
وسائل أدائه ؟ وهل هذه صورة للخلق تحب أن يكونوا عليها ، فيكونون كما
يقول إمرسن Emerson^(١) : « هنا عين وهنا ساق وهنا معدة ، ولكن
لا رجل مطلقاً » .

(١) Ralph Waldo Emerson (١٨٠٣ — ١٨٨٢) الشاعر والنثر والخطيب
الأمريكى الشهير . ولد في مدينة بستن بالولايات المتحدة في ١٥ مايو من عام ١٨٠٣ .

هرنجين : إن في هذا بطبيعة الحال شيئاً من المبالغة ، أخطأت أنا نفسي § ٧ موازنين فاندفعت إليه حين نظرت إلى الإنسان كأنه مجرد وسيلة من وسائل الإنتاج . الجماعات التي تسلطنا فهو فضلا عن هذا بالضرورة ابن وزوج وأب وصديق ، ولا بد أن يكون كذلك في كل مجتمع أيا كان نوعه ؛ إن له حياة خارج دائرة عمله .

مارتن : نعم ، ولكنها حياة لا يوليها مبدأ التخصص أية رعاية ، وكأنما هو يود أن يقضى عليها لو استطاع إلى ذلك سبيلا . ولعلك تذكر أن أولاطون نفسه قد حاول هذا حين جره منطقته إلى أن يحرم على أوصيائه أن يكونوا أبناء أو أزواجاً أو آباء ، إلا أن تكون هذه مجرد أسماء يتسمون بها لا حقائق واقعية . والحقيقة التي لا جدال فيها أن التخصص ليس مبدأ من المبادئ إذا فهمنا من المبدأ أنه غاية يسعى إليها ، بل هو على أكثر تقدير صورة مشثومة تحتمها إلى حد ما بعض ظروف الإنتاج ، وهو ضرورة نحب كلنا أن نحصرها في أضيق الحدود إذا استطعنا إلى ذلك سبيلا .

== وكان سبعة من آباءه قساً في كنيسة ولاية إنجلترا الجديدة ، منهم جوزف إمرسن الذي كان يدعو الله في كل ليلة ألا يكون أحد من نسله غنياً . وقد ورت رالف ولدو عن آباءه خلال الاعتماد على النفس ، وحب الحرية والفضيلة ، والإخلاص والاستقامة ، والاستمسك بالمبدأ والمثل الأعلى والتضحية في سبيلهما .

تخرج في كلية هارفرد Harvard بأمریکا في عام ١٨٣٢ وسافر إلى أوري في السنة نفسها ، وزار إيطاليا وفرنسا واسكتلندا وإنجلترا وتعرف بالشعراء والكتاب الإنجليز المعاصرين له ومنهم كلوردج Coleridge ، ووردس ورث Wordsworth وكارليل . وفي عام ١٨٣٣ بدأ في إلقاء محاضراته العامة في « الثقافة البشرية » و « الحياة البشرية » ، « فلسفة التاريخ » و « العصر الحاضر » . وعاد مرة ثانية إلى بريطانيا في عام ١٨٤٧ ، وألقى فيها عدة محاضرات قيمة في منشستر ، ولقربول ، وإدنبره ، ولندن ، وقام برحلة ثالثة في عام ١٨٧٢ زار فيها مصر . ولما حرق بيت إمرسن في تلك السنة بناء له الأمر بكيون من اكتاب عام افتتحيح لهذا الغرض .

وأشهر ما يعرف به إمرسن مقالاته الشهيرة وخطبه . وأما شعره فأقل جودة من نثره .

§ ٧ موازنة بين
الجماعات التي نكلمها
عليها

هرنجتن : لست أظن طبعاً أن التخصص يبدو عملاً صالحاً أو جميلاً إذا نظر الإنسان إلى الناس فرداً فرداً أو طبقة طبقة ، ووازن بينهم وبين إنسانية مثالية ؛ ولكنني أظن أنك إذا نظرت إلى المجتمع في مجموعه كما نظر إليه أفلاطون ، وكما كنت أحاول أن أنظر إليه ، وجدت فيه نظاماً جميلاً كل الجمال جيداً بأن يكون غاية في ذاته .

مارتن : هذا إذا كان المجتمع قد وجد ، ليتأمله من خارجه رب من أرباب الجمال الفنى ، وإن كنت أظن مع ذلك أن الذى يرى فيه هذا الجمال لم ينظر إليه إلا نظرة سطحية لم تنفذ إلى صميمه . إن المجتمع لم يوجد إلا لأعضائه ، وسموه لا يكون إلا بسموهم ، لا بسمو علاقة موهومة بينهم تترك كل واحد منهم مشوهاً أعرج أعشى . إن الشيء الصالح حقاً أن يكون الخلق أناساً كاملين إلى أقصى حدود الكمال المستطاع ، وليس التخصص مثلاً أعلى بل عكس المثل الأعلى تماماً .

هرنجتن : لو أنه كان فى وسعنا أن نعمل ما نريد لوافقتك على هذا رأى ، ولكن يبدو أن ظروف الحياة تفرض علينا التخصص فرضاً .
مارتن : هذا إذا صح لا يبرر المبالغة فيه إلى الحد الذى أوصلته إليه أنت .

هرنجتن : إن ما كنت أشعر به هو أنه ما دام التخصص أمراً لا مفر منه ، فإن الوسيلة الوحيدة لمعالجته علاجاً يضمن وجود نظام حسن هو أن نعترف به كاملاً ، اعترافاً صريحاً ، ثم نوفق بعد ذلك بينه وبين العدالة .

مارتن : وإذا طلب إليك أن تفعل هذا ألا توافقتى على أن النتيجة التى تصل إليها هى أنك ستفشى مجتمعاً من أجزاء رجال لا من رجال كاملين ، وأنت تصل إلى ما تسميه العدالة بتشويه الإنسانية ؟ وهل

تظن حقيقة أن في ذلك خيراً ؟ إنك إذا قلت إن فيه خيراً فإن يكون لي § ٧ موازنة بين ما أردت به على هذا القول إلا أن أتركك وشأنك ، وبذلك نكون قد الجماعات التي نكلمنا عليها وصلنا إلى آخر مرحلة من مراحل الخلاف في الرأي .

هرنجتن : في الحق أنى لا أستطيع أن أقول إن في ذلك خيراً ، ولكنى أظن أنه رغم ما فيه من شر عنصر من عناصر تكوين مجتمع ، أقل ما يقال فيه إنه خير من مجتمعنا الحاضر .

مارتن : قد لا أخالفك في هذا ، ولكنى وأنا الأب الشفيق أحرص على أن أدافع عن قضية مجتمعى الذى تبنيته ، وأن أقرر أنه أصح وأجمل من مجتمعك .

هرنجتن : فلننتقل إذن إلى مجتمعك . وأسألك ما هو المبدأ الذى قلت إنه يقوم عليه ؟

مارتن : لن أسميه مبدأ العدالة لأنك قد اتخذت هذه الكلمة لنفسك ، بل سأسميه الإنصاف .

استيورت : وماذا تعنى بالإنصاف ؟

مارتن : أعنى به نوعاً من المساواة بين جميع أفراد المجتمع . لكن على أن أوضح نوع هذا الإنصاف . لست أقصد به أن يكون الناس كلهم سواسية ، فقد يكون بينهم فروق لا حصر لها فى الذوق والمقدرة ، بعضها موهوب ، وبعضها مكتسب ، ولكن الغرض الذى ترمى إليه نظم المجتمع هو أن تمنع هذه الفروق أن ترفع هذا وتضع ذاك . ستكون بين الناس علاقات صداقة معقدة ومتعددة إلى الحد الذى نريد ، ولكنها لن يكون فيها علاقة سيد ومسود ، وحاكم ومحكوم .

هرنجتن : وكيف تستطيع إذن أن تنظم أمر الخضوع الذى يتحتم وجوده

§ ٧ موازنه بين الجماعات التي تكتسبنا
في كل المشروعات الكبيرة ؟ أتريد ألا يكون فيها رؤساء عمال ومديرون ،
وألا يكون فيها إشراف على الإطلاق ؟

مارتن : سيكون فيها إشراف من غير شك ، ولكن لن يكون فيها تفوق ،
فلن يكون الرجل الذي يدير مشروعا من المشروعات الكبرى في نظر
الجمهور أعظم شأنًا بطبيعة عمله من غيره ، وليس من المحتم أن ينال لهذا السبب
مكافأة أكثر مما ينال بعض العمال العاديين ، بل قد يحصل هو على أقل من
هذا البعض ؛ ولن يعدو أن يكون رجلا قد هيأته مواهبه الطبيعية ، أو هيأه
جده وسمرائه المقصود ، لأن يكون صالحا لهذا النوع من العمل . ولربما كان
في الناس رجل غيره مساو له في كفايته أو متفوق عليه ، ولكنه لم يختار
هذا الطريق لإظهار تلك الكفاية ، بل اختار عملا عاديا رتيبًا يكسب منه
عيشه واحتفظ بمواهبه العليا لعمل ابتكاري آخر . ولذلك فإنك ربما وجدت
رجلا قد اختار من الأعمال العامة الواجب عليه أداؤها عملا ينفر منه غيره
من الناس ، مشترطا للقيام به أن يكون له من الفراغ ما يمكنه من قرض
الشعر أو الاشتغال بالأبحاث العلمية مثلا ؛ ذلك رجل لا يحتقر نفسه ولا يحتقره
الناس ، إذا قاس نفسه بمدير العمل الذي يشتغل فيه ؛ وسيكون مستوى
حياة الرجلين متماثلا ، ودخلهما متساويا إلى حد ما ، وسيكون كلاهما رجلا
متعلما مهذبا ، كما أن وجود أحدهما تحت سلطان الآخر في ذلك الجزء من
حياته الذي يعده هو أقل أجزائها شأنًا ، لا يستتبع حتما أن يكون أقل منه
قدراً ، كما لا يكون أحد اللاعبين في كرة القدم أقل شأنًا في نظر المجتمع
من رئيس الفرقة . وسيكون الناس في جميع فروع الصناعة خاضعين بعضهم
لبعض خضوعا متعدد الأشكال ، ولكن هذا الخضوع لا يجعل منهم طبقات
متميزة كما هي حالهم في هذه الأيام ؛ لأنه لن يظهر في صورة طائفة من

عليها

الأوضاع والسلطات مصحوبة بامتيازات معينة يتوارثها الناس جيلا بعد جيل ؛ بل إن الناس سينظرون إلى هذا الخضوع الصناعى على حقيقته ، فلا يرون فيه إلا أنه مجرد وسيلة تسهل لهم سير العمل ؛ أما أقدار الناس فسيحكم عليها بصفاتهم الإنسانية الواسعة المدى ، التى لا تفصح عنها أعمالهم الضرورية فحسب ، بل تفصح عنها أيضاً جميع صلات الحياة ، وبخاصة فى نواحي النشاط الحر الراقى ، وهى النواحي التى نرجو أن يجتذب إليها مجتمعنا المرجو عدداً من الناس أكبر ممن يجتذبهم مجتمعنا الحاضر ، وأن يبذلوا فيها من الجهود أكثر مما يبذل أمثالهم فى هذه الأيام .

هرتجتين : إن هذه النواحي العليا من النشاط هى التى أشك فيها ، وأعتقد أن المساواة التى تنشدها مساواة فى الكدح ؛ ولست أجهل أن هذا الكدح لا يشغل حتماً وقت معظم الناس كله ، ولا يستنفد حتماً جهودهم كلها ، كما يشغل كل وقتهم ويستنفد كل جهودهم فى هذه الأيام . ولكنى أعتقد مع ذلك أنه سيفسد أخلاقهم ، وهذا يعود بى إلى ناحية أخرى من نواحي مجتمعى الأرستقراطى : لقد وثقت أن طبقة فى هذا المجتمع وهى الطبقة الحاكمة ستكون رمزاً لأعظم الصفات التى تنطوى عليها الطبيعة البشرية ، وأساس هذه الصفات كلها فى رأيى صفة الأمر والنهى ، وليس الذى أغنيه بهذه الصفة ما ستحتفظ به فى مجتمعك ، كما قلت من قبل ، وهو السلطة التى تيسر سير العمل والتى يخضع لها أناس يعرفون ويعرف الناس كلهم أنهم أكفاء لمن يخضعون لهم ، بل أعنى بها سمواً حقيقياً تشعر به الطائفتان كلتاهما ، وينطوى على فرق شاسع بينهما لا يمكن تخطيه ، ويبعث فى الحاكم طائفة من الصفات الخلقية تميزه عن المحكوم . وتلك الصفة الأصلية ، صفة الأمر والنهى ، هى جوهر الأرستقراطية وأساسها ؛ ومن

§ ٧ موازنة بين
الجماعات التى نكلمنا
عليها

§ ٧ موارنة بين
الجماعات التي نكطنها
عليها

العظمة الخلقية والكرامة النفسية اللتين تنبعثان من هذه الصفة الأصلية تنشأ كل الخصائص الأخرى التي أفترض وجودها في طبقتي الحاكمة ، وهي نبيل أخلاقها ، وسلامة ذوقها ، وحدة ذكائها ، واستمساكها بكرامتها ، وعزة نفسها . « إن نبيلها يضطرها أن تكون كذلك » ، هذا هو المبدأ السامي الذي أحتفظ به لأرستقراطيي ، وتضحى به أنت من أجل ديمقراطيتك .

مارتن : ذلك دفاع جديد تدافع به عن مجتمعك . لقد قلت أولاً إن أساسه هو العدالة ، قلت إنك تعنى بالعدالة ملائمة الوظيفة للموهبة ، وقد بينت ما أظن أنه مبدؤه الحقيقي وهو إيجاد الموهبة التي تلائم الوظيفة ، وأظهرت أن هذا يتضمن العمل عن قصد لسكب مواهب الناس وكفاياتهم ؛ وأراك الآن تقول إن طبقة واحدة على الأقل وهي طبقة الحكماء ان يحول بينها وبين نمو كفاياتها حائل ، وإنها تتمثل كل الصفات الإنسانية العليا تمثيلاً لا يستطيع بلوغه في ظل النظم الديمقراطية .

هرنجتن : نعم .

مارتن : وفي هذه الحال تكون أول مسألة أثيرها هي : هل الحكم حقيقة أرقى أنواع النشاط الإنساني كما تقول ؟ ولا بد للإجابة عن هذا السؤال أن نسأل سؤالاً آخر ، وهو : ما جوهر الحكم كما تفهمه أنت ؟ وإذا كنت قد فهمت قولك على حقيقته فليس جوهر الحكم مجرد إصدار الأوامر للناس وتوجيههم ، وهو عمل لازم في كل مجتمع على شيء من التعقيد ، ويجب أن تهيأ له الأسباب في ديمقراطيي كما تهيأ له في أرستقراطيي ؛ ليس هذا جوهر الحكم في اعتقادك ، بل جوهره فرض السلطة على قوم يطيعونها لأنهم ملزمون بإطاعتها .

هرنجتن : إنني أفترض أنهم سيطيعون وهم راضون .

مارتن : قد يكون ذلك ، ولكن المفروض أنهم لن يكون لهم في ذلك خيار ، وإن تسكون لهم فيه رغبة ، وليس لهم إلا أن يطيعوا ، وهذا هو الذى يفرق بين التوجيه فى مجتمعى والسلطان فى مجتمعك .
هرنجتن : فليكن هذا .

مارتن : ولست أرى فى هذه السلطة ، أو هذه الأواصر والنواهى ، أو هذا الحكم ، شيئاً عظيماً جليل الشأن ، وإن كنت أرى شيئاً من العظمة فى القدرة على التنظيم وتحمل التبعة ، وهو ما أدعى وجوده أيضاً فى ديمقراطيتى .

هرنجتن : إنى أعتقد أن عادة الأمر والنهى بالمعنى الذى أفهمه من هذه العبارة سستولد فى أصحابها مهابة وقوة فى الأخلاق لا يمكن أن ينشأ بأية وسيلة أخرى .

مارتن : لست أرى كيف تنشأ المهابة وقوة الأخلاق من عادة الأمر والنهى ، إلا إذا كان ثمة مقاومة من جانب المحكومين ، وهو ما تنكره أنت . إن الأرستقراطيات أو الأجركيات التى أظنك تفكر فيها وأنت ترسم صورة مجتمعك كانت أرستقراطيات وأجركيات عسكرية ، تقصف بالفضائل العسكرية ذاتها ، وكان ذلك هو الذى خلع عليها تلك العظمة التى تفترض وجودها فيها ، مقترنة بشيء كثير مما لا أظنك ترغب فيه . ولكنى لا أظنك تفكر فى إنشاء دولة عسكرية ؛ إن حكماكم سيكونون أقرب الناس شها بمديرى الشركات ، وهل تعتقد أن هؤلاء المديرين قوم أوتوا قدراً كبيراً من النبيل ؟

هرنجتن : لن يكونوا كهؤلاء المديرين ، لأن الباعث الذى يدفعهم إلى العمل لن يكون هو السكسب المادى .

§ ٧ موازنة بين
الجماعات التي نطلمنا
عليها

مارتن : ولكنك قلت إنهم سيفلون نصيب الأسد مما يفتحه المجتمع .
هرنجتن : نعم لأنهم سيكونون نماذج الحياة الكاملة ، لا يتمتعون فيها
بالضروريات فحسب ، بل يتمتعون أيضا بكل أسباب العظمة والجمال .
مارتن : وسيعدون من هذه الناحية إذن أنصاراً للفن ، لأنك لم تقل على
ما أظن إنهم سيكونون هم أنفسهم من رجاله .

هرنجتن : لن يكونوا من رجال الفن حتماً ، ولكنهم سيعملون على توجيه
بعض الجهود وبعض المواهب إلى الأشياء النبيلة الجميلة ، التي سيكونون
أمناء عليها لجمهور الشعب ، لا محتكرين لها لمنفعتهم الخاصة . أما مجتمعتك
— مهما بالغت فيه — فسيفقد في اعتقادي هذا الجانب من جوانب الحياة ،
وسيعمل الناس فيه على زيادة وسائل الراحة مضحين في سبيل ذلك
بجمال الفن .

مارتن : لا أقول إن هذا مستحيل ، لأنني لا أدري هل حب الجمال والنبيل
عامل أساسي دائم في طبيعة البشر أو هو أمر عارض سريع الزوال ؟ وإني
لأعترف بأن لديك في مجتمعتك الأرستقراطية طبقة ربما استطاعت أن تحتفظ
بما لا تستطيع أن تحتفظ به النظم الديمقراطية وما يتعرض فيها لخطر الزوال .
أما إذا كان حب الفن غريزة متأصلة في الطبيعة البشرية ، وهو ما أرجو
أن يكون ، فإن هذه الغريزة ستكون أصح نمواً وأنبى قصداً في مجتمعتي
منها في مجتمعتك ، وليس ذلك إلا لأنها ستكون ثمرة قوى الشعب ، تنبع من
تلقاء نفسها بدل أن تكون وليدة المناصرين . واعتقادي أن ديمقراطيي
ستنشئ أمثال الكنائس القوطية ^(١) الكبرى ، أو الأنبياء العظيمة التي

(١) الكنائس القوطية نسبة إلى القوط وهم شعب نيوتوني قديم مقره الأصلي
الشواطئ الجنوبية للبحر البلطي ، ثم هاجر بعد ذلك إلى جنوب أوربة وأغار على بلاد =

كانت زينة المدن الإيطالية في العصور الوسطى ؛ أما أرستقراطيتك فستنشئ
القصور البلادية Palladian^(١) . على أنني لا أريد أن أصدر في هذا كله
أحكاماً قاطعة ، وأسلم لك بما سيكون لطبقتك الحاكمة من فضل على
الفن ورجاله .

هرنجتن : وعليك بعد هذا أن تسلم لي بشيء آخر وهو فضلهم في مناصرة
العلم الخالص والتفكير المجرد .

مارتن : لك هذا أيضاً ، وإن كنت أرجو أن يثمر العلم والتفكير خير
الثمار في كنف ديمقراطي ، وحجتي في ذلك نفس حجتي السابقة . على
أنني أسلم لك بكل ما تريد من هذه الناحية ، وأعترف لك بأن سادتك
الأرستقراطيين سيكونون على خلق عظيم كسبوه من اشتغالهم بالحكم .
أسلم لك بهذا لكي أعود إلى مسألة الإنصاف التي أظنها أعظم من هذا كله
شأناً . ولنفرض أن طبقتك الحاكمة ستكون أرقى مثل للحياة ، ولكني
أظن أن غيرها من الطبقات سيمثل حسب نظامك أحقر مثل لها ، وسيكون
بين هذه وتلك طبقات تزيد انحطاطاً كلما زادت دائرة التخصص ضيقاً ،
وهذا التدرج في الانحطاط يرفع من شأن الصفات الجسمية لا الصفات
العقلية أو الخلقية .

هرنجتن : هذه فكرتي كما كانت أيضاً فكرة أفلاطون .

== الدولة الرومانية ابتداء من القرن الثالث الميلادي . وأنشأ القوط لهم بعد ذلك ممالك في
إيطاليا وجنوب فرنسا وأسبانيا . ومن أهم آثارهم الباقية في أوربة كنائسهم العظيمة ،
وتشتهر بالضخامة ومثانة البناء ، ويمتاز الطراز القوطي بالقباب العالية المحددة والأعمدة
الضخمة الكثيرة .

(١) القصور البلادية Palladian المبنية على الطراز الإسلاوي وهو طراز من البناء
منسوب إلى أندرو بلاديو ١٥١٨ — ١٥٨٠ ، أهم مظاهره كثرة ما فيه من الأعمدة
المتصفة بالجدران والخارجة عنها والنقوش التي لا تتناسب مع البناء .

§ ٧ موازنة بين
الجماعات التي نكلمنا
عليها

§ ٧ موارنة بييه
الجماعات التي تكلمنا
عليها

مارتن : وإذا سألك سائل ديمقراطي بأي حق يُختار بعض الناس من يوم أن يولدوا ، أو قبل أن يولدوا ، لمراتب الرفعة ، ويختار غيرهم لمراتب الضعة ، ولتمثل بعضهم وحدهم أرق صفات الطبيعة البشرية ويمثل غيرهم أحط صفاتها ، فماذا يكون جوابك ؟

هرنجتن : لن أجيب بغير ما أجاب به أفلاطون من قبل ، وهو أن مصالح المجتمع بوجه عام تتطلبه .

مارتن : وإذا أجابك السائل الديمقراطي — وسيجيئك حتماً — بقوله : « إن في وسعي أن أنشئ حسب نظامي أنا مجتمعا ، فيه من التناسق والجمال ما في مجتمعك ، وليس فيه ذلك العيب الذي يشوه مجتمعك وهو عدم الإنصاف ، فماذا يكون ردك عليه ؟ هل تسلم له بأن ذلك التمييز التحكمي بين الطبقات الذي أسميه عدم إنصاف عيب من عيوب مجتمعك ؟

هرنجتن : نعم هو عيب ولكنك عيب لا بد منه .

مارتن : ألن يكون من عيوب مجتمعك أيضا عيب ينشأ عن العيب السابق ، وهو أن العلاقة العاطفية بين طبقاته الجامدة الوراثية المتدرجة لن تكون علاقة صداقة وإن وجد بينها ائتلاف وانسجام ؟ ذلك بأن الصداقة تتطلب المساواة وإن لم تتطلب التوحيد في كل شيء ، أليس كذلك ؟ وهي تقوم على الإعجاب والاحترام المتبادل ، فإذا كان أحد الفريقين يرى الآخر أعظم منه شأنا وأكبر مقاماً من الناحية الاجتماعية ومن سائر النواحي الأخرى ، فإن العلاقة لن تكون كما وصفنا من قبل ، وإن ظلت علاقة طيبة مرضية ، بل تكون في أحسن صورها كعلاقة السيد بخادمه ، أو علاقة المحسوب بصاحب اليد عليه .

هرنجتن : أظن أن هذه العلاقة ستكون كذلك .

مارتن : وهل تظن أولا تظن أن علاقة الصداقة خير العلاقات التي ينبغي
أن نعمل لها مهما كانت العلاقات الأخرى طيبة في ذاتها ؟
هرنجتن : أظن أنها قد تكون خير العلاقات
عليها

مارتن : وإذا حسبت حساب كل ما قلناه من قبل ، ألا يستفاد من قولك
هذا أن المثل الديمقراطي الأعلى خير من مثلك ؟ ذلك بأن في وسعي أن أقول
عنه إن الصفات الإنسانية الراقية تتمثل فيه كما تتمثل في مجتمعتك الأرستقراطية ؛
وحتى إذا لم تتمثل هذه الصفات فيه فإنه سوف يمتاز عن مجتمعتك بأنه يقوم
على فكرة الإنصاف ، وعلى عاطفة الصداقة التي تعترف أنت بأنها عاطفة طيبة ،
والتي لا يعوضها شيء يضارعها في أرستقراطيتك .

هرنجتن : أعتقد أن هذه نتيجة طبيعية تترتب حتما على ما سمعت به من
قبل ؛ وأنا أسلم لك بهذه النتيجة أيضاً عملاً بقواعد المناظرة ، وإن كنت
لا أعرف ماذا يكون حكمي عليها عند ما أفكر في الأمر مرة أخرى .

مارتن : فلندعها إذن حيث هي ، لأن الموازنة بين الطيبات من أشق
الأعمال ، ويجب أن يترك الحكم عليها للتجارب لا لقواعد الجدل والمنطق .
ولسكني أرى أن شيئاً واحداً على الأقل ينتج حتماً من هذا البحث ، وهو أن
النزاع بين الديمقراطية والأرستقراطية من حيث هما مثلاً من المثل العليا ،
يجب أن يفصل فيه أيّاً كانت صورته ، حسب ما تؤدي إليه الموازنة بين
قيمتي التخصص من ناحية والإنصاف من ناحية أخرى ، وبحسب ما تنتج
العلاقات الشخصية في كلتا الحالتين من الاحترام أو الإخلاص ، أو ما شئت
فسمه ، من ناحية والصداقة من ناحية أخرى . هذه هي المبادئ التي يستند
إليها النظامان في آخر الأمر إذا جردناهما من جميع الاعتبارات الثانوية ،
وهذه المبادئ التي تظهر في الناس ممثلة في عواطفهم ومثلهم العليا هي التي

ستقرر النتيجة النهائية ، أو هي آخذة في تقريرها الآن أمام أعيننا .

استيورت : وفي أية ناحية سيكون القرار ؟

مارتن : أظن أن القرار سيكون في صالح الديمقراطية . على أن هذه مسألة أخرى لم يحن بعد وقت البحث فيها ؛ وإلى أن يحين ذلك الوقت أقول إنه يبدو لي أننا قد وصلنا إلى نتيجة مؤقتة ، هي أننا نفضل المثل الديمقراطي الأعلى . هرنجتين : أنا موافق على هذا .

مارتن : لم يبق إذن إلا أن نعرف الفرق بيني وبين استيورت ، وهو في ظني أقل شأنًا مما كان بيني وبين هرنجتين ؛ وأنا راض بأن أتركه من غير أن نفصل فيه ، فكلانا ديمقراطي ، وكلانا يقبل مبدأ ملكية المجتمع للأرض ورأس المال .

استيورت : أقبله من حيث هو مثل أعلى ، أما من الوجهة العملية فلست أظن أن تحقيقه مستطاع .

مارتن : تقبله إذن على أنه مثل أعلى ، ولسكتك ترى أن تؤجّر هاتان الوسيلتان من وسائل الإنتاج للأفراد ليستغلوهما ؛ أما أنا فأفضل على العموم أن يستغلها المجتمع بنفسه . وتعترض كلتا الطريقتين صعابٌ ومساوئٌ تجعلني لا أصر حتماً على طريقتي ، وإن كنت أنا على العموم أفضل موقف الموظف العام خادماً الشعب على موقف المغامر الفرد ، وكنت أنت تفضل عكس ذلك . وأنا راض بأن أترك المسألة عند هذا الحد . استيورت : وأنا أيضاً راض بهذا .

مارتن : هذه إذن أنواع مجتمعاتنا نعرض التماثيل الجميلة لنتأملها ونختار منها أحسنها . والآن وقد تم تصويرها ألا يجدر بنا أن نعود إلى النقطة التي بدأنا منها ، لنسأل أنفسنا هل يتضح من الموازنة بينها أنه إذا اختار رجال

§ ٧ موازنة بين

الجماعات التي نكلمها

عليها

§ ٨ أهمية المثل

السياسية العليا في

توجيه الأساليب

العملية

§ ٨ أهمية المثل
السياسية العليا في
نوعية الأساليب
العملية

الحكم أو الشعوب أحدها مثلاً لهم ، أو اختاروا لهم مثلاً يختلف عنها ، أثر ذلك الاختيار تأثيراً حقيقياً في الحياة من الناحية العملية ؟ فلو فرضنا أنهم اختاروا مثل هرنجتن الأعلى كان عليهم أن ينقضوا كل ما بنوه من النظم الديمقراطية ، فيعدلوا عن مبدأ حكومة الشعب ، وعن المساواة في الثروة ، ويسعوا إلى تدعيم نظام الطبقات ، وبخاصة طبقة الأغنياء ، فيزيدوا من ثروتها وسلطانها بدل أن ينقصوها ، ويثبتوها بدل أن يضعفوها من شأنهما . وعلى الشعوب وعلى رجال الحكم في هذه الحال أن يربطوا أفراد هذه الطبقة ويثقفهم ، حتى يصبحوا خلقين بالتصرف في ثروتهم وسلطانهم خير مجموع الشعب . ومن ثم يصبح الغرض الذي يعمل له المجتمع أن يحول الطبقة التي لانزال تنزلى زمام الحكم في معظم البلاد إلى أرستقراطية حقيقية . ولا يخفى أن ذلك غرض يختلف كل الاختلاف عن الغرض الذي تعمل له معظم البلدان . استقيورت : ولهذا السبب نفسه ولغيره من الأسباب لم أجد في نفسي ميلاً حقيقياً إلى مجتمع هرنجتن ، فقد بدا لي بوضوح تام أن لاصلة له بالاتجاهات المشاهدة فعلاً في هذا العالم .

هرنجتن : إنى أخالفك في هذا . نعم إن الأحزاب السياسية تقبل المبادئ الديمقراطية في ظاهر الأمر ، لكن منشأ هذا أن الأجركيين قد وجدوا قبول هذه المبادئ خير طريقة تمهد لهم سبيل الحكم ، حتى إذا ما ثبتت فيه أقدامهم أو أخرجوا منه قوة واقتداراً خلعوا ثوب الرياء وأنسكروا صراحة كل التقاليد الديمقراطية . ذلك أن كل الأقوياء من الناس ، وكل الأغنياء منهم ، يحبون من صميم قلوبهم أن يكونوا هم الحاكمين ، وهم لا يؤمنون قط بالمساواة ولا بحكومة الشعب ، ويعتقدون أن وجود طبقة أو طبقات من العمال اليدويين في ناحية وطبقة من الملاك في ناحية أخرى نظام مرغوب فيه ،

§ ٨ أهمية المثل
السياسية العليا في
توجيه الأساليب
العملية

ولا بد من وجوده في كل مجتمع أيًا كان نوعه . وإذا كان هؤلاء الحكام
من لا يدينون بالمبادئ الأجركية ولا يؤمنون بمثل عليا على الإطلاق ، فإن
المثل الأعلى الذي يتجهون نحوه دون أن يشعروا هو المثل الأرستقراطي .
مارتن : أعتقد أن هذا حق ، وأنت ترى المثل الأرستقراطي الأعلى ينادي
به الآن بقوة أولئك الشبان الطموحون المتفوقون ، الذين يعتقدون أنهم هم
الذين اختارتهم الأقدار ليمثلوا الإنسان الكامل في هذا العالم . وللإنسان أن
يظن أن الأجركية ستجد إذا حان الوقت بين هؤلاء الشبان أنصارها
وناشري مبادئها ، ذلك أن الديمقراطية لم تظفر حتى الآن بالنصر النهائي ، بل
إن الموقعة الفاصلة بينها وبين خصومها لم تسكد تبدأ بعد ، لأن الكفاح
الحقيقي يبدأ يوم تهاجم نظام الملكية . وإذا ما بدأ هذا الكفاح فإن الحزب
الآخر لن يقنع بإثبات قوته وجبروته ، بل سوف يرى أفرادها أن لا بد لهم من
نظرية يستعينون بها ، كما استعان بالنظريات ملاك الرقيق في الولايات
الأمريكية الجنوبية . وسيجد أولئك كما وجد هؤلاء من قبل أن النظرية
الوحيدة التي يستطيعون الدفاع عنها دفاعاً مقبولاً في الظاهر هي التي وضعها
أفلاطون ، والتي تقول بوجود طبقات قاصرة بطبيعتها وأخرى متفوقة بطبيعتها .
استيورت : لست أظنك تقول بطبيعة الحال إنهم سيسيروا على الخطة التي
رسمها هرنجتون ، وعلى نظامه الخيالي الغريب في تنشئة الناس !
هرنجتون : إنهم سيفعلون ذلك إذا تمسكوا بنظامهم كله واتبعوه بإخلاص ؛
وسواء فعلوا ذلك أو لم يفعلوه فإن هذا النمط الذي أخذته أنا من أفلاطون هو
في اعتقادي النمط الوحيد الذي يجب أن يكون لباب كل نظرية أرستقراطية
تعمل بحق للوصول إلى مبدأ العدالة ، وليست في واقع الأمر ستاراً تحتفي
وراءه الأجركية .

استيورت : يخيل إلى أن الفكرة التي لدى من يشايعون هذه النظرية من أصحاب الملايين تنطوي على شيء من السخافة !
 مارتن : وعليك أن تضيف إلى أصحاب الملايين من يمثلون طائفة النبلاء الأقدمين ، والطوائف العسكرية ، وأرستقراطية العقول ، وكل من يعتمدون عليهم وينالون ردهم من رجال الصحافة والكنيسة . ولا تنس الضرورة التي تحتم على كل حزب يريد أن تكون له قوة معنوية — والقوة المعنوية هي القوة الحققة الوحيدة في نهاية الأمر — ألا يكتفي بأن يكون ممثلاً للحقيقة واقعة ، بل يعمل على أن يكون أيضاً رمزاً لمثل أعلى ؛ ولست أستبعد أنا شخصياً أن أرى في وقت قريب أعداء الديمقراطية وقد أوتوا من الذكاء ومن الشجاعة ما يمكنهم من أن يصوغوا عقائدهم ويصوروها للناس . وإذا ما استطاعوا أن يستولوا على أزمة الحكم ويوجهوا المجتمع كما يشاءون ، فسيوجهونه من غير شك في الطريق الذي وصفت .

استيورت : ربما فعلوا ذلك .
 مارتن : أما الحزب الآخر فقد صور ما يحتاجه من سنين كثيرة في الصورة التي سماها الاشتراكية ، وإذا ما تولى أعضاؤه الحكم فسيوجهون فيه اتجاهاً مضاداً لأولئك ، أي في الطريق الذي سميت طريق الديمقراطية .
 استيورت : هذا صحيح .

مارتن : وإذا اختار الاشتراكيون في آخر الأمر مجتمعاً من نوع مجتمعي ، أو مجتمعاً مثل مجتمعك ، ترتب على هذا الاختيار نتائج تختلف في كلتا الحالتين ؛ فهم في إحداها يرحبون بكل الوسائل التي تؤدي إلى إدارة الأعمال على يد السلطات العامة ، وفي الحالة الأخرى يعارضون في هذا معارضة لا تقل في شدتها عن معارضة أقوى أنصار المذهب الفردي ، وإن كانوا

§ ٨ أهمية المثل
 السياسية العليا في
 توجيه الأساليب
 العملية

§ ٨ أهمية المثل
السياسية العليا في
توضيح الأساليب
العملية

في كلتا الحالتين يظلون يدعون إلى جعل الأرض ورأس المال ملكا عاما .
ويبدو لي أن هذا الفرق ، وإن كان غير ذي بال في الوقت الذي تحارب فيه
الجماعية النظام القائم اليوم ، سيعظم شأنه بين صفوف الحزب الاشتراكي نفسه .
استيورت : هذا صحيح .

مارتن : وإذا كان هذا كله صحيحاً فماذا يكون مصير حجتك الأصلية
القائلة بأن لا علاقة بين المثل العليا والحقائق الواقعية ؟ إننا لا نفتأ نشاهد هذه
المثل نفسها تُعَيَّن شكل الحقائق كما يُعَيَّن المكان المقصود طريق السفر إليه .
استيورت : لا . كل ما أستطيع أن أوافق عليه هو أن الأحزاب تصوغ
مثلها العليا وليست المثل العليا هي التي تكون الأحزاب ، وليس الذي يتحقق
هو هذه المثل نفسها ، فهي أشبه بسستار يخفي وراءه عواطف أكثر منها
بدائية ، وأبعد منها عن التفكير السليم . فترى الأجركيين يجهرون بنظرية
أرستقراطية ، ولكنهم لا يقصدون في الواقع ما يجهرون به ، بل كل
ما يرغبون فيه أن يحصلوا على السلطة وأن يحتفظوا بها متى حصلوا عليها .
وترى الأقلراطيين أيضا — إذا سمحت لي أن أستعمل تعبيرك — يدعون
أنهم من أنصار المثل العليا الديمقراطية ، ولكنهم في الواقع لا ينشدون
الإنصاف ، بل ينشدون مصالحهم الشخصية . وليس التاريخ على ما أفهمه
منه إلا كفاحا من جانب الأفراد والطبقات للحصول على السلطة ؛ وليست
المثل العليا أسبابا لهذا الكفاح بل نتائج له ، وليست وحيًا يوحى إلى
الناس بل دعاوى باطلة يدعونها ، وهي شرر يتطير من عجلة التاريخ ، يتناثر
ويختفي ، أما العجلة فلا تنقطع عن الدوران ، وهي جامدة صلبة لا ترحم ولا
تلين ، ولا تتغير مادتها ولا حركتها .

مارتن : بهذا إذن تتحداني ، أو على الأصح تتحدى التاريخ تحديا صريحا

لا خفاء فيه ؛ فأنت تقول — إذا لم أخطئ في فهمك — إن التاريخ شيء § ٨ أهمية المثل السياسية العليا في توجيه الأساليب العملية

استيورت : أقول إنه لا معنى له من ناحية المثل العليا .

مارتن : إذا لم يكن للتاريخ معنى من هذه الناحية فلست أعرف له معنى آخر يستحق أن يعنى به الإنسان . وأنت مع ذلك تنكر أن تكون للمثل العليا قوة مطلقة ، وترى أن من السخف أن ينظر الإنسان إلى الماضي أو إلى الحاضر على أنه حركة دائمة لتحقيق تلك المثل .

استيورت : نعم هذا رأيي .

مارتن : وإن لك لأنصاراً أقوياء يؤيدونك ، ولست أدعى أن في مقدوري أن أرد عليك وعليهم في بضع كلمات ، ولا شيء يستطيع أن ينفذ دعواك أو يؤيدها إلا إذا فهم التاريخ كله على الوجه الصحيح . لكنني مع ذلك سأفعل كل ما في وسعي الآن وفي هذا المكان ، وسأبين لك ما يبدو لي أنه الصلة بين الحقائق والمثل العليا ، وسيكون من أثر هذا على الأقل أن يحدد الفرق بيني وبينك .

استيورت : أفعل ذلك إذن .

مارتن : وأجب أولاً أن أعترف بكل ما في قضيتك من قوة ، وذلك لكي أحملك على أن تسير معي إلى أقصى حد تستطيع . ذلك أنه مهما يكن للمثل الأعلى من مكانة ومن أهمية ، فإن أحداً لا ينكر أن عليه أن يشق طريقه بين عناصر غريبة عنه معادية له . ولننظر أولاً إلى الحقائق المادية الواضحة . إن العالم ضيق الرقعة جداً ، وكثير من أجزائه غير منتج ، وليست كل الأجزاء المنتجة منه صالحة لمعيشة الإنسان ، والصالح منها لا يستطيع الإنسان أن يعيش فيه إلا بالسكد المتواصل ، وكثير من هذا السكد محقر له حاط من شأنه ، وكله مزعزع الثمرة غير مأمون العاقبة . فالضيق والمطر والعواصف

§ ٩ الملاحظة : وفيضان الأنهار والأعاصير والثورات البركانية والزلازل كل هذه تكتسح الحقائق والمثل العليا في لحظة تماركد الإنسان كله ، أو ما يرجوه لسكده من ثمار . فالطبيعة ضئيلة بخيرها لا يمكن الركون إليها والثوق بها . تلك حقائق أساسية لا يمكن نقضها ، وعلى هذا الأساس الواهي المضطرب تقوم كل مدينتنا المزعزعة التعسة . ولو أن دنيانا كانت جنة عدن لا برية سيناء لكانت مدينتنا ونظمتها غير ما هي الآن . ولهذا أقول إن منشأ الشرور الاجتماعية كلها هو الطبيعة لا الإنسان .

استيورت : نعم إن الطبيعة منشؤها .

مارتن : هذا حق لا شك فيه ، ولكن الرد عليه أن السم قد أنتج الترياق ؛ ذلك أن وحشية الطبيعة قد ولدت الإرادة والذكاء في الإنسان ، فكل حركة من حركاتها تعقبها حركة معارضة لها من جانب الإنسان . لقد أعمل في غاباتها فأفسه ، وفي أرضها العاصية محرائه ، وفي صحاريها المجذبة بجاري مائه ، وفي بحارها الصاخبة بجذافه وشراعه ؛ ولقد كان الظفر له في الكفاح القائم بينه وبينها جيلاً بعد جيل . وقد أكل هو عدته وأهملت هي عدتها ، فاستبدل بزورقه الصغير سفينة المحيط الضخمة ، وبالمعزقة محرائه البخاري ، وبالشادوف سد أسوان العظيم ؛ وإذا كان قد وجد الطبيعة عقبة كأداء في أول أمره ، فقد تغلب عليها فيما بعد . فإذا كان لا يزال حتى الآن في ضنك وبؤس ألا يكون هو نفسه مصدر ضنكه وبؤسه ؟

استيورت : لا ! إنه مهما أسرع في عدوه إن يلحق الطبيعة قط . فتعداد الناس وحاجاتهم ورغباتهم تزداد كلما زادت قواهم ؛ ومهما بلغت ثروتهم في هذه الأيام فهم ليسوا أقل فقراً نسبياً مما كانوا عليه حين كانوا يقفون عمرة الأجساد على سطح الأرض .

مارتن : لك أن تقول هذا إذا شئت وإن كان غير صحيح ، ولك أن تزيد

عليه أن الأساجة التي يستخدمها الإنسان في كفاحه إنما يمدده بها في سخرية § ٩ العمدتين
غريبة ذلك العدو الذي يوجه طعناتها إلى صدره . لا ننكر أن إمكانات الحقائق والمثل العليا
العلم والاختراع لا تقف عند حد ، ولكن هذه الإمكانيات نفسها تحت رحمة
الطبيعة ؛ فالطبيعة هي التي تنتج أو تمنع ذلك الاتصال بين عقل الإنسان
وحادثة الزمان الذي يتولد منه القبس الذي نسميه فكرة . وقد ظلت
المدينة تنتظر قروناً عدة ، مظلمة مجدية ، أن يخرج عليها توبال قاين^(١)
Tubal Cain أو بروميثيوس^(٢) أو جوتنبرج^(٣) Gutenberg
أو وات^(٤) Watt ، ولكنها ظلت طوال هذه القرون تنتظر عبثاً ؛ وقد

(١) توبال قاين Tubal Cain ابن لامك من زوجته صالة . أول من اشتغل
بصناعة النحاس والحديد : سفر التكوين ٤ : ٢٢ « وصالة أيضاً ولدت توبال قاين الضارب
كل آلة من نحاس وحديد » .

(٢) بروميثيوس Prometheus : بطل الثقافة في الأساطير اليونانية القديمة .
وتصفه هذه الأساطير بأنه صديق الإنسانية والحسن إليها والمدافع عنها ضد زيوس كبير
الآلهة الذي يريد أن يقضى على الجنس البشري ويحل محله جنساً آخر خيراً منه . وتقول
هذه الأساطير إنه هو الذي سرق النار المقدسة من السماء لينتفع بها بنو الإنسان فعاقيه
زيوس بأن شده إلى صخرة كبيرة بسلسلة ضخمة . وقد كانت هذه الأسطورة مصدر وحى
للكتاب والشعراء ، فكتب إيسكس Aeschylus مأساته « بروميثيوس المقيد » ، وكتب
جيتيه مسرحية « بروميثيوس » بالشعر المرسل ، وكتب بيتهوفن Beethoven مرقصة
موسيقية ، وكتب شلي Shelley مسرحية غنائية عنوانها « بروميثيوس غير المقيد »
(٣) Johann Gutenberg ١٣٩٨ — ١٤٦٨ : الطابع الألماني وهو الذي
طبع أول كتاب بالحروف المصنوعة وكان هذا الكتاب هو التوراة .

(٤) James Watt ١٧٣٦ — ١٨١٩ : المهندس والمخترع الإنجليزى الشهير .
تمرّن أولاً عند صانع آلات في لندن ثم أصبح صانعاً للآلات الرياضية بجامعة جلاسجو .
وبدأ في عام ١٧٦٠ يقوم بتجاربه لتحسين الفاطرة البخارية ، وقد أفلح في تحسينها وإدخال
إصلاحات هامة كثيرة عليها .

ويمثل المؤلف هؤلاء خدام الإنسانية سواء كانوا من أبطال القصص أو التاريخ .

§ ٩ الموقنين يكون في ذمة المستقبل في هذه الساعة مخترعات وسبل للحياة لو أنها برزت
الحقائق والمثل العليا الآن إلى حيز الوجود لحقت أحلام أصحاب المدينة الفاضلة . ولكن هل
في مقدورنا أن نعجل أو نؤجل مولد هذه المخترعات وسبل الحياة بمجهود
نبذلها عن قصد ؟ إن الأخطار والفوضى تنتابنا من داخل أنفسنا ، كما تحيط
بنا من خارجنا ، وإن عدونا هو تلك الطبيعة التي أنشأتنا ، وهي تبعث بنا
وتتصرف فينا حسب أهوائها ، فتبعث إلينا بالعقري أو تبعث إلينا بزلزال
وخط ، وهي تبعث إلينا بهذا أو بذاك متى تشاء وأنى تشاء ؛ فقد نتظر
الدهور ونقضى من الجوع ولكن ذلك لا يهمها ، إنها تنتظر حتى
يجيء الأوان .

استيورت : وبماذا يجيب الرجل المثالي ؟

مارتن : جوابه أنه إذا لم يكن في وسع الإنسان أن يسيطر على القرص
والظروف ، فإن في وسعه أن يستعد للقائها حين تجيء ، وأن يهمل هذا اللقاء ،
وفي وسعه أن يستخر الأقدار لنفعه أو أذاه بنظمه وسنن حياته ، لأن هذه
النظم هي الطرق التي تسير فيها النيران المقدسة حين يندلع لهيها ، وهي التي
يستطيع بها أن يخنقها أو يزيدها ضراما ، ويحسن التصرف فيها أو يبددها
ويتلفها ، ويوجهها إلى آلاف الآلاف من المصارف والمخارج المضئئة البراقة
البهيجة أو يطفى جذوتها ويسد عليها الطريق ، أو يتركها تنصرف إلى حيث
يفنى نورها وتنشع حرارتها فلا يفتفع بهما أحد . ويقول الرجل المثالي
فضلا عن ذلك إن الأنظمة البشرية في التاريخ كله قد حالت دون التقاء
العبقري بالقرص السانحة أكثر مما ساعدت على هذا اللقاء . فلقد شاركت
السكررة الغالبة من الناس من بداية الخلق إلى الآن الوحوش في مصائرهما ،
فكانوا عبيداً وأقناناً لملأك الأرض ، وهم الآن أجراء كادحون ؛ ومهما يكن

في نفوسهم من جذوة نار مستكنة ، فإن هذه الجذوة لم تجد لها سبيلا للخروج § ٩ المرفق بين
لتفسيح لهم طريق الأمل ، وتفتح لهم الفرص ، وتتهيأ لهم سبيل الطموح ،
وتأخذ بيدهم إلى المكان الذي يستطيعون أن يعملوا فيه . ولم تكن الطبيعة
ذات الأهواء هي وحدها التي حالت دون التقاء التيارين اللذين يتولد من
التقاءهما شرارة تنبعث عنها فكرة ، بل إن ظلم الإنسان أو ضعف عقله قد
وقف في سبيل هذين التيارين . فلقد تضافرت العادات والشرائع التي خضع
لها الناس من قبل أن يطلع فجر التاريخ على تعطيل مواهبهم وكبتها ،
والوقوف في سبيل نمائها ؛ وعبثاً حاولت « الفرصة » — ذلك الملاك السماوي —
أن تدق على الناس الأبواب التي أوصدها الفقر والذل والخوف ، لأن الأنظمة
البشرية قد سدت العيون التي يسيل منها ما تجتمع في الروح البشرية من
قوى تريد الخروج . لكن عينا كانت تنبثق من ذلك المستودع من حين
إلى حين ، فيخرج ماؤها خلسة من ثغرة ليس عليها رقيب عتيد ، تدل على
عظمة ما في النفس البشرية من قوة كامنة محبوسة فيها قد سدت عليها الطريق .
استيورت : نعم ، وهنا موضع النقطة التي أريد أن أدلى بها . إن هذه
النظم لم يضعها الإنسان بإرادته بل فرضتها عليه الأقدار .
مارتن : وهذه الأقدار هي الطبيعة المستكنة في داخله ، والمحيط به
من خارجه .

استيورت : نعم .

مارتن : دعنا الآن نقدر الحقائق حق قدرها ونزنها بالميزان الصحيح .
إذا كان الإنسان قد سلك في نموه ذلك الطريق الذي سلكه فلم يكن ذلك
لأنه وُضع في هذا العالم الذي وصفناه وحسب ، بل لأنه فوق هذا ذلك
الخلق الذي يجب أن نعترف الآن بحقيقة حاله . وكيف وجدنا هذا الإنسان

§ ٩ العدة بين
الخفايا والمثل العليا

من أول أمره ، أى من الساعة التى بدأ فيها يتصرف بنفسه فى أقداره ؟ هل وجدناه فى ذلك الوقت مجسداً مسالماً ذكياً رحيماً معيناً لبني جنسه ؟ لا بل وجدناه حيواناً مغطى بالشعر يمشى على رجلين ، جاهلاً قاسياً مخرفاً منقسماً إلى آلاف من القبائل والجماعات المتعدية بغريزتها ، فكانت الحرب وكان الاسترقاق ، وكان ما يستتبعان من مصائب وآلام وجدت مع الإنسان من بداية عهده ، وكانت شرور لا بد منها تصيب الإنسان كما يصيبه الفيضان والنار . هذا هو الكائن الحى الذى وجد دون أن يكون له فى وجوده خيار ، والذى وضع بغير رضاه الأسس التى قامت عليها الحضارة . وقد صور هذا المخلوق بغير علمه صورة الظلم قبل أن يعرف ما هو الإنصاف ، واندفع فى تيار الحرب قبل أن يدرك معنى السلام ، وأطل فى طفولته على العالم بعد رقاده الطويل فى أحضان الوحشية ، فرأى نفسه وقد قدر عليه أن يكون عدواً وسفاحاً ولصاً ؛ فلما بدأ يفكر وينقد ويحكم تبين فى داخل نفسه كما تبين فى خارجه الهدف الذى يصب عليه استهجانه وغضبه ، فرأى نفسه مهياً للقتال مع نفسه ، متحصناً منها ، يضرب بإحدى يديه ، ويدفع الضرب عن المضروب باليد الأخرى ، يجره من قدميه ويتعلق به من عنقه ما ورثه عن أسلافه من الحيوان ، مهما حاول التخلص من هذا التراث . وإذا كان بنو الإنسان قد انقسموا أمماً استحكمت بينها أسباب العدا ، واتقدت فى كل أمة نيران النزاع بين الطبقات ، فما ذلك إلا لأن طبيعة الإنسان لا تزال هى طبيعة النمرة والذئب ؛ فإذا كانت له الآن مدافع وبوارج فلائنه كانت له فى الأصل مخالب وأسنان ؛ وإذا كانت الدعارة والفسق تنتشران بين أفراد فلائنه كان من قبل يلجأ إلى السبي والاغتصاب ؛ وإذا كان له الآن عمال أجراء فلائنه كان له فيما مضى عبيد وأقنان . يقولون إننا قد أنشأنا أنظمتنا ، وأقول لا !

إن الطبيعة هي التي أوجدت لنا هذه الأنظمة ؛ وإذا نحن انتقدناها § ٩ المرفقة بين
بعقولنا فإن هذه العقول تسبكتها بطوننا ؛ وإن شرائع الملكية والوراثة الحقائق والمثل العليا
وعاداتنا وأخلاقنا الجنسية كلها حقائق صريحة العداء للمثل العليا ، قاسية
قسوة العواصف والبراكين . فهل كنت تعنى شيئاً من ذلك حين استشرتني
باحتجاجك على نظمنا ؟

استيورت : نعم ! وماذا تريد أن تقول بعد ؟
مارتن : لا أريد أن أقول إلا شيئاً واحداً هو أيضاً حق ، وأرجو أن تلاحظ
أنه هو أساس الخلاف بيني وبينك . أريد أن أقول إن هذا الحيوان ، وأعني
به الإنسان ، هذه القصة المرضوخة الطافية فوق بحر الأقدار الخضم ، هذه
الضحية الجاهلة الضعيفة الشكسة الشرهة الهشة المكسر الخوارة العود ،
هذا السقط الذي أجهضته أم له نسبها الطبيعة ولما يكتمل نموه ، هذه
الكتلة الخثرة ، أو الشيء القذر الذي لا أدري كيف أسميه ، هو أيضاً ابن
لأب سماوي عظيم ؛ كان بذرة روحية مذ كان نقطة في رحم الطبيعة أمه ؛
وإذا كان بعض التاريخ قصة انغماس الإنسان في المادة ، فإن بعض الآخر
ملحمة كفاحه لإخراج نفسه منها . إن الحقائق الرهيبة التي أشرنا إليها في
خوف ووجل ، والتي لا يستطيع إنسان قط أن يواجهها ويتغلب عليها ، كلها
حق لا جدال فيه ، ولك أن تقف عندها ولا تتعدها إذا أحببت . ولكن
حق أيضاً ذلك الصراع الذي ترمز هي له ، حق ذلك الفيضان الحزب وذلك
الغرين الذي يمتلئ في الأرض ، حق فوق كل حق ذلك المثل الأعلى . ولا
تظنن أن هذا المثل الأعلى فكرة في رأس إنسان ما ، إن الفكر هي الآثار
التي يخلفها وراءه ، هي الظلال ، هي الصور ، هي الكلمات ؛ أما المثل الأعلى
نفسه فهو الضوء ، وهو النار ، وهو اللسان الناطق ، هو موجد هذه الفكر .

§ ٩ العمدة بين وما الشعر والفلسفة والفن والدين وكل ما تستطيع أن تضيفه إليها إلا مظهر له الخفايا والمثل العليا وإفصاح عنه ، وليست هي المثل الأعلى نفسه ؛ وما التفكير إلا المفتاح الذي تفتح به أبواب سجنه المغلقة ؛ وما الألفاظ إلا وعاء تحفظ فيه بذوره . أما هو حقيقة الحقائق ، وأصدق الوقائع ، وجماع القوى ، وهو أجل من أن يظهره البيان ، وأخفى من أن تفصح عنه التجارب ، وأبعد من أن يصل إليه إنسان . وبيننا يصيح الناس كلهم قائلين : « هذا مستحيل » ، تراه هو يسرع في سيره ويحبذهم نحوه . وهو شرارة كامنة حتى في نفوس من ينكرون وجوده ، فليحذروا انقاد اللهب حين تهب على هذه الشرارة رياح النفوس !

استمورت : لكنني أرجو أن تأذن لي أن أقطعك . إذا كان ما تقوله صحيحاً فكيف بقي المجتمع بعد هذه القرون الطويلة بالحالة السيئة التي هو عليها الآن ، إذا أخذنا برأيك فيه على الأقل ؟

مارتن : أرجوك المَعذرة ؛ لقد أردت أن أعبر عن قصدي بوضوح فخرفتي تيار الخطابة ، فأذن لي أن أبدأ القول من جديد . إنني إذا نظرت إلى الأمر نظرة جدية والنفس هادئة كما يقول الفلاسفة ، وجدت في نفوس الناس حقيقة لا شك فيها ، وجدت أنهم وهم أجسام ذات حاجات ورغبات يضعون لأنفسهم مثلاً أعلى يسعون لتحقيقه ؛ وما أشبه ذلك في نظري بحجة غرست في أديم الأرض الضئيلة بخيرها التي لا يوثق بها ، وخرجت من هذه الحبة شجرة التاريخ البشري التي اتخذت صورتها من الحبة نفسها ، وامتنعت غذاءها من التربة والهواء ، وخرجت مبتورة معوجة ذابلة في حاجة إلى الغذاء ، ضعيفة مشوهة محطمة ، ولكنها تسعى جهدها لأن ترتفع في السماء لتلتقي الضوء والهواء ، وتخرج العصون وتحمل الأوراق ، مدفوعة إلى ذلك بدافعها الداخلي . وإذن فمن حقنا في أية لحظة أن نقول ، بل من واجبنا

أن نقول ، إن الإنسان روح إذا نظرت إلى صورته المثالية ، وأن نقول في § ٩ المعرفة بين الوقت ذاته إنه حيوان إذا نظرنا إلى مادته وجسمه ، وأن نقول إن مجتمعه الخفائي والمثل العليا فاسد ، وإن الروح الذى يشكله صالح ، وإن تاريخه قصة دينئة مملوءة بالجرائم وإنه مدرسة للصالح والاستقامة . والناحية الأولى وحدها غير صادقة ، والثانية وحدها كاذبة ، فإذا شئت الصدق نخذ الاثنين معاً ، وهو ما أعمل بإمعان وتدبير لعرضه أمام عقلك وعقلي .

استيورت : ثم ماذا ؟

مارتن : ثم ينتج من هذا أن الإنسان إذا كان مرهف الحس لا يستطيع أن يتجنب التذبذب الدائم بين الواقعية الحيوانية والمثالية العمياء . انظر يوما بعد يوم إلى السكثرة الغالبة من أبناء هذا الجيل ، يسرون في طرقاتهم الخفية ، ويدخلون بيوتهم القذرة ، وشاهدكم يوم يولدون يلقون بالآلوف وآلوف الآلوف في هذا العالم الدنى ، يثنون وينجمون^(١) في طرقات الحياة الضيقة المظلمة ، ثم تدفعهم سورة من عواطف الشباب إلى تقييد أنفسهم بذلك القيد الموبق الخطير^(٢) ، الذى يزعج بهم مدى الحياة في ميدان السكدح الدائب المرهق . ثم حوّل نظرك عن هؤلاء إلى أولئك الذين يخيل إلينا أنهم القلة المحظوظة ، تجدهم هم أيضاً ، وإن تطلعوا بأعينهم إلى السماء ، عمياً لا يبصرون الشمس والنجوم ، يكدحون كما يكدح الآخرون ، كدح العبيد ، أو يتسكعون تسكع البلهاء والمعتوهين ، يصيحون من شدة الخوف والغضب إذا رأوا إنساناً يرفع طرف النقاب الذى يحجب الضوء عن سجونهم التى يسمونها قصوراً ؛ وإذا فرغت من مشاهدة هذه الجموع من الحشرات

(١) التحميم شبه أنين يخرج العامل المسكدود .

(٢) يريد الزواج .

§ ٩ الموقنين السكدودة الحقيمة العابشة ، وتاملت فى داخل نفسك ، ووجدت الخاوف الحقائق والمثل العليا والحاجات يزحم بعضها بعضاً ، وهى التى تعيننا على فهم هذا المنظر الأرضى ، وإن كانت لا تبرره ؛ ورأيت من فوقك شعلة المثل الأعلى بعيدة ضئيلة تخفق وتضطرب ، وهى وحدها التى تعيننا على أن نبصر ونحكم ؛ إذا فعلنا هذا لم يسعنا ونحن فى هذه الحالة العقلية ، مطوقين بهذه القيود الثقيلة ، إلا أن نعتقد أن المثل الأعلى لا يزيد على أن يكون فكرة ، وأن الذى يعزو إليه شيئاً من القوة يعبت كما يعبت الذى يظن أن حب السكالم هو الذى يمسك النجوم ويسيرها فى أفلاكها . وقد أخذ المؤرخون ورجال الأدب ، وأخذ غيرهم من يسمون أنفسهم رجال هذه الدنيا ، وهو اسم ينطبق عليهم بحق ، أخذ هؤلاء كلهم فى وقتنا هذا يعتقدون هذا الرأى ويجهرون به ، ويسخرون من الشعراء أمثال جوته Goethe ^(١) وكارليل Carlyle ، الذين يرون أن التاريخ وحى من عند الله ، وأن الطبيعة هى المظهر الخارجى لله .

استيورت : كما تظن أنت أيضاً ؟

مارتن : نعم كما أظن أنا حين أعود إلى نفسى ، لأن الذين ينظرون فى الأمر بتدبر واستبشار ، يجدون فى خلال هذه الشرور والآثام شيئاً آخر قوياً فعلاً يعمل فى الخفاء ، يجدون دافعاً من الحب وإن كان قصير الأمد ، ورغبة فى أداء الواجب وإن تسكن ضعيفة محدودة ، ويرون عصير الحياة

(١) Johann Wolfgang Von Goethe ١٧٤٩ — ١٨٣٢ أعظم الشعراء

الألمان وفلاسوفهم الكبير ، ولد فى مدينة فرانكفورت على المين Frankfort-on-Maine وتعلم فيها وفى جامعة لپزج واسترسمبرج . وكان عالماً فى القانون والاقتصاد السياسى وعلم الأحياء ، ومن قصصه التى ترجمت إلى العربية وطبعها لجنة التأليف « آلام فرتر » ، « فاوست » .

يجرى في الخشب وإن بدا ميتاً ، وأن مصباح المثل الأعلى ، وإن بدا خافتاً § ٩ العموديين مضطرباً ، يستمد ضوءه من نار تضطرب في قلوب العالم ، وتلك النار هي التي تنير ظلمات التاريخ . وما الحقائق الطبيعية والاقتصادية والغرائز وحاجات الإنسان ورغباته إلا الوقود الذي تحيله هذه النار إلى جوهر رוחي ، والمعول الذي يضرب في قواعد المجتمع حتى في الأوقات التي نسميها أوقات سلام ، لأنها منهومة لا تشيع . ومن أسماء هذه النار « العدالة » ، وهي أعظم القوى على الإطلاق ؛ ويسمى خالق هذه الدنيا حليماً ، ولكنها هي التي أشعلت نار الثورة الفرنسية ، وهي التي تضم الآن لهيب الثورة الروسية ، وتقوض أركان المجتمع الغربي كله ؛ وقد أخذت ترفع عنه دعائم العقائد الثابتة المسكنة دعامة في إر دعامه ، ولا تبقى إلا جدران الحقائق تهتز وتضطرب وتصدع ، تريد أن تنقض . وليست طبقات العمال دون غيرها هي القوة الفعالة في تلك الثورة العظيمة التي نسميها بوجه عام الاشتراكية ، بل إنها ليست أكبر القوى الفعالة فيها . إن قوتها العاملة هي ضعف الطبقة الحاكمة ، وجود الأغنياء والأقوياء ، وامتناع ذوي الذكاء والقوى الخلقية شيئاً فشيئاً عن معاونة طبقتهم معاونة جدية ، والعناية بمصيرها ، وإن كانوا لا يدركون ما يفعلون . إن الذين لا يؤمنون بالاشتراكية لهم أكثر الناس خضوعاً لسلطانها ؛ فصرخاتهم الجوفاء الصادرة عن غضب وياس ، وتلاعيبهم بفكرة القوة ، ليدلان على شعورهم المؤلم بأنهم قد خسروا قضيتهم . إن العدالة قوة هائلة إذالم تستطع أن تخلق ، فلا أقل من أن تدمر وتخرّب ، ولهذا فإن مشكلة المستقبل لن تكون « هل يحدث انقلاب أو لا يحدث ؟ » ، بل هل يكون الانقلاب للخير والإصلاح ، أو للخراب والدمار ؟

استميورت : وهكذا يؤدي بك تفكيرك إلى أن تكون رجلاً نورياً .

§ ٩ الموقنين مارتن : أرجوك المَعذرة . لا بد لي أن أستجمع شوارد أفكارى ، فقد الخائف والمثل العليا خرجت في حديثى عن دائرة هذا النقاش . لقد كنت أحاول أن أشرح لك رأيي فيما بين المثالية والواقعية من علاقة ، وكيف أعد هذه العلاقة قوة حقة . ولا يسعنى بطبيعة الحال أن أثبت أننى على حق ، ولكن ما قلته هو الذى أعتقد ، وقد قلت ما أستطيع أن أعبر عنه في هذه الظروف الحاضرة . استيورت : إنى أستطيع أن أتبين إلى حد ما ما ترمى إليه .

مارتن : إذن فأنت ترى أيضاً أن المثل الأعلى ليس من هذه الناحية خيالا ووهما بعيد المنال ، بل هو على العكس ذو صلة لا تنقطع بالحقائق القائمة معه في وقت واحد ، وهذه الحقائق هى التى تبعته ، وهى التى تقف فى سبيله ، وهو وإن لاح فى السماء ليس نجما بعيد المنال ، وهو الضوء اللامع الذى يقده زناد الخصام والنزاع .

استيورت : نعم .

مارتن : ومن أجل هذا تدعى الاشتراكية الحديثة التى نحن بصددنا الآن أنها ليست أضغاث أحلام ، بل رؤيا صادقة تنبئ عن المستقبل الخطير الذى ينطوى عليه الحاضر ، وتسمى نفسها لهذا السبب علما من العلوم .

استيورت : إن مبلغ علمي أن هذا السبب من أوهن الأسباب .

مارتن : لست أظن أنا نفسى أن علمها صادق صحيح ، كما لا أظن أن ضرورتها جد ضرورية ؛ ولسكنى أظن أن فيها ذلك القدر من الصدق ، وهو أن أملها فى المستقبل قائم على أساس دراستها للحاضر ، وأنها تدرك أن مثلها الأعلى نتيجة تطور فى الأشياء حقيقى ، وإن هى أخطأت نخطؤها فى ظنى أنها فى معارضتها لدعاة المدينة الفاضلة ، تحاول استبعاد كل دعوة إلى المثل الأعلى ، وتظن أن فى استطاعة القوى الصناعية وحدها مستقلة عن عامل

الاختيار الإنساني أن تخرج من حرب الطبقات وليدًا جديدًا هو الأخوة § ٩ المعلقة بين
والسلام . ذلك في رأيي وهم باطل ، وإذا كان مقدراً أن تخرج الاشتراكية إلى
الناس مثلاً أعلى ، فلا بد أن يكون ذلك المثل الأعلى نتيجة تفكير منها وإرادة ؛
ومبلغ علمنا أن وجود هذا المثل أو عدم وجوده ليس أمراً مفروضاً على الإنسان
تحتّمه الاقدار ، بل هو موقوف على اختيار الإنسان نفسه . وكل ما يشترط
في هذا الاختيار ألا يكون اختياراً في أفلاك النجوم ، وقصوراً تقام في الهواء ،
بل يجب أن يكون اختياراً على هذه الأرض الصماء ، في موضع منها نستطيع
أن نقيم عليه بناء من مواد قريبة للثال . وفي وسعي أن أدعي أن هذه هي صفات
المثل الأعلى الذي كنا نشيد صرحه ، وهذا ما أبرره باعتقادي أنه سوف
يهدينا إلى العمل .

استيورت : لقد ذكرت لك ما أنكره أو أشك فيه ، ولست أريد أن
أكرر ما قلته . والذي يهمني أن أعرفه ، إذا سلمت بأن مثلك الأعلى مستطاع
التحقيق ، هو الطريقة التي تريد أن تتبعها لتحقيقه ، فهل أنت كما سألتك
من برهة وجيزة رجلاً نورياً ؟

مارتن : ليس في من عوامل الخير أو عوامل الشر ما يجعلني صالحاً لهذا
الغرض . إنني أبغض التفسك والخلال الروابط ، والفوضى والاضطراب ،
كما يبغضها كافة الناس إذا استثنينا أحسنهم أو أسوأهم ؛ ولست أكره
الأغنياء لغناهم ، ولا الأقوياء لقوتهم ، لأن ذلك لا يفعله إلا أدنياء الناس ؛
فلست إذن ثورياً ، وإن كنت أظن أن أجل الثورة قد يجيء .

استيورت : لا شك في أن هذا الأجل قد يجيء ، إذا سمح للاشتراكيين
أن ينالوا مبتغاهم .

مارتن : أما أنا فأقول إذا سمح لأصدقائك في حي المال في لندن أن

§ ٩ العمدة بين ينالوا مبتغاهم ، ولا أقل من أن يحدث هذا إذا كانت صورتهم التي انطبعت في الحقائق والمثل العليا ذهني والتي أخذت عناصرها منك أنت ، صورة صحيحة صادقة .

استيورت : أية صورة تقصد ؟

مارتن : يخيل إلى — وربما كنت منه فآ في هذا الخيال — أن كل الطبقات المالكة ، من مديري المصارف وأرباب الأموال ، ومديري المصانع والمحامين وأصحاب المهن ، تجهل المسائل السياسية ، مجذبة الخيال فيها إلى أقصى حد مستطاع ، وأن عماها عن رؤية الإنصاف في الأمور الخطيرة لا يقل عن تشبها به في الأمور التافهة ، وأن عجزها عن فهم حركة المجتمع بأكملها وتيارها الجارف لا يقل في شدته عن إدراكها لتلك الفقاكات الصغيرة التي تبدو على سطحه ، أي تلك الحروب والأزمات التي تأتي إليها بالربح والخسارة . وهي لا ترى في هذه الظاهرة القوية الهائلة المسماة بالاشتراكية ، والتي هي روح هذا العصر ، كما كانت حركة الأحرار روح العصر الذي قبله ، لا ترى في هذه الظاهرة إلا مظهراً لجشع الفقراء وحماقة العاطفيين ، وخبث المغامرین ، وهي جامحة فوق أملاكها كما يحتم « ففتر » Fafnir^(١) على خزائنه ، معتمدة على هذا الخاتم السحري . خاتم الشرائع والحقائق المقررة الثابتة . والحق أنها قد تفلح بوقفها في سبيل هذه الحركة في إشعال نار الثورة ، وأقصد بالثورة هنا الاضطراب والدمار والخراب الذي يحل بها وبالمجتمع كله .

استيورت : إذن فأنت تعترف على الأقل بأن الثورة تؤدي إلى الدمار والخراب

(١) Fafnir مخلوق خرافي في الأساطير الهولندية ، وتصفه هذه الأساطير بأنه كان يملك كنزا عظيماً ظل جاثماً عليه في صورة نين هائل حتى قتله سجيرد Sigurd وأصبح هو صاحب هذا الكنز العظيم ، فهو مثل لمن يكتز المال ويمنع تداوله لا ينفع به هو ويمنع غيره من الانتفاع به .

مارتن : نعم ، وما ذلك إلا لأننى لا أعتقد أن فى مكان ما فى هذه الساعة § ٩ المهرق بين طائفة كبيرة من الناس تصلح للحياة فى مجتمع خير من هذا . وإذا قال بعض الفوضويين إن الأجراء قد أوتوا من الكفاية أو من الرغبة ما يستطيعون به أن يقيموا غداً بالقوة مجتمعاً منصفاً مؤتلفاً مطرد الرقى ، كان قولهم هذا وهما وخداعاً . ذلك أن تاريخنا ونظمنا قد أوجدا فى كل واحد منا من الرذائل والعيوب ما أوجداه فى غيره ؛ ولا يسعنى إلا أن أعتقد أن أهم ما تطمع فيه طبقة العمال منا هو ما تطمع فيه كل الطبقات ، وهو أن تكون أغنى من سائر الناس . وأما رأيها فى الغنى فلا يختلف عن رأينا فيه ، وهذا الرأى هو أن تسرف فى الماء كل والمشرَب ، وأن تلبس اللباس السخيف ، وأن تلعب للعب القاسى الأخرق . ولست أظن هؤلاء خيراً منا ، وكل الفرق بيننا وبينهم أنهم فى القاع بدل أن يكونوا فى القمة ؛ وماداموا لا يفهمون من الاشتراكية إلا أنها وسيلة ترفعهم إلى القمة ، أو على الأقل تضع غيرهم فى القاع ، فإنهم لن يجعلوا المجتمع خيراً مما جعلناه . ولن توجد فى العالم اشتراكية ذات قيمة مثالية حتى تتبدل عقول السكثرة الغالبة من الناس فى جميع الطبقات وتتبدل أخلاقها . استيورت : كأننى بك تقول إن الاشتراكية فكرة غير عملية ، وكأنك تتخلى عن قضيتك من أولها إلى آخرها .

مارتن : لا أقول هذا ، لأننى أعتقد أن الناس سيهتدون ، وستكون هدايتهم سبباً فى رقى أنظمتهم رقىاً تدريجياً من جهة ، ونتيجة لهذا الرقى من جهة أخرى . وليس أبغض إلى من الطبيعة البشرية كما تبدو الآن إلا الثورة ، أى السكائرة المحققة العاجلة .

استيورت : إذا وصل الأمر إلى هذا الحد رأيت الناس كلهم دعاة للهداية .
مارتن : ولكنهم لا يدعون للهداية بالمعنى الذى أفهمه منها . إن المقابر

§ ٩ الموقرين والصحف لتدعو في الغالب إلى عكس هذا المعنى ، لأن المنابر والصحف حماة الحقائق والمثل العليا . والنظام الحاضر . ولست أقصد بالهداية أن يذهب الناس إلى الكنائس ، أو أن يصبحوا رحماء فيما بينهم ، محسنين متصدقين ، أشرفاً عادلين ، في حدود القانون القائم ، والعرف الأخلاقي الحاضر ؛ بل الذي أقصده أن تتبدل نظرة الإنسان كلها إلى القانون ، وإلى المبادئ الخلقية ، وأن يقر بأن نظريته الحاضرة إليهما خاطئة أو على الأقل غير وافية بالقرض .

استقيورت : إن الذي تهديه سيهتدى في الواقع إلى ما تسميه الصحف اليومية سرقة .

مارتن : لاشك في أنه سيقول كما يقول برودن Proudhon ^(١) إن « الملكية سرقة » ؛ ولن يقول ذلك من قبيل التمثيل أو التلاعب بالألفاظ ، بل يقوله عن عقيدة قوية واضحة سيكون لها أكبر الأثر في موقفه من كل دعوة إلى التغيير . فإذا ما سمع بمشروع يهدد الملكية من قريب أو بعيد فإن يرفع عقيرته ويسمى تلك الدعوة « مصادرة » ، بل كل الذي يشغل باله عندما يسمعها هو كيف يقضى على الملكية — وأعني بطبيعة الحال قانون الملكية الحاضرة — بأقل ما استطاع من الاضطراب والفوضى والألم . فإذا كان فقيراً انحصر تفكيره في كيفية تيسير فترة الانتقال على المالكين ، وإذا كان غنياً فكر في خير الوسائل التي يجعل بها هذا التغيير عاجلاً قوى الأثر إلى أقصى حد مستطاع . فأما المحامون فسيكون عملهم مناصرة

(١) برودن Pierre Joseph Proudhon اشتراكى فرنسى ١٨٠٩ — ١٨٦٥ . اشتراكى في ثورة سنة ١٨٤٨ ، وانضم فيها إلى الدعاية الاشتراكية ، وأنتفاً بعدها عدة صحف لهذه الدعاية ، وقضى في السجن من سنة ١٨٤٩ إلى سنة ١٨٥٢ . وحكم عليه مرة أخرى بالسجن لما أصدر كتابه « العدالة في الثورة وفي الكنيسة » ولكنه فر إلى بلجيكا . وصدر العقو عنه سنة ١٨٦٠

التغيير لا الوقوف في سبيله كما يفعلون الآن ؛ وأما رجال المال فسيبدلون § ٩ المبررة بين ما في وسعهم لسكيلا تتأزم الأمور أثناء التغيير بدل أن يثيروا الأزمات الحقائق والمثل العليا ليروغوا بها دعاة الإصلاح ؛ وسيفرغ الصنّاع أقصى مجهودهم في العمل والادخار ، ولا تحسبني قائلًا « مع أن » بل سأقول « لأن » ما يدخرونه سيذهب إلى المجتمع ؛ وسيعمل الأجراء بعد أن يصبحوا خدم الجمهور بهمة أكبر وحماسة أعظم مما يعملون بهما الآن ، وسيشعرون بتبعة أقوى من التي يشعرون بها في هذه الأيام .

استيورت : سيكون هذا في الحق هذاية وأى هذاية .

مارتن : نعم سيكون . أما ونحن على ما نحن عليه فإن الذي يحدث بالفعل ، والذي يحتمل أن يحدث ، كما عمل شيء أو لاح الخطر بأن شيئاً سوف يعمل ، في سبيل المصلحة العامة ويمس الملكية مساً خفيفاً ، أقول إن الذي يحدث والذي يحتمل أن يحدث هو أن تضم الطبقات المالكة صفوفها لساعتها من غير ما تفكير وبطريقة وحشية حقاً للدفاع عن أية سيئة وعن كل سيئة تأت بهم بدخل . فترى المحامين وقد أخذوا من فورهم يعملون ليحبطوا هذا السعي ، وترى الصحف تفيض أعمدتها بالمقالات لتشويه المشروع المقترح واستفزاز عواطف الناس ، ثم تمنع رؤوس الأموال من التداول ، ويخرج الصنّاع من أعمالهم وتحل الأزمة الاقتصادية ، كل ذلك ليبقى هذا الظلم أو ذاك قائماً لا يعترض عليه معترض ، ولتظل هذه الصورة أو تلك من صور السلب والنهب باقية مخلدة . ولا تنس أن الذين يفعلون هذا كله أناس صالحون راحون محترمون ، إذا وزناهم بجميع موازيننا المألوفة ؛ فهم أرباب أسر مخلصون ، ورجال مقتصدون عاقلون بعيدو النظر ، وهم الدعامة التي يقوم عليها كيان المجتمع ، والعامل الأكبر في رقيه كما يؤكد

§ ٩ المرفقين لنا الاقتصاديون ، وهم على حق في قولهم هذا إذا أخذنا بفروضهم . إلى هذا الحقائق والمثل العليا الحد قد انقلبت كل المعايير ، وقصرت عن الوفاء بالغرض كل الدساتير التي أوجدتها أنظمتنا الحاضرة .

استيورت : لقد قلت أنت نوا إن الطبقات المالكة ليست وحدها غير الصالحة للاشتراك . نعم إن الذين تتألف منهم هذه الطبقات يعارضونها ، وأنا أرى أنهم يحقون في هذه المعارضة ، ولكنهم مع ذلك يتصفون بتلك الصفات التي تمكنهم من أن يعملوا بها إذا قبلوا مبادئها . فالإخلاص للمصلحة العامة موفور لديهم ، وقد أوتوا حظهم من الشرف والكفاية ، في حين أن طبقة الصناع لم تؤت من هذا كله شيئاً ، لأنهم لا يكادون يجتمعون في عمل عام حتى يتهزوا أول فرصة ليمتازوا ويتشاقلوا ويمتنعوا عن العمل ، وكل الذي يحرصون عليه حقاً أن يقوموا بأقل عمل وأن يؤجروا عليه أكبر أجر . ومهما تسكن آراؤهم في الاشتراكية من الناحية النظرية ، فإنها لا تعني لديهم من الوجهة العملية إلا استغلال دافعي الضرائب لمنفعة طبقتهم الخاصة .

مارتن : إن أحاول أن أخص كل طبقة بنصيبها من الفساد الخلق الاجتماعي ، وليس الذين يعملون بأيديهم في نظري أقرب إلى المثل الأعلى من أمثالي وأمثالك ممن يعيشون من ريع أملاكهم ؛ ومن أجل هذا لم أكن رجلاً ثورياً ، ومن أجله تراني أدعو إلى الإصلاح الخلق وأصر عليه ؛ ولكنني أقول كما قلت من قبل إن هذا الإصلاح الخلق يتطلب تغييراً في نظرتنا إلى أنظمتنا ، يتطلب ألا تعد هذه الأنظمة نهائية تعلق على الشك ، بل أن تراها أنظمة انتقالية هي أقرب الأشياء إلى الشك ، وأنها تراث خلّفه لنا الماضي ، ولكن تراث سيئ وإن لم يكن في استطاعتنا أن نرث خيراً منه . وليس

علينا أن نصطف لتأييدها والدفاع عنها ، بل علينا أن نحللها ونفصلها ونظهر § ٩ المبرزين كل ما فيها من فظاعة ، حتى نبغضها ونبغض أنفسنا لأننا جعلناها مستطاعة الضرورية ، ثم نصمم على أن نغير طبيعتنا البشرية لأنها السند الوحيد لهذه النظم . وهذا التغيير الروحي هو جوهر الاشتراكية ، كما أن العمل على تخليد الروح السائد في هذه الأيام هو جوهر المعارضة الموجهة لها .

استيورت : لست أظن هذا صحيحاً . إن الكثيرين منا يشعرون بعطف أفلطوني على الاشتراكية ، ولكننا نعتقد أنها غير عملية ، وفي وسعي أن أقول ، وأنا آمن من الزلل ، أن ليس منشأ هذا الاعتقاد هو المصالح الحزبية وأنه قائم على أسباب قوية صحيحة منتزعة من الاشتراكية نفسها .

مارتن : لست أجادل في أن كثيراً مما يدعو إليه الاشتراكيون قد يؤدي في الواقع إلى عكس ما يرجى منه إذا وضع الآن موضع التنفيذ ، بل إنني أقول فوق ذلك إنه قد يؤدي إلى كارثة كبرى . ولا شك في أن من الصعب أن نقبأ — وتلك حالنا التي نحن عليها — بالأثر الذي يمكن أن يحدثه فرض ضريبة خاصة على قيم الأرض ، أو وضع مشروع لإيجاد طائفة من صغار الملاك ، أو جعل الضريبة متدرجة في نسبتها^(١) . ويرى رجال الحكم والاقتصاد السياسي أن لا مناص لهم من أن ينظروا إلى أمثال هذين الاقتراحين في ضوء الحقائق الحاضرة ، وقد يؤدي بهم تفكيرهم الذي لا يخالطه شيء من العداء قط إلى الجهر بأنها اقتراحات غير عملية . وهذه هي النقطة التي أريد أن أوكد بها : إن كونها عملية أو غير عملية موقوف على حالة عقلية خاصة تؤثر في نظرة الناس

(١) الضريبة المتدرجة أو التصاعدية هي التي يزيد معدلها مع ازدياد الدخل ، وقد أخذت كثير من الدول في الأيام الأخيرة بهذا المبدأ فرفعت نسبة الضريبة على الدخل الكبير حتى كادت هذه الضريبة تستغرق الجزء الأكبر منه .

§ ٩ المدونة بين الحقائق والمثل العليا الذين يضطرون إلى العمل بها ، وهذه الحالة العقلية هي أساس كل تفكيرهم واستنتاجهم . مثال ذلك أنه إذا كان الذين يتأثرون بإجراء ما يعدونه إجراء

ظالما ، فإنهم سيرغبون من غير شك في أن يفوتوا عليه قصده ، وأكبر الظن أنهم سيفلحون في رغبتهم هذه ، وسيفعلون ذلك وهم مرتاحو الضمير ؛ وإذا رأوا أن نظاما وضع للصالح العام ليس إلا وسيلة يراد بها الوصول إلى مآرب شخصية ، فإنهم قد يحولونه من أداة نافعة إلى كارثة مدلهمة ؛ ويكون المعنى المقصود بقولهم إن هذا الإجراء أو ذاك غير عملي أو مستحيل التنفيذ ، في أمثال هاتين الحالتين ، أن الشارع لن يصل إلى الغرض الذي كان يبتغيه ، وإن كان قد سن القانون وشرع في تنفيذه . ولكن الاستحالة بهذا المعنى ليست كاستحالة تغيير قانون الجاذبية إذا طلب تغيير هذا القانون ، لأن الذي يقف في طريق التنفيذ في الحالة الأولى هو الطبيعة البشرية لا طبيعة الأشياء ذاتها ، والطبيعة البشرية يمكن تغييرها وإصلاحها إذا صحت إرادة الإنسان نفسه . استتيورت : قد يكون هذا ، ولكن إذا بدأت الطبيعة البشرية تعدل ففكرنا عن ماهية الإنصاف ، فماذا تكون الحال ؟ وإذا ساءت الاشتراكية من كل اعتراض عليها ، فحسبنا ذلك الاعتراض الخطير المشؤم ، وهو أنها لا تستطيع أن تخرج إلى الوجود إلا مصحوبة بألوان من الظلم لا تطاق .

مارتن : إن اعتراضك هذا يوضح كل الوضوح النقطة التي أريد أن أشرحها ؛ وفي وسعي أن أرد عليه من فوري ، فأقول إنه قد نشأت بيننا بسبب أنظمتنا الحاضرة فكرة عن الإنصاف ، لا أقول إنها خاطئة كل الخطأ بل أقول إنها فكرة ناقصة مشوهة .

استتيورت : وماذا تقصد بذلك ؟

مارتن : أقصد أن الشعور بالإنصاف ، وهو قوة اجتماعية حقة عظيمة

الخطر ، يسرى في جميع الطبقات وبخاصة في طبقة الأغنياء ، ولكن سر يانه S ٩ المرفقة بين
مقيد بنظام الملكية المعمول به في هذه الأيام . مثال ذلك أن الشيء الوحيد
الذي تعدده كثرتنا الغالبة ظلماً بيدنا حقاً هو أن تمتنع من إنسان مملوكة دون
أن تعوضه عنه تعويضاً عادلاً كاملاً ؛ ولهذا فإنك لا تجد صرخة احتجاج
أقوى وأعظم أثراً من صرخة الاحتجاج على مصادرة الأملاك . فإذا ما اقترح
بعضهم مشروعاً لإصلاح بعض ما في نظام توزيع الثروة من مظالم ومساوئ ،
وكان أخف للمشروعات وألينها ، واتبعت فيه أبسطاً سنن التدرج وأقلها إثارة
للقلق والاضطراب ، أقول إذا ما اقترح بعضهم مثل هذا المشروع علت هذه
الصرخة في الحال . ولهذا فإن الاعتقاد بأن الأنظمة الاشتراكية أنظمة ظالمة
هو كما قلت أنت من قبل أول الأسباب وأهم الأسباب التي تجعل هذه النظم
غير عملية .

استيورت : وهو سبب قوى من غير شك .

مارتن : لا أنكر أنه عقبة قوية في سبيل المصادرة ، ولكنه لا يدهض
حجة الداعين إليها . ولست أفصد بقولي هذا أنى أنكر كما ينكر الكثيرون
من الاشتراكيين أن المصادرة إجراء بعيد عن الإنصاف ، ولا أستخر مع
الآخرين وأقول إن المصادرة قلما حالت بين الأغنياء وبين اغتصابهم أموال
الفقراء ؛ وحسبى أن أذكرك بما أدى إليه تحليلنا للملكية . لقد حاولت أن
أبين لك — ولقد خيل إلى أنني كدت أفنحك — أن الملكية في حد ذاتها
نظام غير عادل ، وإن كنا قد ألفنا ظلمه حتى عجزنا عن إدراكه . كذلك
لا يبدو أن في الإمكان تغيير هذا النظام تغييراً أساسياً دون الالتجاء إلى
وسائل يمكن أن توصف بحق بأنها مصادرة . وعلى هذا فإن هناك تعارضاً
من ناحية المبادئ الأخلاقية ، فهل نعمل على تأييد الظلم أو نعالجه بظلم مثله ؟

§ ٩. الموقنين — وإذا وضعنا السؤال في هذه الصيغة — وهي في اعتقادي الصيغة التي يجب الحقائق والمثل العليا أن يوضع فيها — اتضح أننا إذا سمينا عملاً من الأعمال مصادرة لم تكن هذه التسمية اعتراضاً جدياً خطيراً عليه . لكن المشكك أعقد من هذا كثيراً : إن علينا أن نسأل « هل الشر الذي تنطوي عليه مصادرة الملك أعظم أو أقل مما ينطوي عليه تأييد الظلم القائم الآن ؟ » وليس الجواب عن هذا السؤال بالأمر الهين ، ولن يكون هيناً في يوم من الأيام ، ولكن الذي لاشك فيه أن الكثرة الغالبة تكون على الدوام في جانب المعارضين لكل مصادرة مهما كانت خفيفة تدر بحجة رحيمة ؛ وإنما الذي يقف في سبيلنا هو عجز الناس عن وضع السؤال في هذه الصيغة ، أو امتناعهم عن وضعه إذا لم يكونوا عاجزين ، وهذا العجز أو الامتناع موقوف هو نفسه على نقص في إدراكهم شروخ المجتمع الحقمة وأسبابها . ومنشأ ذلك النقص هو ما يطوقون به من قيود العادات والأهواء والمصالح ، والقيود أثر من آثار ضعف خيالهم ، وهذا الضعف نتيجة لازمة لنقص ذكائهم ، وسبب من أسباب هذا النقص في الوقت نفسه . وهذا كله يرجع بنا إلى ما قلته من قبل ، وهو أن هذه العقبة الكبرى التي تقف في سبيل الإصلاح إنما تنشأ من حالة عقلية خاصة ؛ وما دامت هذه الحالة العقلية قائمة فلا أمل في الرقي أيا كان نوعه .

استيورت : إنك إذا قضيت على هذه الحالة العقلية قضيت معها على كل احتمال لوجود مجتمع من أي نوع كان .

مارتن : لا أظن هذا ؛ لست أنكر أن لا قيام لأى مجتمع إلا إذا كانت لديه فكرة واضحة راسخة عن الإنصاف ، ولكن لم يتحتم أن تكون فكرة الإنصاف هي هذه الفكرة التي نتمسك بها الآن مع ما فيها من الوهن والقصور ، وهي أن حقوق الملكية حقوق ثابتة على مدى الأيام ، لا يمكن أن تخرق

حرمتهما مهما كانت السيئات التي تنطوى عليها ؟
استيورت : إذا كان فيها سيئات وجب على المجتمع أن يتحمل النتائج الحقائق والمال العليا
التي تؤدي إليها إزالتها ، وبذلك يفقد الحسنات من الضياع .

مارتن : إن المجتمع لم يكن ينظر إلى الملكية هذه النظرة على الدوام ، ولم يكن دائماً ليعاب عليه أنه لم ينظر إليها هذه النظرة ؛ فهو لم يعرض تجار الرقيق مثلاً عما خسروه يوم حرم عليهم هذه التجارة . على أنني لا أتمسك بهذه النقطة لأني أوافقك على أنه في الحالات التي يصح أن يعطى فيها التعويض بحيث لا يعطل إعطاؤه ، ولا القدر الذي يعطى منه ، الغرض الذي يتخذ الإجراء من أجله ، وجب أن يعطى من غير شك ؛ ولكن هذا الشرط لا يتوافر في هذه الحالة من حالات الانتقال الواسع الضخم الذي تفكر في إحداثه لقلب نظام الملكية من أساسه . ذلك أن تعويض المالك عن كل ما يخسرونه سيؤدي إلى تأييد تلك الحقوق نفسها التي يفترض أننا نعمل للقضاء عليها ؛ فإذا كان قصدنا استبدال الملكية العامة للأرض ورأس المال بالملكية الفردية لهما ، كان من السخف الواضح أن نتحدث عن ذلك التعويض الكامل ، لأن معناه أننا نسند بإحدى اليدين نظام الملكية الفردية الذي نريد أن نقضى عليه باليد الأخرى .

استيورت : وهكذا تلجأ إلى السلب والنهب كما قلت من قبل .
مارتن : وما الداعي إلى استخدام هذه التعميرات ، ولسنا الآن فوق منصة الخطابة . إن أماننا إذا كنا من الاشتراكيين مشكلة واضحة نريد حلها ، وهي إيجاد حالة من الإنصاف والقضاء على ظلم . وليس بخاف أن الطريق الموصلة إلى الحل هي أن نجعل الظلم ينطوى على أقل ما يمكن حدوثه من الآلام الحقة ، وهذا مستطاع لو أن الناس عتقوا وصبروا ، ورضوا بأن يجعلوا

§ ٩ المذقة بين منهاج الإصلاح يمتد زمناً طويلاً . والصعوبة التي نواجهها هي أنا حتى إذا
الحقائق والمثل العليا سرنا هذا السير الوئيد ، وكان الشر الذي ينتج منه لا يكاد يذكر إلى جانب
الخير المؤكد ، عد هذا العمل مصادرة ، ولم يرفضه فقط أولئك الذين يناهضون من
ورائه أذى ، بل يرفضه معهم كثيرون ممن قد يفيدون منه ، دون أن يكلف
هؤلاء وأولئك أنفسهم مشقة بحثه والنظر فيه .
استيورت : وهذا شاهد على متانة أخلاقهم .

مارتن : لا أنكر أنه شاهد على أنهم يرفعون الأخلاق فوق المصالح ، وهم
لذلك جديرون بالاحترام ؛ ولكنه لا يشهد بأن إدراكهم للأخلاق هو
الإدراك الصحيح . واست أريد أن أقول إن هذا الإدراك باطل ، بل كل
ما أريد أن أقرره أنه إدراك قاصر غير واف بالغرض ، وأنه في حاجة إلى
ما يكمله ويصححه ، بإلقاء نظرة شاملة واسعة المدى على مظالم نظام الملكية
القائم بيننا .

استيورت : مهما أطلقت على عملك هذا من الأسماء ، فإن ما تريد أن تعمله
في الحقيقة هو أن تدعو الفقراء إلى اغتصاب أموال الأغنياء .

مارتن : إن تصوير المسألة بهذه الصورة هو الذي أرى أن لابد من تجنبه ،
لأنك إذا صورته كذلك أجابك الاشتراكي من فوره : « إن قوام نظامك
الحاضر هو اغتصاب الأغنياء أموال الفقراء ، وأنا أرفض طريقتك في
الإنصاف ، وأؤيد طريقتي ، وما دمت مصراً على رأيك ، فلا مفر لنا من
القتال » . وإذا وضعت المشكلة هذا الوضع فلا أرى مندوحة عن القول
بأن مركز الاشتراكي أقوى من مركز خصمه ؛ ولكن الحقيقة أن
مركز الاثنين كليهما خاطئ ، فليس المجتمع استغلالاً لمتعمدا للفقراء على يد
الأغنياء ، بل هو خليط مهوش سخييف دنيء ، نما خلال قرون طويلة من

العنف ، وأبدته قرون من البلاهة والجشع . وإن الأغنياء فيه يرثى لحالهم S ٩ المرفقة بين
الحقائق والمثل العليا في كثير من الأمور كما يرثى لحال الفقراء أنفسهم ، وإن الفقراء ليستحقون
اللوم كما يستحقه الأغنياء . ولو أن الناس أدركوا هذا وشعروا به لسكان
من المحتمل أن نبدأ حقاً سيرنا إلى الأمام ؛ ومتى صلحت الإرادة وجدت
الوسيلة الصالحة مهما لقينا في سبيل وجودها من المشقة . وربما كان أصح
من هذا أن نقول إنه متى صلحت الإرادة أصبحت كل وسيلة موصلة
إلى الغرض المطلوب .

استيورت : ليس في هذا شك لو أننا جميعاً لم نكن بشراً ؛ بل
كننا ملائكة .

مارتن : است أطلب شيئاً فوق طاقة البشر ، وكل ما أطلبه أن نفهم
مجتمعنا حق الفهم ، وأن نحكم عليه الحكم الصحيح ؛ وإذا أمكن الوصول إلى
هذا بالتعليم — وليس الوصول إليه بالأمر المستحيل — حلت من نفسها تلك
المشاكل الجمة التي يظن أنها مستعصية على الحل . ذلك أن الاعتراضات التي
توجه إلى الأعمال الاشتراكية ، تكاد كلها تستند إلى القول بأن الناس
بلهاء جبلاء ، شرهون ضيقو العقول ، وهو قول يصدق في أيامنا هذه وعلى
مجتمعنا هذا .

استيورت : مثال ذلك ؟

مارتن : تصور أي مثل شئت . لنفرض أنه قد اقترح أن تفرض ضريبة
دخل عالية ، أو رسوم تركت عالية متدرجة ، فماذا يحدث ؟ سيقولون لنا
إن الضريبة إذا زادت على نسبة معينة انتقلت رؤوس الأموال إلى خارج
البلاد ، أو امتنع الناس عن الادخار ، أو عن العمل في سن الشيوخوخة ،
فينقص الإنتاج لهذا السبب ، وتكون الخسارة التي تصيب المجتمع إلى أفقر

§ ٩ المبدأ بين الحقائق والمثل العليا فقير فيه من هذه الضريبة والرسوم أكثر من الفائدة التي تعود عليه من هذا التوزيع المنصف . أكبر الظن أن هذا صحيح ، ولكن ما معنى هذا ؟ إن المعنى الذى ينطوى عليه هو أن للناس عقلية تحملهم على ألا يعملوا ويدخروا إلا لأنفسهم ولأبنائهم لا للمجتمع . أظنك أنت وأصدقاك كلهم ستقولون : « هذا مبدأ أزلى » ، بل قد تظنون أنه مبدأ صالح مرغوب فيه ؛ أما رأي أنا فيه فإنه ليس أزلوا ولا صالحاً ، بل هو عمل بدائى همجى ، وحالة عقلية ناشئة عن الجهل وإجذاب الخيال . وقد آن أن يفهم الناس — أى أن يشعروا ويعرفوا — ما هو المجتمع ، وكيف يرتبط كل عضو فيه بسائر أعضائه ، وكيف يساعد كل إنسان فيه على إنتاج كل شئ . يناله أى إنسان ، وكيف لا يقوم توزيع الثروة والفرص والسلطان فى هذا المجتمع الحاضر على مبدأ من المبادئ . ليعرض هذا كله على كل إنسان ، وليعرض عليه باللغة التى يفهمها أكثر من غيرها ، وليكن عرضه عليه على أنه من الحقائق البسيطة الواضحة ، لا بطريق التهديد الذى يستثير حفاظ النفوس ، وأنا موقن بعد ذلك أن هذه العقلية التى أستنكرها ستبديل وتعدل .

استمورت : إن هذا هو الفارق القديم بينى وبينك ، إنك تؤمن بأن فى الإمكان تغيير الطبيعة البشرية .

مارتن : إنى أعتقد أن الطبيعة البشرية تتغير من حيث علاقتها بمراحل المدنية ، وليس شئ أبعد عن العلم الصحيح ، ولا أمتع للرقى والتقدم ، من القول بأن سلوك الناس فى هذه الفترة الهمجية الانتقالية هو المبدأ الأزلى للطبيعة البشرية ، وبأنه مبدأ ثابت لا يتغير كدورة الأرض فى فلسكها حول الشمس ، وهذا بعينه ما يقول به على الدوام رجال الحكم بل ورجال الاقتصاد أنفسهم فى خفة ونزق ، وهو بعينه سبب ما يشور من النزاع بينهم وبين الأنبياء

المصلحين والشعراء ، لأن هؤلاء الأنبياء المصلحين والشعراء هم العصاة الذين § ٩ الموقنة بين
يؤيدون حقوق الإنسان كما سمين ، وكما يجب أن يكون ، على حقوق الحقائق والمثل العليا
الإنسان السكأن ؛ هم عصاة الحياة تسرى في شجرة الإنسانية ، هم الفصون
النامية تشق طريقها إلى الضوء . فإذا ما رفع الرجل العمل عقيرته ونادى
« إن هذه الشجرة أخشاب ميمة » وردد صدى ندائه رجل العلم ، أجابه الشاعر
على الفور « لا ! لا ! إن هذه الشجرة حية ، إن ماء الحياة يجري فيها ، وفيها
أوراق وبراعم ، ولن تكون كما هي الآن إذا أقبل الربيع . إني أعرف هذا ،
أعرفه حق المعرفة ، وأنا واثق منه كل الوثوق ، وإن كنت لا أستطيع أن
أقيم عليه الدليل » .

استيورت : قد يكون هذا قولاً حسناً على لسان الشعراء ، ولكن هذه
العقلية وهذه اللغة ليست عقلية رجال الحكم ولا لغتهم .

مارتن : نعم ليست عقلية رجال الحكم ولا لغتهم في هذه الأيام ، ولكنها
قد تكون عقليتهم ولغتهم في غد ، لأن أشد ما يؤلمنا وأشد ما نشكو منه كلنا
هو انفصال الشعر عن الحياة وانفصال الخيال عن العمل .

استيورت : ربما كان ذلك ، ولكن العلاج لا يكون بأن نحقق الشعر
ونتخيل الحقائق .

مارتن : نعم ، ولكن العلاج يكون بتبديل حياتنا الداخلية بقوة الخيال
كما نبذل الآن حياتنا الخارجية بقوة العلم ، ولن يكون ثمة رقى حقيقي حتى
يحصل هذا التبديل ؛ وإذا ما حصل تبدلات لهجة المنتخبين والسياسيين
والصحف وأقوالها في هذه الموضوعات التي نحن بصدددها ، وعلى قدر هذا
التبديل يكون ذاك . إني ذاهب غداً إلى موطنى لأنتخب ، وما أقل حماسى
لهذا الانتخاب ، لأننى أعرف عجز الإنسان عن العمل مادام الناس يحالمهم

§ ٩ الصراخ بين الراهنة . ولكنى أسمع من داخل نفسى خطبة بليغة لم ينطق بها قط لسان ،
الحفائى والمثل العليا وأحس بجواب عنها لم يصدر بعد .

استيورت : هاتِ لنا هذه الخطبة .

مارتن : وهل تعدنى بأن ترد الجواب ؟

استيورت : أنا لا أبذل وعوداً فهاتِ الخطبة .

مارتن : لست رجلاً منطلق اللسان ، يواتيه الكلام ويتابعه ، ولكنى
سأضئ إليك بخلاصة ما تحدثت به نفسى . تصور المرشح العظيم ، وتصور
جماعة الناضجين وقد شهدوا على مر السنين ذلك الصراع العقيم ، وتصور تلك
الساعة الرهيبة التى لا يعلم فيها مصيره ، وتخيل صوته ينبعث من شعوره
وعاطفته القوية وهو يبدأ خطابه بقوله : « أيها المواطنون ! إني أتف بينكم
لأطلب إليكم تفويضاً بالثورة على هذه النظم القائمة . لقد مضى وقت الأعمال
الصغيرة التافهة ، والألفاظ الجوفاء ، والمبادئ المستورة التى يستعان بها على
الوصول إلى أحط الأغراض . لقد جئت إليكم لأصارحكم برغبتي ونييتي ،
ولأقول لكم إنكم إذا فوضتم إلى أمركم وضعت لكم مشروعا يبدل نظام
الملكية القائم بينكم من أساسه . أما الأسباب التى تدفعنى إلى هذا العمل
فأنتم تعرفونها ، ولست أشك فى أنكم تقدرونها كما أقدرها أنا نفسى . ليس
من ينكر أن هذا النظام الذى نعيش فى كنفه لا يتفق مع العقل فى شيء ،
فما عدد قليل يملك أكثر مما يطيق ، وفى يد بعضنا ما يكفيه ، أما أكثرنا
الغالبه فملقة مُقترعة .

« فأما المملقون المقترعون فيحصلون على القليل الذى يصل إليهم بالسكد
والعمل المتواصل فى أبغض الأعمال إليهم وأكثرها خطراً عليهم ، وإنها كما
لأجسامهم طوال حياتهم وفى كل يوم منها إذا سمح لهم بذلك ؛ فإذا لم يؤذن لهم

بالعمل على هذا المنوال غصت بهم الملاحي والسجون ، أو انضموا إلى طبقة § ٩ العمرة بين
المجرمين ، أو حصدتهم الموت زمراً من فرط الجوع . وأما الذين اتهمتهم الخائف والمثل العليا
الثروة فمنهم طائفة تكمد هي الأخرى ولكنها تكمد في أحب الأعمال إليها
وأكثرها استثارة لنشاطها ؛ ومنهم طائفة أخرى لا تعمل قط وتصرف
وقتها في القضاء على نفسها وعلى كل من يعتمدون عليها . يضاف إلى هذا أن
توزيع الثروة والعمل على هذا النحو توزيع وراثي في الواقع ؛ فأطفال الأغنياء
الموسرسين ينشئون متمتعين بجميع مزايا التعليم والفرص السانحة ، أما أبناء
الفقراء فتقف في سبيلهم كل العقبات . فنحن في المجتمع أشبه بالخيول في
سباق ، ولكنه سباق يقوم على غير أساس ، لأن المرجع فيه إلى مولد
الشخص لا إلى كفايته ؛ وقد كان الناس من قبل يسمون هذه الحالة منافسة
حرة ، ولكننا قد عرفنا الآن كيف نسميها باسمها الصحيح وهو الفوضى
الاجتماعية . وكلنا يرثي لهذه الحال السيئة ، وكلنا يرغب في تغييرها ، ولكني
أصدقكم القول إننا نرهب الإقدام على هذا العمل ، لأننا نعلم أن الإقدام
عليه يتطلب منا أن نهجم الملكية . ومع أن قانون الملكية القائم بيننا
الآن هو أصل كل ما نزرع تحته من مظالم ، فإننا نعدو الأساس الذي يقوم
عليه مجتمعنا الحاضر ، ونخشى إن نحن مسسناه أن يتهدم بناء المجتمع كله
ونقضى نحن تحت أنقاضه . إن علينا أن نطرح هذا الخوف جانباً ؛ وإذا
أنا فزت بثقتكم كان عملي بعد الاسترشاد بآراء أقدر الناس العاملين والاستعانة
بها ، أن أعد مشروعا ينتقل بنا من هذه الحال إلى حال اجتماعية أخرى أحسن
منها وأقرب منها إلى الإنصاف ، من غير أن يؤدي هذا الانتقال إلى تقلقل
خطير أو رجة عنيفة . ولا شك عندي في أننا قادرون على هذا العمل إذا
أردنا حقاً أن نعمله ؛ ولكن علينا أن نريده كلنا سواء منا من تصيبه خسارة

§ ٩ الموقر بين
القائرون والمثل العليا
عاجلة ومن يسيبه خير عاجل ؛ وليس المشروع الذى أطلب إليكم أن تفوضوني
فى وضع صيغته مشروعا حزيماً ، وليس المقصود منه أن يسلب الفقراء أموال
الأغنياء ، بل هو مشروع يمهّد السبيل لقيام مجتمع أكثر من يجتمعنا الحاضر
رخاء ، وأوسع حرية ، وأنبل منه من جميع الوجوه ، تتعاون على وضعه جميع
الطبقات برضاها واختيارها .

« وأنا أدعوكم كلكم إلى هذا التعاون ، وأدعو منكم الأغنياء قبل غيرهم ؛
فهاهى ذى الفرصة قد سنحت لهم ، وهأنذا ألجأ إليهم ؛ ألجأ إلى ما فى نفوسهم من
شهامة ومروءة ، بل أذهب إلى أكثر من هذا وأقول إنى ألجأ إلى مصالحهم
الحقة . فهل هم سعداء بغناهم ؟ وهل ضمائرهم مستريحة بهذا الغنى ؟ وهل
حياتهم واسعة جريئة نبيلة ؟ وهل يجدون لهم أينما ذهبوا أصدقاء ؟ وهل
يحبههم الناس ويحلونهم ؟ أو هل تراهم فى معسكر بين أعداء منفصلين عن
غيرهم ، محسودين أو محقرين ، لا تربطهم أواصر المودة بأبناء جنسهم ،
مقطوعى الصلة بأشرف العواطف الإنسانية والحاجات البشرية ؟ وهل يرضيهم
ويمرهم أن يروا أبناءهم يدخلون معترك الحياة وقد فسدت أحوالهم فى مهدهم ،
ولم ينالوا حظهم من التدريب والنظام والتهذيب ، لا يصالحون لعمل ،
ولا يقدرّون على التمتع بلذة ، أنانيين ضيق العقول ، سخفاء مستهترين
مخادعين ؟ وهأنذا أعرض عليهم وعلى أبنائهم تلك الفرصة العظيمة ،
أعرض عليهم لذة العمل الجدى المشترك للصالح العام ، أعرض على نفوسهم
الصادية ماء الحياة الزلال ، أعرض عليهم تلك الفرصة السانحة لأن يكونوا
وطنيين حقاً . أليست هذه فرصة تستحق منهم البذل والبذل العظيم ؟ لكننى
أعرضها عليهم رخيصة الثمن ، فلن تصيبهم منها خسارة عاجلة . نعم إن أبناءهم
وأبناء أبنائهم الذين لم يخرجوا إلى هذا العالم بعد سوف يبدأون حياتهم بين

السفوف ، وهى حال ما أسعدهم بها ؛ ولكن الأغنياء بيننا سيحتفظون § ٩ العلاقة بين
 بغناهم ، ولن يكون السكبار من أبنائهم فقراء . ذلك بأننا سنسير فى تعديل الحقائق والمثل العليا
 نظام توزيع الثروة على مهل فى رفق وأناة . وليس ما نطلبه إلى الأغنياء
 هو التضحية العاجلة بشئ من مالهم ، بل إن ما نرغب فيه منهم أن يتعاون
 أعظمهم مقدرة وكفاية على إيجاد خير الوسائل المؤدية إلى الغرض المنشود ،
 وأن يرضوا كلهم فى إخلاص ووفاء بالخطة التى نضعها بمؤازرتهم .
 « أما الفقراء فلهم عندى رسالة أخرى . إني أطلب إليهم أولاً أن يصبروا
 على حالهم نصف قرن من الزمان ، كما صبروا عليها أجيالاً طويلاً ، وأن يقنعوا
 بالنظر إلى تلك الأرض الموعودة التى لن يدخلوها هم أنفسهم بل سيدخلها
 أبنائهم وأبناء أبنائهم . إنهم أقوياء بعديدهم ، ولكن تلك القوة لا تكفيهم ،
 لأنهم فى حاجة إلى قوة مواهبهم ؛ وإذا لم يعنهم على غرضهم زعماء الصناعة
 فلن ينجزوا عملاً أو يبلغوا قصداً . وليس من حسن السياسة ولا من الإنصاف
 أن ينفروا قلوب أولئك الزعماء بأعمال يرون أنها مصادرة لأموالهم . هذا إذن
 هو الذى أدعوكم إليه ، أدعوكم إلى الأناة وإلى الاعتدال . ولكن الأناة
 والاعتدال أقل ما أطلبه إليكم ، فأنا أدعوكم أيضاً أن تسموا بأنفسكم وتهيئوها
 للانتفاع بهذه الفرص الجديدة التى سنحت لكم ؛ فقد كنتم إلى الآن تعملون ،
 تلهب أجسادكم سياط الخوف على أنفسكم وعلى أبنائكم ، أما الآن فتعلموا أن
 تعملوا بدافع الوطنية وحب الخير العام ، وعليكم أن تستفيدوا من الفرصة التى
 بدأت تسنح لكم ، فتتعلّموا بأجر قليل تعلّماً أحسن من تعليمكم السابق ،
 وأقرب منه إلى الحياة العملية . ولا تقصروا علمكم على شئون حرفتكم ، بل
 عليكم أن تعرفوا أيضاً مقامكم بوصفكم أعضاء فى جسم المجتمع . تحمّلوا
 التبعات ، وأشعروا أنفسكم العزة والكرامة ، وانظروا إلى التواكل والغش

§ ٩ المصدقين والفساد على أنها جرائم تحط من شأنكم ومن شأن المجتمع الذي تعيشون الخلق والمثل العليا فيه ، واجعلوا القانون الذي ستضعونه من هذا اليوم بأنفسكم لأنفسكم مظهر إرادتكم . وليس المستقبل الذي أدعوكم لأن تهيموا أنفسكم له هو الرخاء فحسب ، وليس هو الإنصاف نفسه فحسب ، بل هو مستقبل من الخدمة العامة يعملون فيها غفورين قاصدين . إني أعرض عليكم حريتكم الروحية ، فكونوا أنتم وأبنائكم جديرين بها . إننا نفتتح أمامكم أبواب معبد الإنسانية المقدس ، فطهروا أنفسكم حتى تستطيعوا أن تدخلوه .

« وأقول لكم كلكم ، أغنياكم وفقرائكم ، في ختام خطابي هذا : لم يعد بعد من حيث المبدأ للطبقات وجود ؛ وليس ثمة عمل دنيء وإن كانت هناك أعمال كثيرة شاقة مرهقة ؛ ولن يكون رجل في الأيام المقبلة فقيراً محتقراً كما هو الآن لأن عمله شاق مرهق ؛ وسيكون همنا من هذه الساعة أن نجعل الأعمال كلها شريفة والفراغ نبيلاً ؛ وسيكون هذا السعي مصدر وحيثاً وبهجتنا . لقد انقضى زمن الخمول والتراخي في بذل الجهود ، والتواكل والملل واليأس والمذات المصطنعة والانفعالات الحقيرة . سنبقى الحياة سرّاً لا يدرك كنهه ، ولكنّها ستصبح سرّاً عظيماً ؛ وسيكون الإحساس بها والغرض منها في متناول مداركنا ، ينادينا هذا الغرض نداء واضحاً لا خفاء فيه ؛ وسنعمل حين نريد العمل ونتمتع بفراغنا حين نريد أن نتمتع به ؛ وسيكون لعملنا وفراغنا ما يبررها . سيبقى العالم في خارجنا سرّاً غامضاً ، أما في داخل نفوسنا فسيكون النداء للعمل ، وستكون نظمنا هي السبيل التي نسلكها إليه . وماذا نبغي غير هذا في حياتنا القصيرة ؟ وهذا النداء الذي أدعوكم لتلمييته أنبل نداء دعى الناس لأن يستجيبوا له . أدعوكم أن تقلعوا عن العمل البطيء . تُسكّرون عليه ، وأن تعملوا مندفعين بنفوسكم الحرة التي تملأ جوانبكم ؛

أدعوك أن تحسنوا استخدام نظمكم لأن تُسخروا أنفسكم لهذه النظم تسخييراً؛ § ٩ المرفقة بين
أدعوك ألا تتركوا الأشياء كما أوجدتها المقادير تتحكم فيكم ، بدل أن تتحكموا المقادير والمثل العليا
أنتم فيها بأرواحكم الإنسانية . أليس هذا الغرض مما يستحق التضحية إذا
بدأ أن التضحية واجبة ؟ أليس جديراً بجهودكم وأفكاركم وخيالكم وإيمانكم ؟
وما قيمة منازعاتنا التافهة عما تملك أنت وما أملك أنا بالقياس إلى هذا الغرض
السامي ؟ إنني أنا وأنت لا نملك كلنا إلا نفوسنا ، فلنعمل لنكون سادة هذه
النفوس ؛ أما ما عداها فسيأتي إلينا طيعاً من نفسه .

استيورت : أهذا كل ما لديك ؟

مارتن : هو كل ما أستطيع نقله في هذا المكان والزمان .

استيورت : كل الذي أطلبه إليك ألا تحاول إعادة هذه الخطبة على
المنصة حين ترجع إلى موطنك .

مارتن : أنا لا أقول هذا القول على منصات الخطابة ، ولكني لا أخطب
مطلقاً إذا لم يكن هذا الصوت أو ما يشبهه يناديني في قرارة نفسي . وهذه
هي النغمة التي أسمعها يوماً بعد يوم في خرير ماء النهر وحفيف أوراق الشجر ،
والتي ترددتها أصدااء الجبال .

استيورت ، ألا ما أفل عقلت ! وهل كان النهر وكانت الأشجار والجبال
ترشدك إلى من يجب عليك أن تعطيه صوتك ؟

مارتن : أجل . ولهذا سأعود إلى موطني .

استيورت : وهل لي أن أسألك عما أشارت عليك به ؟

مارتن : لك أن تسأل ، ولكنني مُحَصَّن بسرية الانتخاب .

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٤٣



AUB. LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



00484530

